أحوال مصر

عندما كان "عباس باشا"[1] واليا على مصر، كان متشددا مع أفراد عائلته والأمراء من خواص جده محمد على باشا. وتسبب فى نزوحهم إلى إستانبول . وأخذوا يشكون من "عباس باشا" وبالغوا فى الأمر، فأفسدوا العلاقة بينه وبين "رشيد باشا" ". وفى تلك الأثناء طالب أبناء "محمد على باشا"بميراثهم، فقرر "رشيد باشا" الافتئات على "عباس باشا"، وقرر أن يرسل "فؤاد أفندى" مستشار الصدر الأعظم إلى مصر، لكى يجمع الأدلة التى سيتخذها ذريعة لإقناع الدول الكبرى، وليجعل منها شاهدا على "عباس باشا" ومن ثم يعزله. فأرسل "فؤاد أفندى" فى مهمة خاصة إلى مصر بحجة وضع التنظيمات الخيرية موضع التنفيذ، وتسوية مسألة الميراث. وكان جلالة السلطان "عبد المجيد خان" يكره الإجراءات التى تنطوى على خلافات، مثل عزل أو تنصيب والى مصر. كذلك كان "عالى باشا"، "وفؤاد أفندى" لا يريدان الانشغال بأمر "عباس باشا". لكن "رشيد باشا" كان منازعا ومستبدا عنيدا، ولايتحمل رأيا مخالفا لرأيه. وأدرك "فؤاد أفندى" مثل هذه الأمور الدقيقة من سياق الأحوال والأقوال. وجاءت تصرفاته انعكاسا لأفكاره هذه.

وعند وصول "فؤاد أفندى" إلى مصر أمر بقراءة المرسوم العالى للتنظيمات الخيرية فى مقر الولاية بحضور الأمراء وأركان الدولة، لأن قراءته على الملأ لا تروق "لعباس باشا"، واعتبر "فؤاد باشا" أنه بهذا أعلن المرسوم. ثم سوى مسألة الميراث وديا، وأخذ من "عباس باشا" حوالى أربعين كيسا معونة للخزانة الجليلة، كما أطلعه على مسودة المرسوم، التى كتبها "رشيد باشا"، بعد تصويبها، وقال له: "مادام "رشيد باشا " ضدك، عليك أن تثير مسألة المحاسبة، واطلب تعيين محاسب. وهذا أمر عسير عليه، لكنك بذلك تؤدى خدمة للدولة، ولو نجحت فى استمالة الرأى العام لجانبك؛ فلن يستطيع " رشيد باشا " أن يؤذيك". واستطاع فؤاد أفندى بما آتاه

---

(1) عباس حلمى باشا (١٨١٦: ١٨٥٤م) حفيد " محمد على "، وثالث ولاة مصر، ساعد الدولة العثمانية فى حرب القرم بعشرين ألف جندى من مصر.

الله من معسول الكلام أن يقنع " عباس باشا "، ورفع خراج مصر من ستين ألف كيس إلى ثمانين ألف كيس. وكتب عباس باشا بهذا الخصوص خطابا ممهورا إلى الباب العالى، وعلى الفور عاد فؤاد باشا موفقا إلى إستانبول ، وقدم هذا الخطاب إلى " رشيد باشا "، على اعتبار أنه هدية كبيرة. فضاق " رشيد باشا " وشكره على مضض؛ لأنه أخفق فى تحقيق غرضه الخفى، وبمرور الوقت ساءت علاقتهما.

أما المصريون الذين فى إستانبول ، فكانوا يرددون: "لقد تواطأ "فؤاد أفندى" مع "عباس باشا"، وأخذ منه أموالا كثيرة، وعمل من أجل بقائه". ولهذا تفاقم ضيق "رشيد باشا" وغضبه من " فؤاد أفندى" الذى ارتفع نجمه، إذ صادفت خدمته هذه قبولا لدى جلالة السلطان. ولأن "فؤاد أفندى" "وعالى باشا" على قلب رجل واحد وهدف واحد، فقد انفصلا عن "رشيد باشا" وانضم إليهما "رشدى باشا" وزير الحربية، وبذلك ضعف جانب "رشيد باشا".

وعلى الرغم من اهتمام "رشيد باشا" فيما بعد باصطناع رجال آخرين بدلا عن "عالى"، " وفؤاد "، إلا أنه لم ولن ينجح فى هذا، لأن اصطناع رجلين مثلهما مرهون بما يجود به الزمان.

كان "فؤاد باشا" خبيرا بالشئون الداخلية للدولة، نفس خبرته بالشئون السياسية. وكان "رفعت باشا" المعروف، الذى شغل منصب رئاسة المجلس الأعلى لفترة طويلة، يتمتع بالذكاء الحاد، فسأل ابنه "رؤوف بك" (باشا)ذات يوم: " ترى من يخلف "رشيد باشا" ؟ ". فقال " "من الواضح أنه "عالى باشا".". فقال: "لا، ليس هو، بل"فؤاد باشا"، لأنه ذكى جدا ومبتكر. ولا يتمتع بنفس المكانة العالية، التى يتمتع بها " رشيد باشا "، كما أنه مداهن جدا".(صحيح أنه لا يتمتع بمكانة رشيد باشا، لكنه منافق) وقد سمعت هذا من " رؤوف بك ".

مسألة قناة السويس

اتبع "سعيد باشا" منهجا مغايرا لمنهج "عباس باشا" (فى علاقته بالدول الأوروبية) ومال إلى سياسة فرنسا. فكان "عباس باشا " يحافظ على الأصول المرعية

منذ عصر جده (محمد على باشا). أما "سعيد باشا"، فقد نهج نهجا أوربيا تماما. وأصبحت إيرادات مصر لا تغطى نفقاتها، وفى تلك الأثناء عقد مع "دليسبس" اتفاقية لحفر قناة السويس، ورجع إلى الباب العالى بشأنها، لأن وضعها موضع التنفيذ مرهون بصدور مرسوم عال من جلالة السلطان، وقد عملت السفارة الفرنسية بدورها على الترويج لهذه الاتفاقية. وكان الإنكليز ضد مسألة القناة هذه، لأن الطريق البحرى إلى الهند لابد وأن يمر بطريق رأس الرجاء الصالح، وجزيرة إنكلترا هى أقرب أماكن أوربا إلى الهند. فى حين أن شق (القناة) سيجعل الفرنسيين الأقرب إلى الهند. أما الهند فقد كانت بمنزلة مستودع تموين الإنكليز، ولهذا كان تردد الدول عليها بشكل متزايد، يمس بالمصالح الإنكليزية. ولهذا كانت السفارة الإنكليزية تضع العراقيل أمام مسألة القناة. وكان "رشيد باشا" متمسكا بمنع مسألة القناة، لأنها تتعلق بسياسة فرنسا، ولأنه أدرك أن شق القناة من شأنه تعريض الشواطئ الإسلامية على جانبى البحرالأحمر للخطر. لكنه لم يجرؤ على إعلان معارضته، لعلمه أنها ستؤدى إلى سوء العلاقة مع فرنسا بشكل واضح. بناء عليه كتب "كامل باشا" رئيس المجلس الأعلى خطابا سريا إلى "سعيد باشا" بناء على تعليمات "رشيد باشا"، واعتمادا على علاقة المصاهرة التى بينهما، ينصحه فيه بصرف النظر عن مسألة القناة، هذا وقد أضاف "كامل باشا" إلى الخطاب أنه لا يمكن الثقة فى الفرنسيين، الذين سبق أن تخلوا عن والده "محمد على باشا".

ولأن "سعيد باشا" متسرع، فقد أطلع قنصل فرنسا فى مصر على هذا الخطاب، فشكا السفير الفرنسى من "كامل باشا" شكوى شديدة اللهجة. وطالب بعزله، وعندما طلب "كامل باشا" من "رشيد باشا" أن يعزله دفعا للبلاء، قال "رشيد باشا": "كلا فأنا الذى أمليت عليكم هذا الخطاب،ولا يمكن أن أعزلكم، وأتردد أنا على الباب العالى غير مكترث، أنا أرفض هذه التصرفات المنافية للشرف".

عرض (رشيد باشا) الأمر على جلالة السلطان، وقال لجلالته: "إذا صعب الأمر، فإننى سأضطر إلى الاستقالة حسب ما تقضى المصلحة، وينبغى أن يتفضل مولانا أيضا ويسمح بهذا". فأذن له جلالة السلطان.

وبينما كنت أجلس ذات ليلة مع "رشيد باشا " فى ساعة متأخرة من الليل،كتب تقريرا بخط يده، ثم طلب منى أن ألق نظرة على ما كتبه. ورأيت أنها استقالة يرجو فيها أن يعفى من منصب الصدارة العظمى. فسألته: "لماذا تفكرون فى الاستقالة ؟ فقد يفسرها مولانا بأنها استغناء، وهذا أمر يزعجه". فابتسم قائلا: "لهذا السبب استأذنت مولانا منذ أسبوع فى الاستقالة، وستعرض هذه العريضة على جلالة السلطان غدا، وعلى الفور يتم تعيين صدر أعظم آخر، فأنا غير راض أبدا عن مسألة القناة هذه، وباستقالتى أكون بعيدا عن تنفيذها".

والواقع أن ما قاله قد كان، وظلت الأمور السياسية بين يدى "عالى" "وفؤاد باشا". ولما كانا يتصرفان كشخص واحد، فقد بدا ميلهما ناحية فرنسا أكثر من ميلهما ناحية إنكلترا، لكنهما عانيا كثيرا فى تنفيذ هذا الأمر الخطير، الذى سبق أن ضاق منه "رشيد باشا".

وفى تلك الأثناء، كان نفوذ فرنسا ساريا فى كل مكان خاصة فى إستانبول ، وكان الفرنسيون دوما وراء إصدار القرارات التى يريدونها فيما يتعلق بمسألة القناة. وقبل انتهاء حفر القناة توفى "سعيد باشا"، وأصبح "إسماعيل باشا" واليا على مصر، وسار على نفس نهج "سعيد باشا" فى الإسراف، وزاد عليه، وأتم أيضا مشروع القناة. وفى افتتاح القناة، أقام مأدبة عامة من قبيل البذخ لكل الذين جاءوا من أوربا للمشاهدة، وذلك حتى يروق فى نظر الأوربيين. وتدفقت أمواله كالنهر الجارى، وحضر افتتاح القناة مندوبو الدول من كل أنحاء الدنيا، بصفتهم متفرجين، وعبر القناة حوالى تسعين سفينة، تسع منها إنجليزية، وباقى السفن للدول الأخرى. فقال " أوتره " رئيس مترجمى فرنسا فى إستانبول ، إلى المرحوم"كمال بك" الذى كان تشريفاتى الخارجية وممثل والى مصر فى إستانبول : "سيدى البك، لقد ضاعت مصر وأخطات دولتنا، لعنة الله على "دليسبس". ألا تهب الآن عاصفة رملية، وتردم هذه القناة". فقد تأكد الفرنسيون فى ذلك اليوم أن خصمهم "رشيد باشا" كان على حق.

لمّا استأذن " عمرو بن العاص " ﷺ، وقت أن كان واليا على مصر، سيدنا " عمر بن الخطاب، ﷺ فى شق قناة السويس، قال له: "هذا أمر مستحيل، لأن الروم سيعتدون على هذه المناطق ". وفى زمن خلافة " هارون الرشيد " أمر بشق قناة من بحر السويس إلى البحر الأبيض، فعارضه وزيره " يحيى البرمكى "، وقال له: " إن هذا يفتح الطريق أمام الروم، لمهاجمة سواحل الحجاز".

وكنت أقص على "رشيد باشا" هاتين القصتين، كلما أثيرت مسألة قناة السويس، فقال "رشيد باشا ": "لقد اشتغلت بالمسائل السياسية للدولة ردحا من الزمان. وتجولت فى أوروبا سفيرا، وأصبحت على دراية جيدة بأفكار الأوربيين. ومن العار ألا أستطيع إدراك العواقب التى يمكن أن تتعرض لها الدولة العلية مستقبلا من جراء حفر قناة السويس. إن فطنة "يحيى البرمكى" فى عهد "هارون الرشيد"، وقت أن كانت المعلومات الجغرافية ليست متطورة بالقدر اللازم، لأمر جدير بالاستحسان. لكن الرجل الذى لم يبرح أرض العرب، ولم يشق عباب البحار، ثم يدرك فى ذلك العهد تلك الأمور الدقيقة، لا يمكن وصف حدسه إلا بأنه من الكرامات.

obeikandl.com

ثانيا: أحوال مناطق البلقان وشرق الأناضول وبلاد الشام

المهمة التفتيشية

ترى؛ هل أصابت عين الحسد الدولة العلية ؟. فقد كان لها على حدودها عند توقيع الصلح(1)، مائتان وخمسون ألفا من الجند النظاميين، مزودين بخمسمائة وأربعين مدفعا، وملابسهم العسكرية جيدة ومتينة، وخيولهم قوية. كما عاد جنود الاحتياط إلى بلادهم بعد الحرب، موفورى الصحة معافين، وكانت إيرادات الدولة تزيد على مصروفاتها، وتقرر من مطلع العام توجيه هذه الزيادة فى الإيرادات، لتسديد بعض الديون المتفرقة هنا وهناك. ثم ظهرت خلال ثلاث سنوات ديون على القصر السلطانى قيمتها ثلاثة ملايين كيس تحملتها خزانة الدولة رغما عنها، مما أوقع الخزانة فى أزمة مالية، ومن ثم صارت عرضة للخطر.

أما روسيا، فقد شنت هجوما سياسيا ضد الدولة العثمانية للثأر منها، فادعت أن ظلما يقع على الرعايا غير المسلمين، فى منطقة " نيش "(2)، وأنهم يتعرضون لمعاملة غير إنسانية. ونتيجة لهذه الافتراءات التى روجتها بين دول أوربا، والاتهامات التى وجهتها للدولة العلية، طالبت الدول الأوربية بتشكيل لجنة من موظفى الدولة العلية وموظفى دول أوربا، تتوجه إلى "الروم ايلى" وتتقصى حقيقة أحوال غير المسلمين. وبينما روسيا تدفع القساوسة ومدرسى المكاتب إلى ترويج مجموعة من

(1) مؤتمر الصلح الذى انعقد فى باريس سنة ١٨٥٦م، لإنهاء حرب القرم بين روسيا والدولة العثمانية.
(2) نيش Niş: مدينة تقع الآن فى جمهورية الصرب. وكانت قد دخلت حوزة العثمانيين فى زمن السلطان " مراد الأول "، وانفصلت عنها سنة ١٨٧٨م، بموجب معاهدة برلين

الأكاذيب والافتراءات لإثارة البلغار، كان من الواضح أن ذهاب لجنة مختلطة على هذا النحو إلى منطقة " الروم ايلى "، سيؤدى إلى تفجر الوضع هناك.

وفى أثناء تحديد الذين سيذهبون لتقصى الحقائق فى الروم ايلى، أصر سفراء الدول الأوربية على إرسال لجنة مختلطة، على النحو المذكور. بناء عليه ذهب الصدر الأعظم " رشدى باشا " إلى السفارة الفرنسية، وأبلغهم أن الدولة العلية لن تقبل مطلقا إرسال لجنة مختلطة إلى " الروم ايلى "، ولما أصر السفير الفرنسى[1] على طلبه، أسكته " رشدى باشا "، بقوله: "سأذهب أنا بنفسى لتقصى الحقائق".

فى تلك الفترة، قرر جلالة السلطان عزل "رشدى باشا"، فأخذ منه الخاتم السلطانى، وبعد يومين أسند منصب الصدارة إلى "محمد باشا القبرصي"، وتلا ذلك مباشرة، ذهاب السفير الفرنسى إلى البلاط السلطانى، وأبلغه بما عرضه "رشدى باشا" ؛ فصدرت فى اليوم التالى "إرادة سنية" بذهاب الصدر الأعظم الجديد إلى " الروم ايلى "، للتفتيش، وأسند إلى "عالى باشا" منصب قائمقام الصدر الأعظم.

تكونت لجنة مختلطة برفقة الصدر الأعظم، مكونة من"عفيف بك" (مدير الديوان السلطانى)، "وبسيم بك" أحد أعضاء المجلس الأعلى وشقيق زوجة الصدر الجديد، وعبدكم ممثلا لأعضاء مجلس التنظيمات. وانضم إلينا من الأروام "فوتيادى بك"، وعن البلغار "غوربيل أفندى" (وهو غوربيل باشا والى الروم ايلى الشرقى فيما بعد)، وعن الأرمن "آرتين أفندى" (آرتين باشا مستشار الخارجية، والذى شغل منصب الوزارة فيما بعد).

وقد ادعى البعض أن مهمة " القبرصى" هذه إنما هى مناورة سياسية من "عالى باشا" "وفؤاد باشا "، بواسطة السفير الفرنسى، لإبعاد "القبرصى" عن إستانبول (والعلم عند الله).

---

(1) هو " بوريه Bourée " السفير الفرنسى فى إستانبول عام ١٨٥٩.

وفى اليوم الحادى عشر من شهر ذى القعدة، سنة ١٢٧٦هـ [١٨٥٩م] اجتمع كل الوزراء ورجال الباب العالى فى منزل الصدر الأعظم، بحى "قنديللى"[١]، لوداع الصدر الأعظم وصحبته قبل السفر إلى "وارنه"[٢] عن طريق البحر الأسود. وانفرد "عالى باشا" قائمقام الصدر العالى، "وفؤاد باشا" وزير الخارجية، بعبدكم هذا فى ركن قصى من حديقة المنزل، وقالا لى: "إن هذه المهمة التفتيشية مهمة دبلوماسية دقيقة، وإننا نتخذك وسيلة لمعرفة الأمور بكافة وجوهها. فأنت المسئول المعنوى فى نظر الباب العالى. فيجب أن تتسم تصرفاتك بمنتهى الحكمة وبُعد النظر، ولهذا لا يجوز لك التأخر أو التهاون فى إبلاغ وعرض الجوانب والقضايا، التى يجب أن يكون الصدر الأعظم على علم بها، والتى تفيد فى هذا الموضوع".

وفهمت من تنبيهاتهم المشددة هذه أننى فى موقع صعب جدا وحساس، لأن "القبرصى" رجل صعب المراس متسرع، يصدق كل ما يقال له، لكنه يتسم بسمة طيبة، هى أنه مهما بلغت حدته وتسرعه وتمسكه برأيه، سرعان ما يتخلى عنها ويرعوى للنصح إذا تبين له مجانبته الصواب. فإذا اقتنع بخطئه غير رأيه، ولم يصر على الخطأ. وقد أبديت رأيى فى أثناء هذه المهمة بمنتهى الحرية، وأبلغته بما يجب أن يعرفه، وأنهيت مهمتى بصورة تتفق مع تعليمات "فؤاد" "وعالى باشا". وكان هو أيضا ممتنا من تصرفاتى، وشاكرا لى اهتمامى وحماستى فى العمل.

اندلاع الفتنة فى الشام

كان خروج الصدر الأعظم إلى "الروم ايلى" أمرًا غير مألوف، لهذا أثار خروجه اهتمام الجميع. وفى أثناء انتظار نتائج هذه المهمة التى خرج لها، هجم دروز جبل لبنان على الموارنة[٣]، فأنزلوا بهم مقتلة عظيمة، وبدأ التدخل الأجنبى بلجوء الموارنة

(1) قنديللى: قرية تقع على بوغاز البوسفور، وكانت تعتبر آنذاك مصيفا للأغنياء، وكبار الشخصيات فى إستانبول .

(2) وارنه: تقع الآن فى بلغاريا على شاطئ البحر الأسود.

(3) أحد الطوائف النصرانية، التى تقطن جبل لبنان فى بيروت وطرابلس، وهم من أصل سريانى، وكانوا يتكلمون السريانية، ثم تعربوا، وأصبحوا يتكلمون العربية. عقدوا صلتهم بالفرنسيين فى فترة صراعهم مع الدروز سنة ١٨٦٠م، فبسطت فرنسا حمايتها عليهم.

إلى فرنسا، والدروز إلى إنكلترا. مما استدعى ذهاب "فؤاد باشا" إلى الشام فى مهمة خاصة، وفى أثناء ذلك حدث تمرد كبير فى دمشق الشام أيضا.

ذلك أن نصارى سوريا طغوا بموجب (الحقوق التى منحهم إياها) فرمان التنظيمات. ودب العداء بينهم وبين المسلمين، وبسببه هاجم أكراد الصالحية مدينة دمشق وانضم إليهم الكثير من الأوباش، وهجموا على النصارى، فسرقوهم ونهبوهم وقتلوا منهم جمعا غفيرا، ثم انتقلوا إلى منطقة "ميدان"، وهى قريبة من مدينة دمشق وأكثر سكانها من العرب، واعتدوا على النصارى هناك. فثار "هولو بك" أكبر شخصية فى منطقة "ميدان"(وهو هولو باشا المعروف، وحامل رتبة أمير أمراء الروم ايلى،)، قائلا: " أليس فى هجوم الأكراد على منطقتنا مساس بشرف العرب وأشرافهم وأعراضهم". ودعى الأهالى للانضمام تحت لوائه، فانضم إليه كل أهالى منطقة ميدان، وهاجموا الأكراد وشتتهم، ثم تعقبهم إلى خارج المدينة وطاردهم حتى الصالحية. وهكذا نزع فتيل التمرد فى منطقة "ميدان"، وحوصر الأكراد فى الصالحية. وعمت الفوضى فى دمشق الشام وانعدم النظام نتيجة عدم تصدى الحكومة المحلية لهذه المسألة.

علم "فؤاد باشا" بأحداث دمشق وهو فى طريقه إلى بيروت، فاتجه مباشرة إلى بر الشام بمن وجده من الجنود، خاصة أن المشير "أحمد باشا"[1] كان مشغولا بصون نفسه، وفى الوقت الذى كان فيه الأكراد يتحركون بتحفظ فى منطقة الصالحية، شاع أنهم يجرون اتصالات مع الدروز، فرأى "فؤاد باشا" أنه من الأجدى أن يذهب إلى الشام مباشرة حتى لا يتفاقم الموقف، وفى الطريق هاجمه الدروز ؛ فشق "فؤاد باشا" صفوفهم وواصل سيره إلى مدينة دمشق، وأنزل بكثير من وجوه وأشراف البلدة عقوبات قاسية للقضاء على هذا التمرد. واتهم "سعيد بك" رئيس الأكراد حينذاك ("سعيد باشا" أمين مستودع تموين الحج الآن) بالتهاون مع الأكراد رغم قدرته

---

(1) المشير أحمد باشا (ت: ١٢٧٧هـ / ١٨٦٠م) كان مشير الجيش السلطانى الخامس، ووالى الشام فى عهد السلطان " عبد المجيد ". أعدم سنة ١٢٧٧هـ بسبب تهاونه فى واقعة الموارنة والدروز، التى وقعت فى الشام فى نفس العام.

على التصدى لهم ؛ ونفاه إلى بغداد ثم صفح عنه بعد فترة طويلة وأعاده إلى الشام. وقد أثنى "فؤاد باشا" على "هولو بك" لتصرفه الوطنى ومنحه رتبة ووساما وأصبح يستعين به فى كل الأمور المهمة.

كان "هولو باشا" نافذ الكلمة فى سوريا، طالما كان "فؤاد باشا" فى الحكم، وبعد "فؤاد باشا" دبت العداوة والمنافسة بينه وبين "سعيد باشا"، وكان كل منهما يعمل ضد الآخر، فكلاهما مشهود له بالكفاءة فى عمله ويمكن أن يحل محل الآخر، لذا كان التفوق يعقد لهذا مرة ولذاك مرة أخرى، ولكن الغلبة فى أغلب الأحيان كانت "لسعيد باشا"، لأنه الأكثر ثراءً. حتى إنه عندما انحلت أمانة مستودع الحج، لم يمكن ترجيح واحد منهما لتوليها، وعندما تركت مسألة ترجيح أحدهما إلى الباب العالى، وعرضت مذكرة بذلك، وقع الاختيار على "سعيد باشا"، ومع هذا فإنه لا يمكن إنكار الخدمات التى أسداها كل منهما للدولة، ومعاونتهما للحكومة المحلية.

وفى أثناء وجود الصدر الأعظم فى "نيش"، أرسل له الباب العالى معلومات تتعلق بأحداث سوريا. فقد جاء أمير اللواء "حسين باشا" إلى " نيش" موفدا من طرف السلطان، لطمأنة الصدر الأعظم. وذكرله تفصيلات شفوية عن أحداث سوريا.

أوشكت أعمال المهمة التفتيشية فى "نيش" وما حولها على الانتهاء، ورغب الصدر الأعظم فى التفتيش على منطقتى "اسكوب"[1]، "ومناستر"[2]، ثم العودة إلى إستانبول، قبل حلول الشتاء. أما الوزراء، فكانوا يريدون أن يقضى الصدر الأعظم فصل الشتاء فى " الروم ايلي"، وذلك لأن بعض السفراء أخطروا قائمقام

(1) اسكوب: عاصمة جمهورية مقدونيا، فتحها " ييلد يرم بايزيد " سنة ١٣٨٩م.

(2) مناستر Manastır: دخلت فى حوزة الدولة العثمانية سنة ١٣٨٧م. كان يحدها ولايات سلانيك شرقا، وقوصوه شمالا، ويانيه وإشقودرة غربا، واليونان جنوبا. وكانت تضم خمس أقضية هى مناستر، ودبره، وايلبصان، وگوريجه، وسرفيجه.

الصدر الأعظم، بضرورة القيام بمهمة تفتيشية لمنطقة "البوسنة"(1) أيضا. فذهب الصدر الأعظم إلى "اسكوب"، "ومناستر"، وأرسل عبدكم إلى البوسنة للتفتيش، وقرر العودة إلى إستانبول ، فقد وصلت برقية من البلاط السلطانى للصدر الأعظم بضرورة عودته فورا، وأن السلطان أصدر أوامره للترسانة بإرسال باخرة خاصة لميناء "سلانيك"، لتقل الصدر الأعظم إلى إستانبول . بناء عليه لم يقم الصدر الأعظم فى "مناستر" طويلا، وعاد فى الحال إلى "سلانيك"، واستقل من هناك الباخرة السلطانية السابق الإشارة إليها، وعدنا إلى إستانبول قبل حلول شتاء عام ١٢٧٧هـ [١٨٦٠م].

الأوضاع فى ألبانيا والجبل الأسود

كان التفوق منذ القدم معقودا للألبانيين على أهل الجبل الأسود، ولأن الباب العالى بمقتضى حكم الوقت لم يكن باستطاعته استخدام الألبانيين، لذا كانت جيوش الدولة توزع على المناطق المهمة على حدود الجبل الأسود للمحافظة عليها. رغم أنه لاينبغى استهلاك الأتراك وهم العنصر الأصلى فى الدولة العلية، فى أماكن كهذه.

بناء على ذلك، قام عبدكم الضعيف، بوضع خريطة لسنجق " إشقودرة "، وقدمتها إلى " فؤاد باشا "مع تقرير مفصل بينت فيه ـ بعد بحث أحوال الجبل الأسود ـ ضرورة تنظيم نوع من العساكر المحلية المقيمة فى "إشقودرة"وفق أصول

---

(1) البوسنة Bosna: كانت من قبل تعتبر فى أقصى الشمال الغربى فى الجانب الأوربى، من الدولة العثمانية، وهى منطقة جبلية فتحها العثمانيون سنة ١٤٦٣م. فى عهد "سليمان القانونى "، واعتنق نصف سكانها تقريبا آنذاك الدين الإسلامى، ووضعت مؤقتا تحت إدارة النمسا والمجر، بموجب معاهدة برلين سنة ١٨٧٨م. كان عدد سكان البوسنة يبلغ فى ذلك الوقت حوالى مليون ومائتين وخمسين ألف نسمة، أغلبهم من النصارى. وكان عدد المسلمين يبلغ حوالى خمسمائة ألف نسمة، وكانوا يتعلمون اللغة العربية والتركية، إلى جانب لغتهم الأصلية، البوشناقية. وكانت ولاية البوسنة تتكون آنذاك من ستة سناجق واثنين وأربعين قضاء وأربعة عشر ناحية. وعاصمتها مدينة سراى البوسنة.

وقواعد الجيش المحلى، يضم كل طوائف الأهالى بدون تفريق بين المسلم وغير المسلم. لأن اللاتين الكاثوليك الذين يقطنون شمال ألبانيا والمسلمين، كانوا وحدة واحدة، كما أن أغلب سكان الجبال فى "إشقودرة" من اللاتين. لذا لا يجوز أن يكون منهم صنفان منفصلان من الجند. فالجيش الواحد الذى يضمهم معا، ستكون له الغلبة دوما على سكان الجبل الأسود، ويمكن توجيهه إلى الصرب عند الحاجة، وهكذا لن تكون هناك ضرورة لإرهاق الجنود الأتراك، واستنزافهم على حدود الجبل الأسود.

لكن فى تلك الأثناء كان "فؤاد باشا" منشغلا بإصلاح الأحوال المالية، فلم يتسع له الوقت للنظر فى المسألة. وأكدت على هذا الأمر فيما بعد مرارا وتكرارا، غير أن الوقت والأحوال لم تكن مواتية لتنفيذ هذه الفكرة. أما أهل الجبل الأسود، فقد تمادوا فى طغيانهم نتيجة الدعم الذى يلقونه من أوربا، وبالتالى استمر عدوانهم على المناطق والقرى المسلمة، وبلغ ضررهم حدا لا يحتمل. وأرسل "فؤاد"، "وعالى باشا"، فى طلب عبدكم، وبدأنا مناقشات جادة بخصوص الجبل الأسود، وعندما أوصى "عالى باشا" بالتحفظ فى التصرف عند خط امتياز الجبل الأسود، كما كان فى السابق. قلت:

"لو أعطيتمونى ولاية البوسنة، مع وجود هذا الامتياز الذى يتمتع به أهل الجبل الأسود، لفتحت أوربا كلها، لأنه لن يستطيع أحد منهم أن يتجاوز الحدود، أما أنا فأستطيع الخروج من أى مكان وأصيب ما شئت من أهداف. دون الاعتماد فى هذا على قوة الدولة".

فكر "فؤاد باشا" برهة، ثم قال: "إن الحق معك". أما "عالى باشا" فأطبق صامتا. ونظرا لأن الدولة حصلت فى هذه الأثناء على القرض الأوروبى، وبالتالى تحقق للخزانة قدرا من السعة، وأصدر"فؤاد باشا" قرارا بضرب منطقة الجبل الأسود. ثم عين السردار الأكرم "عمر باشا" قائدا عاما، وألحق بمعيته كل من

"درويش باشا" قائد فرقة الهرسك، "وعبدى باشا" قائد منطقة "إشقودرة"، فحملوا على الجبل الأسود، وأدبوا أهله وأخضعوهم للنظام.

أحوال المناطق المتمردة

منذ أمد بعيد ورعايا الدولة من المسلمين وغير المسلمين فى البوسنة والهرسك يحاربون جنبا إلى جنب، بل إن المرحوم "على باشا" متصرف الهرسك، كان إذا أرسل الجيش إلى أى مكان، يرسل معه نصارى الجبل.

وقد جمع السردار الأكرم "عمر باشا" بعد انتصاره على أمراء البوسنة والهرسك، الأسلحة التى فى حوزة النصارى، لكن سكان الجبل قاوموه ورفعوا راية العصيان. لهذا أطلق على هذه المناطق اسم المناطق العاصية. ولم يكن من الممكن ردعهم، بسبب دعم سكان الجبل الأسود المستمر لهم، لأنهم على نفس مذهبهم. وفى النهاية تم ضرب منطقة الجبل الأسود وتأديب سكانها كما سنوضح. وبينما كان الأمر يستحق إصلاح أحوال منطقة "إشقودرة" على وجه السرعة دون الاهتمام بأمر إصلاحات إدارية، ذهب كل واحد من الأمراء الموظفين إلى ناحية، وضاع الهدف الأصلى، وعادت أحوال المناطق العاصية إلى ما كانت عليه، كما يقول المثل "حمام قديم وكوز قديم".

تنافس النمسا وروسيا فى البوسنة

انتهز النمساويون أوضاع الجبل الأسود لاستدعاء رؤساء المناطق العاصية، وفرضوا نوعا من الحماية المعنوية عليهم، وعملوا على استمالتهم بقولهم: "يجب أن نصطحبكم إلى إستانبول ونحصل لكم على الأوسمة والامتيازات". وفى الوقت نفسه يقولون للباب العالى: "سنأتى لكم بزعماء المناطق العاصية، فأحسنوا التعامل معهم لاستمالتهم وبذلك تنجو الدولة من خطرهم". وكان رد الباب العالى هو: "لوأقنعتموهم بطاعة الدولة، فهذا أمر يشكر لكم، أما أن تتعهدوا لهم بشيء، فهذا ما لن نقبله".

وكان الروس يكرهون أن يكسب النمساويون نفوذا فى تلك المناطق من خلال صداقتهم الوطيدة بسكان الجبل الأسود، وعندما علم الروس بهذا المسعى، بدأ قنصلهم فى "راكوزه" يعارض النمساويين بكافة الطرق، وعندما لاحظت الدولة العلية هذه المعارضة، أرسلت تعليمات شفوية إلى " برسيج " قنصل الدولة العلية، فى "راكوزه"، بأن يستفيد من هذا الوضع.

ومع أن "برسيج" من رعايا النمسا، إلا أنه راكوزي أصيل. وأهل "راكوزه" محبين للعثمانيين منذ القدم، وكانوا فى ذلك الوقت يمتلكون مائتى مركب تجارى، وشيوخ "راكوزه" يعرفون أن"راكوزه" وهى فى حماية الدولة العلية، كانت تمتلك ألفى مركب تجارى. ولذا بذل "برسيج" جهودا مخلصة للقيام بواجبه فى هذا الصدد كما عهدته الدولة العلية منذ أمد بعيد. وقد دفع "برسيج"، القنصل الروسى فى البوسنة عن طريق الباشا الوالى، إلى قبول عطية مقدارها خمسين ألف قرش. وعندما قبل قنصل روسيا هذه العطية، سارت أعمالنا فى ولاية البوسنة على ما يرام، وفى نفس الوقت بذلت الجهود لاستمالة القنصل الروسى فى الهرسك، عن طريق إظهار الاحترام له، ومعاملته كما ينبغى.

بناء على ذلك قام الموظفون النمساويون باستدعاء زعماء النواحى العاصية إلى "ستورينة"[1] لمناقشتهم فى أمر إرسالهم إلى إستانبول ، فى حين نصح قنصل روسيا فى "راكوزه" الرؤساء المشار إليهم بقوله: "إن النمساويين يريدون إرسالكم إلى إستانبول ببعض الوعود، ولن يضيركم شيء لو أخذتم منهم تعهدا قبل الذهاب إلى إستانبول ، وحذار أن تنخدعوا بالكلام المجرد".

وفى يوم مغادرة عبدكم "راكوزه" وصل رؤساء النواحي العاصية إلى "ستورينه"، وفى أثناء لقائهم مع الموظفين النمساويين، قالوا إنهم يريدون تعهدا مكتوبا حول ذهابهم إلى إستانبول ، لكن النمساويين لم يكن باستطاعتهم إعطاء هذا التعهد، وذلك لما جاء فى رد الباب العالى. ولذا حاولت النمسا إقناعهم بعدم

(1) قصبة فى الهرسك.

أهمية هذا التعهد، لكن الرؤساء خافوا من ذلك بطبيعة بداوتهم، وشكروا لقنصل روسيا تنبيهه إياهم، وانفضوا عائدين من "ستورينه".

وقد حاولت ـ عبدكم ـ الاستفادة من هذا الخلاف القائم بين سياسة روسيا والنمسا، وعملت على استمالة زعماء المناطق العاصية، ولم ينقض وقت طويل حتى جاءوا إلى "موستار" جماعة تلو الأخرى، وأعلنوا خضوعهم للهيئة التفتيشية.

وعلى النحو السابق جاءنا "حافظ أفندى" مقدم المدفعية، الذى أرسل من قبل إلى "ليبوشقه"، لأنه سمع بحضور زعماء المناطق العاصية إلى "موستار" فى وقت متأخر من الليل، لكنه استبعد هذا، وقال: "يزعمون أن الزعماء جاءوا إلى هنا، وجاء معهم "بوب زارقو"، ولابد أن فى الأمر خطأ. فقد سبق أن ذهبت إليه عدة مرات من طرف السردار الأكرم، وبذلت جهودا كبيرة لاستمالته وإحضاره إليه، لكنه رفض، ولذا فمن المستبعد مجيئه إلى "موستار". فأثار ذلك الخسيس شكوكنا، وعلى الفور ذهب حيث يقيم زعماء المناطق العاصية، وتقابل مع "بوب زارقو"، ثم عاد وهو لا يكاد يصدق أنه "بوب زارقو".

لا يستطيع أحد أن يأتى بما تأتى به الأيام، حيث إن استسلام وتسليم هؤلاء الزعماء جاء موافقا للضرورة السياسية وقتها، ومهما كان، فإن القول بأن البدو يخافون من الأمراء والضباط العسكريين، قد جُرِّب عدة مرات، وثبت بالتجربة أنهم كانوا يثقون فى الموظفين المدنيين، الذين يذهبون فى مهام خاصة من قبل جلالة السلطان.

كان هناك رجل متقدم فى السن، يدعى "حاجى دارجو"، من أعضاء مجلس اللواء، وأحد أعيان "موستار"، وعاصر أيام "نابليون بونابرت"، وهو أحد المندوبين الذين جاءوا إلى إستانبول قبل أربع سنوات بخصوص مسألة المزارع التى أشرنا إليها، وقد التقيتُ به عدة مرات فى إستانبول وتداولنا فى الأمر، وذات يوم جاء إلى عبدكم، ودار بيننا حديث سرى، فقد قال: "لو أمرتم بالقبض على زعماء المناطق العاصية الذين جاءوا إلى هنا لانتهى الأمر". فقلت: "كلا، يا والدى

الحاج، إن هذا مستحيل، لقد جاءوا بإرادتهم ولجأوا إلى ممثلى الحكومة، وحبسهم أمر لا يتفق مع الحكمة وأصول الحكم، ولا أملك سوى حسن معاملتهم، فقد جاءوا إلينا طوعا ". فقال: " لقد بذل السردار الأكرم من قبل جهودا كبيرة للقبض عليهم دون جدوى، وهو الآن فى إستانبول ، ومن المحتمل أن يستصدر أمرا حاسما من الباب العالى بالقبض عليهم". فقاطعته قائلا: "إنهم لم يستسلموا لشخصى، إنما استسلموا للهيئة الخاصة التى وصلت إلى هنا بأمر من جلالة السلطان وتوجيهاته. وقد استقبلتهم نيابة عن جناب السلطان وضمنت سلامتهم. وعليه فإن غدرت بهم، فإن هذا يسيء إلى عظيم المكارم الرفيعة السلطانية. حتى ولو صدر لى أمر من الباب العالى بالقبض عليهم، فلابد أن أرفضه".

ولا أعرف هل كان الشيخ يختبرنى أم يقدم نصيحة فى غير موضعها، لكن عندما جاء زعماء المناطق العاصية إلى "موستار" جماعة تلو أخرى خاطبونى ـ عبدكم ـ وقالوا لى: "إن مجيئكم إلى "إشقودرة" قبل عام ونصف، وحسن المعاملة التى أبديتموها مع زعماء الجبال وغيرهم، لهو أمر معروف لنا. وقد جئنا بدورنا ثقة فى عدالتكم وإحقاقكم للحق". وهكذا اطمئنوا بعد خوف وإحجام. وجاءوا "موستار"، وأقاموا بها، وبعد أن نسقوا أعمالهم عاد كل منهم إلى محلته. وهكذا انتهت أزمة المناطق العاصية.

كان "بوب زارقو" أميرا لناحية "بيوه"[1] أباً عن جد، ويأتى فى مقدمة الزعماء وأكثرهم نفوذا، والواقع أنه أكثرهم خبرة، ولأن "بيوه" ناحية كبيرة جدا، فإن أغلب المناطق العاصية المجاورة لها تكون تحت قيادته فى الحروب، لذا فشل"إسماعيل باشا الجركسى"، والسردار الأكرم "عمر باشا" فى القبض عليه فى الحروب الكثيرة التى دارت ضد "بوب زارقو" صاحب الكلمة العليا فى "موستار" أيضا،وكانت القرارت الخاصة بتلك النواحى تقرر معه أولا ثم يتبعه الآخرون.

---

(1) ناحية تقع فى " سنجاق الهرسك "، ويمر بها نهر يحمل نفس الاسم، يصب فى نهر " صاوه".

تمرد الهرسك

كان الأمن يستتب فى هذه المناطق (أى بيوه وما حولها) طالما كان "بوب زارقو" مطيعا [للدولة]، ولكنه ضاق فيما بعد من سوء معاملة الحكومة المحلية له ولجأ إلى الصرب.

إن بداية تمرد الهرسك التى سبقت الحرب الروسية الأخيرة(1)، كان من الممكن إخمادها فى مهدها، وقد أرسلت إخطارات كثيرة للباب العالى بهذا الخصوص لكنه لم يعط الأمر أهمية، وعندما بدأ الموقف فى التصاعد بشكل مضطرد، وعلمنا بمجيء "بوب زارقو" من الصرب إلى الهرسك على رأس مجموعة من الخارجين على القانون، أبلغت الباب العالى أننى أتوقع تفاقم التمرد، لكنهم أيضا لم يعطوا الأمر أهمية، وثم استشرى التمرد وخرج عن السيطرة وظهرت مشكلات الجبل الأسود والصرب، التى جرَّت معها الحرب الروسية.

وعندما نتحدث عن أحوال قضاء " ليبوشقه "، الذى أشرنا إليه من قبل، فإنه بسبب استمرار حروب الجبل الأسود والنواحى العاصية لفترات طويلة، كانت الدواب تصادر قسرا من الأهالى لنقل المعدات العسكرية، وكان أمر هذه الدواب أشد ما يزعج أهالى تلك المناطق لأن كثيرا منها كان ينفق، و فى الوقت نفسه لا يستطيع الأهالى تقاضى مقابل تشغيل حيواناتهم. وقد عانى قضاء " ليبوشقه " طويلا، بسبب أمر هذه الدواب. ويشطر نهر " تره بزان "(2) قضاء " ليبوشقه " إلى قسمين، فأعلن سكان الجانب الأيمن من النهر جهة الحدود النمساوية تبعيتهم للنمسا، وامتنعوا عن دفع الرسوم والضرائب الحكومية. واتضح من سير الأحداث أن النمساويين سيقومون بتوسيع حدودهم حتى النهر المذكور بحجة حماية هؤلاء السكان.

بناء على ذلك، تم إرسال المقدم "حافظ أفندى" على تلك المناطق، ليؤدى إلى

(1) حرب ١٨٧٧: ١٨٧٨م.
(2) نهر صغير يمر من قضاء " ليبوشقه "، فى الهرسك.

أهالى قضاء "ليبوشقه"، كل مستحقاتهم ـ مهما كان قدرها ـ وكذا أجرة تشغيل دوابهم. وأن يفعل كل ما يستميل الأهالى إلى جانب الحكومة، وقد نجح "حافظ أفندى" فى اجتذاب قلوبهم، بحسن أدائه لمهام وظيفته، خاصة وأن رؤساء الطوائف اللاتينية راقهم ما قام به. وقد حدث هذا على النحو التالى:

لم يكن للكنائس الواقعة فى المزارع الحكومية على طول الحدود النمساوية، حدائق خاصة، لذا أقنع "حافظ أفندى" أصحاب الأنصبة، بتخصيص حدائق كافية للكنائس، وقام بتحديدها بالقوائم، وعمل على ضم هذه المساحات إلى الكنائس، فشكر القساوسة اللاتين له هذه الهمة، وبينما هم يحفزونه لمواصلة هذا العمل، إذا بأصحاب الأنصبة يعترضون عليه بقولهم: "إننا نعترض على وجود أجنبى فى مزارعنا". واتخذ هذا الاعتراض وسيلة لصرف الحكومة عن الاهتمام بهذه المسألة.

وبفضل مظاهر إقامة العدل الذى تحقق فى تلك الأثناء، مزق المواطنون المتمتعون بحماية النمسا جوازات سفرهم وعادوا إلى تبعيتهم الأصلية [للدولة العثمانية]. ليس هذا فحسب، بل إن بعض نصارى الجبل انتقلوا إلى الجانب الآخر من النهر واستوطنوا هناك، وقبلوا أن يكونوا من رعايا الدولة العلية.

لكن لم يخل الأمر من خمسة أو ستة مفسدين من النمساويين، عملوا على إثارة الفتن فى الجانب الآخر، فقبض عليهم "حافظ أفندى"، وأرسلهم متحفظا عليهم إلى "موستار" على أن يتم تسليمهم إلى قنصل النمسا، فيرسلهم بدوره إلى دولهم.

وكانت حدود النمسا من جهة قضاء "ليبوشقه" فى حالة فوضى، حيث كان كثير من المهربين يهربون البضائع من الجمارك، فشرع "حافظ أفندى" فى تشييد ست قلاع على طول الحدود.

أما النمساويون، فكانوا يدعون لأنفسهم السيطرة على نصف قضاء "ليبوشقه"، ولذا لم يتركوا الإجراءات المذكورة تأخذ سيرها الطبيعى، وأرسل قنصل النمسا فى "موستار" رسالة احتجاج ضد "حافظ أفندى" يدعى فيها أن هناك ظلمًا واعتداءً

يقع على الرعايا النمساويين، فضلا عن بعض الأكاذيب الأخرى.. وبناء على البلاغات التى وردت من سفارة النمسا إلى الباب العالى، وردت برقية سامية، تأمر بالتحقيق مع "حافظ أفندى".

وبموجب الأمر الوارد بالبرقية، بدأ التحقيق مع "حافظ أفندى" أمام لجنة برئاسة عبدكم، وضمت المفتش العسكرى أمير اللواء المرحوم "فوسفور مصطفى باشا"، وأمير اللواء "محمود باشا"[1]، والمتصرف "جاويد باشا"، ومترجم التفتيش "واصو أفندى"[2]، وفى حضور قنصل النمسا. وكانت إجابات "حافظ أفندى" قوية جدا، وفيها مساس بالقنصل فاحتج من فرط خجله قائلا: "أنا من أعضاء لجنة التحقيق، "وحافظ أفندى " يسألنى، وكأننى متهم " ثم انسحب. وكان المفهوم أنه يرمى بهذا إلى تأخير الإجراءات الجارى اتخاذها فى "ليبوشقه".

والمعروف أنه فى حال موافقة أحد موظفى النمسا على حضور مواجهة، فإن دولته تفصله من وظيفته. وإذا لم يوافق فإن العاملين معه لا يقبلونه، ويخرجونه من بينهم وفقا للأصول المرعية. ولذا كان موظفو النمسا يحرصون تماما على ألا يجرى استدعاؤهم لأية مواجهة، ولأن هذا القنصل رجل سوء، فقد ذهبتُ إلى القنصلية الروسية فى " موستار "، وبدأت مع القنصل حديثا وديا، وكأنى أحدثه فى أمر خاص، وقلت له: " لقد عرفت بطريقة سرية أن رجلنا "حافظ أفندى"، ينوى أن يدعو قنصل النمسا إلى مواجهة، ونحن نمنع المواجهة، لكن "حافظ أفندى" رجل صعب المراس، ولا يخشى شيئا، ولا يقبل النصيحة، وأنتم ترون أنه ينفعنا فى أعمال كثيرة، كما أن قنصل النمسا قد تسبب فى محاكمته بغير حق". ولأن قنصل روسيا رجل ثرثار، فقد توقعت أن يمضى إلى قنصل النمسا ويقص عليه الخبر. وقد علمت أنه ذهب إلى قنصل النمسا بمجرد خروجى من القنصلية الروسية، وأفضى إليه

---

(1) هو المشير الموجود الآن نائب مشير فى " أدرنة " (جودت) وأدرنة هى ثانى أكبر مدن الدولة العثمانية فى " الروم ايلي "، ومركز الجيش الثانى فتحها العثمانيون سنة ٧٦٣هـ واتخذوها عاصمة لهم قبل فتح القسطنطينية، وتقع " أدرنة " فى أقصى الشمال الغربى لإستانبول .

(2) هو " واصو باشا " متصرف جبل لبنان فيما بعد.

بالأمر سرا. وفى الصباح أبلغنا أن قنصل النمسا قد صرف النظر عن الحضور إلى لجنة التحقيق.

وعلى الفور أرسل عبدكم برقية إلى "فؤاد باشا" وأبلغته أن: "قنصل النمسا لم يحضر لجنة التحقيق، وأن "حافظ أفندى" سيرفع دعوى لإثبات براءته، فقد تيقنت اللجنة من براءته، ولذا ينبغى أن ترفع الدولة رتبته لتثبت براءة ذمته". بناء على هذا، تم الإحسان على "حافظ أفندى" برتبة قائمقام، وفى هذه الأثناء وردت مراسلات من قساوسة "ليبوشقه" وبعض أعيانها تطلب عودة "حافظ باشا" إلى هناك، ليكمل الإصلاحات التى بدأها.

بناء على ذلك عاد "حافظ أفندى" إلى "ليبوشقه"، وأكمل إجراءاته، وأتم إنشاء أبراج الحدود. واستفاد من المبالغ التى توفرت نتيجة تخفيض عدد جنود الشرطة الدائمين العاملين فى بعض المواقع، فى إنشاء فرقة شرطة ضبطية فى هذه الأبراج، مكونة من خمسين جنديا، نصفهم من المسلمين، ونصفهم الآخر من غير المسلمين، تحت إمرة نقيب.

وتم جمع تبرعات كثيرة من أصحاب الأنصبة وسائر الأهالى، لإنشاء هذه القلاع، أما باقى المصاريف، وقدرها خمسة عشر ألف قرش، فقد أخذت من بقية ضرائب قضاء " ليبوشقه ".

كانت حاصلات جمرك "غيله"[1] قبل إنشاء هذه القلاع، حوالى ستين ألف قرش شهريا، وارتفعت بعد إنشاء القلاع إلى مائة وعشرة آلاف قرش. وكان بعض أهالى "دالماجيا" يعبرون الحدود باستمرار، ويدمرون المزارع والغابات والمراعى فى الجانب الآخر من الحدود. وقد انتهت هذه التعديات تماما بعد تكوين فرق الشرطة هذه، وشكر الأهالى لفرق الشرطة حفاظها على أموالهم وأملاكهم، وامتنعوا عن دعوى طلب الحماية.

ومن الخلافات التى نشبت بيننا وبين النمساويين، أن رعايا النمسا فى بعض

(1) قصبة فى قضاء " ليبوشقه "، بإقليم الهرسك.

مناطق الحدود، كانوا يعبرون الحدود ويستغلون المراعى والغابات الواقعة خلف هذه الحدود، وكان النمساويون يريدون استمرار هذا الوضع، وكأنه أمر مألوف، وكنتُ ـ أنا العاجز ـ لا أعترف بأى حق يخالف العهود الصريحة، لذا تقدمت سفارة النمسا بشكوى إلى الباب العالى، رد عليها "عالى باشا" ردا شديدا، فقال: "لا يمكن أن نستهجن الإجراءات التى اتخذها السيد مفتشنا والتى جاءت فى إطار العهود المتفق عليها، بدلا من استحسانها". وقد أُبلغتُ عبدكم العاجز بهذا، وبعد ذلك لم يجرؤ النمساويون على الاعتراض على الإصلاحات التى تمت على نفس النسق، فى قضاء " أهلونه".

وكلما تذكرت هذا الموقف القوى "لعالى باشا"، دعوت له بالخير. ويثبت هذا أن موظفى الولايات مهما كانت درجة كفاءتهم وإخلاصهم فى أعمالهم، هم فى حاجة إلى مساندة الباب العالى، حتى تأتى أعمالهم على الوجه المطلوب.

تنظيم الشرطة فى الهرسك

كانت عساكر الضبطية فيما مضى، عبارة عن هيئة مسلحة لها شكل العساكر الموظفة.والعساكر الموظفة هم عساكر غير نظاميين مقيدون فى الدفاتر الحكومية ويعملون ضمن فرقة برئاسة قائد، و يقومون بحراسة الأبراج، وفى نقاط المراقبة. وكان أكثر هؤلاء الجنود من جنوب ألبانيا، وكانت مرتباتهم لا تكفى لتغطية نفقاتهم، لذا كان رؤساؤهم يستخدمون جنودا أقل من العدد الحقيقى، بمعنى أنهم يصرفون رواتب ألف جندى، لستمائة جندى فقط، هم العاملون تحت رئاستهم بالفعل، ثم يحولون جزءا من فائض المرتبات إلى مرتبات الجنود الأكفاء، ويحتفظون بالباقى لأنفسهم، وحتى هذا الباقى لا يحتفظون به كله لأنهم كانوا مضطرين إلى دفع جزء من هذه النقود المختلسة إلى أحد أمراء الجيش ليصدق لهم على كل هذه النفقات. ولذا فإن التصديق عليها مثّل دخلا إضافيا لبعض أمراء الجيش. ونفس الوضع بالنسبة لرجال الشرطة أيضا. غير أن مرتباتهم كانت أقل، ولذا كانوا يعيشون عالة على الأهالى، فيأخذون منهم العلف والطعام دون مقابل، والأمر كذلك بالنسبة لشرطة البوسنة والهرسك المسماه " الباندور ".

وكان أهالى القرى، وخاصة النصارى منهم، يشكون من هذه الشرطة، حتى بلغت شكاوى النصارى مسامع الدول الأجنبية.

وعند توجهنا لتفتيش الروم ايلى بصحبة الصدر الأعظم " محمد باشا القبرصي "، كان أحد أسباب الشكوى اعتداء جنود الشرطة على النصارى. وببحثها تبين أن جنود الشرطة كانوا يقيمون فى منازل النصارى فى القرى التى يصلون إليها ويعيشون عالة على الأهالى فى طعامهم وشرابهم. ولما أمر الصدر الأعظم فى أثناء وجوده فى " نيش " بكتابة الأوامر اللازمة لمنع هذه التصرفات منعا باتا، قلت له: "يجب أولا أن نطلع على سجلاتهم ". وعند دراسة وفحص الدفاتر، تبين أن الراتب الشهرى للشرطى من الفرسان، يبلغ حوالى أربعون قرشا. وهذا الراتب يكفى لعلف دابته فقط، أما نفقات معيشته هو وأسرته، فلم تكن تدخل فى إطار هذا الراتب. وإذا طالبناهم بأداء واجباتهم على خير وجه بدون أن يأخذوا علفا أو طعاما من أحد مجانا، فهو تكليف بغير المستطاع.لذا تقرر رفع مرتبات الشرطة أولا إلى الحد الذى يكفيهم، ووضع لائحة بضرورة التوقيع فى دفتر عند استلام المرتب مثل العساكر النظامية، حتى لا تكون هذه المرتبات نهبا لهذا وذاك. وتقرر عرض الأمر على الدولة بعد عودتنا إلى إستانبول ، لتبدى الرأى فيه.

وبمجرد العودة إلى إستانبول تشكلت لجنة فى مقر قيادة الجيش، برئاسة السردار الأكرم "عمر باشا" للبدء فى تنظيم شرطة تسمى بالجاندارمة، وكان كل أعضاء اللجنة من أمراء الجيش، وليس من بينهم أحد من ذوى الخبرة بالمسائل الإدارية، أو ممن يعرف دور الشرطة فى الممالك المحروسة، ولذا دُرس الأمر من ناحيته العسكرية فقط. وقد أُدرجت فى اللائحة مواد جيدة، فيما يتعلق بتنظيم الشرطة والتوقيع على دفاتر استلام المرتبات.

ولأن الجيش النظامى هيئة مسلحة تتحرك بصورة جماعية، لذا كانت الوحدة الرئيسية فى سلاح الفرسان هى اللواء. أما فى المشاة، فهى الكتيبة. أما بالنسبة للشرطة، فلأن طبيعتها أن تعمل فى أماكن مختلفة، كان الأمر يتطلب أن تكون

الوحدة الرئيسية فيها مكونة من مجموعات صغيرة، لتتمكن من أداء وظيفتها. وكان لابد من مراعاة هذا الأمر عند إنشاء وحدات الشرطة، على ذلك تم تخصيص لواء شرطة كامل لكل ولاية على حدة، على أن يعتبر اللواء هو الوحدة الرئيسية، فى الشرطة مثلها فى هذا مثل الجنود النظاميين.

وتختلف الولايات من حيث الاتساع وعدد السكان وأهمية الموقع. فعلى سبيل المثال، لو تم تخصيص لواء شرطة لولاية "سلانيك "، لن نجد له مكانا يستوعبه، وعندئذ تكون الشرطة المستخدمة أزيد من الحاجة، فيوضع اثنا عشر جنديا فى أقسام الشرطة التى يمكن أن يقوم عليها خمسة أو ستة جنود. كذلك فى ولاية كبيرة كولاية " أدرنة "، التى تزيد مساحتها عن مساحة ولاية " سلانيك "، لا يكفى أن يعمل فيها لواء شرطة واحد. وتم تعيين مقدم الشرطة من بين قادة الفرق النظامية المتقاعدين، ورئيس اللواء من المقدمين المتقاعدين. أما هؤلاء، ففضلا عن أنهم من الضباط الذين لا يصلحون للعمل، فإنهم كانوا يجهلون أحوال الألوية والولايات الأخرى، التى ذهبوا للعمل بها، فاتسع المجال هناك لظهور قطاع الطرق واللصوص. لكن لما ألغى منصب مقدم الشرطة بموجب اللائحة المذكورة، انتخب بدلا منهم آخرون من بين النقباء،ونقباء من بين الملازمين، وكان يهون من الأمر أنه سيتخرج من بين هؤلاء ضباط أكفاء فى المستقبل.

وفى أثناء تنفيذ نظم الشرطة هذه فى الروم ايلى، وولايات سوريا، وحلب أولا، وتكوين لواء شرطة فى كل من ولايتى البوسنة والهرسك، ولم يكن من الممكن تقسيم هذه الولاية على الأقضية والمواقع الأخرى، تم الاحتفاظ بأكثر رجال الشرطة السابقة المسماة (الباندور)، واستخدمت العساكر العاملة الأخرى فى بعض المواقع، وإذا كانت الضرورة قد اقتضت حينذاك أن يستخدم " الباندور " فى بعض النواحى، فإنه بعد توزيع رجال الشرطة بهيئتها الجديدة على المواقع المحددة لها، لم تعد هناك حاجة إلى استخدام " الباندور " فى كثير من الأماكن.

وفى ذلك الحين، كان يطلق على متصرف الإقليم لقب " قائمقام "، وعلى قائمقام

القضاء لقب "مدير"، وعلى مدير الناحية لقب "موظف الضبط". ولذا لم تعد هناك حاجة لوجود موظف الضبط فى الأماكن التى بها ضابط الشرطة. وكانت مرتبات الأقضية قليلة وثابتة، وفى حاجة إلى أن ترفع بعض الشيء، لذا فبعد توزيع جنود شرطة الهرسك على المناطق والمواقع المناسبة، تم رفع مرتبات المديرين حسب أهمية ومساحة كل قضاء، كما وفرت الحكومة أيضا ما يزيد على ستة ملايين قرش شهريا، من المبالغ التى توفرت نتيجة إلغاء وظيفة مدير الأمن من أماكن كثيرة، ومن إجراء التعديلات اللازمة على الجنود العاملين.

واستمرت فترة إقامتى ـ عبدكم ـ فى الهرسك خمسة شهور، ورغم انشغالى ببعض المسائل المهمة التى ذكرتها، كنت أباشر أيضا الشئون المالية والإدارية، المتعلقة بالمهمة التفتيشية، ثم رجعتُ ـ عبدكم ـ مع الهيئة التفتيشية إلى مركز الولاية فى سراى البوسنة، لاقتراب الشتاء.

التشكيلات العسكرية فى البوسنة والهرسك

بعد الواقعة الخيرية[1] شكلت الدولة العلية جيوشا نظامية، لكنهما فشلت فى إخضاع بعض المناطق للتجنيد مثل البوسنة. وقد سبق إرسال جيش الدولة إلى البوسنة ست مرات انهزم فى مرتين منها وانتصر فى أربع. وفى المرة الأخيرة كان انتصار السردار الأكرم "عمر باشا" ومع هذا لم يمكن إخضاع أهل البوسنة للتجنيد.

وفى أثناء قيامى بالتفتيش فى البوسنة ـ على النحو السابق ـ سألت "فؤاد باشا" فى هذا الأمر، فقال: "لو رأيت الوقت والحال مواتيان، قم على الفور بترتيب جنود محليين من البوسنة ولابد أن يكون لهم زى موحد".

ومع أن القيام بمثل هذا الأمر الخطير لا يكون بمجرد أمر شفوى، إلا أننى لثقتى الكاملة فى "فؤاد باشا"، لم أغفل دراسة تشكيل جنود نظاميين. وبمجرد وصولى إلى الهرسك، وفى أثناء قيامى بتسوية ومباشرة ما يتعلق بالمهمة التفتيشية،

(1) أى واقعة إلغاء الانكشارية سنة ١٨٢٦م.

استطلعت رأى أعيان الولاية الذين يترددون على "موستار" من المركز والضواحى لمقابلتى، ولمست استعدادهم وتقبلهم للأمر. لكننى فهمت كذلك أن سكان الحدود فى بعض نواحى الهرسك، وفى سنجق "بهكه"يتسمون بالغلظة لذا يتحاشاهم أعيان الولاية. فشرع عبدكم فى إعداد وتهيئة أسباب ومقومات هذا العمل، وبدأت مناقشة هذه المسالة سرا مع "فؤاد باشا"، الذى كان صدرا أعظم ووزيرا للحربية فى ذات الوقت ونحن فى الطريق من "موستار" إلى البوسنة.

كان "فؤاد باشا" مشغولا حينذاك بالإصلاحات المالية والإدارية، وكان عبدكم مشغولا بالشئون المالية والإدارية المتعلقة بالمهمة التفتيشية، وأيضا بتنظيم الأمور العسكرية، ولذا كنت فى أثناء وجودى فى سراى البوسنة أتبادل الرأى فى هذا الخصوص مع وجهاء الولاية، بهدف تنفيذ النظم العسكرية فى البوسنة.

وشَرْح النظم العسكرية ذات الصلة بالمهمة التفتيشية شرحا مفصلا يحتاج إلى كتاب، لذا فمن المناسب عرضها عرضا مجملا يبين كيف نجحنا فى اجتذاب البوشناق وجعلهم يُقبلون على التجنيد، وهم الذين أشهروا السلاح مدة أربعين عاما كى لا يتم تجنيدهم.

فأى قوم مهما كانوا جفاة بدائيين، لابد وأن لديهم مدخلا يتصل بالأخلاق أو التقاليد يمكن استمالتهم من خلاله ويستجيبون لو استدرجوا منه. أما إذا أخذوا بالشدة، فإنهم يخافون ويفرون. والبوشناق قوم أشداء وأولو بأس، وقد أهدرت أعوام طوال سدى فى سبيل تجنيدهم، فكل من كلفوا بهذا الأمر أخطاوا المدخل (وكما يقال) سحبوا الجمل من ذيله بدلا من عقاله.

وعندما أمعنت النظر فى هذا الأمر، رأيت أنه يتعين أولا إقناع من هم فى البوسنة والهرسك، ممن يسمون " أركان الولاية "(1)، وعددهم حوالى عشرين، أربعة منهم مفتو الأقضية الأربعة؛" تراونيك"(2)، وسراى البوسنة، وقلعة "غرادجاج"(3)،

(1) هم كبار موظفى الولاية بعد الوالى، مثل القاضى والدفتردار والسكرتير.

(2) تروانيك Travnik:أحد أقاليم ولاية البوسنة، ويوجد قضاء فى نفس الإقليم يحمل اسم " تراونيك".

(3) تعرف أيضا باسم " قضاء قلعه ".

وثلاثة منهم كبار أعيان سراى البوسنة، وأولهم "أوزون عبد الله أفندى"[1]، أحد أعضاء مجلس الولاية الكبير[2]، ومن الموالى الذين يتقدمون على كل أركان الولاية. وكان أغلب من عداهم من كبار الولاية من الوجوه والأشراف أعضاء مجالس الإدارة، وبعضهم من الشخصيات المحترمة، التى تقيم فى مزارعها الخاصة. وممن يحظون بثقة وحب كل البوشناق. كذلك كان "أوزون عبد الله أفندى" معروفا وموضع ثقة الولاية كلها، عميق التفكير، وعالم بأحوال كل لواء. وابنه هو الفريق "عصمت باشا"، الذى توفى فى العام الماضى فى أثناء عودته من بغداد إلى إستانبول .

ومن بين أركان الولاية أيضا، " محمد باشا البهكي"، وكان يقيم حينذاك بقصره فى سراى البوسنة، وهو "محمد بك البهكى" المشهور، الذى تحارب من قبل مع "بان بلاجيج"، وهزمه هزيمة منكرة، وبسبب شكاوى النمساويين منه أُستدعى إلى البوسنة، وحددت إقامته فيها، وقد نوقش أمر التنسقيات العسكرية مع أركان الولاية، الذين يترددون من الضواحى على سراى البوسنة، إما معهم مباشرة، أو بوساطة " أوزون عبد الله أفندى"، ووضعت أسس العمل.

كان السردار الأكرم "عمر باشا" يدَّعى، بل يعتبر نفسه فاتح الهرسك والبوسنة، ولأنه لم يوفق فى إجراء الترتيبات العسكرية المختلفة فى تلك المناطق، كان يتمنى أن ينفذ هو كل ما سيتم عمله فى هذا الخصوص، ليكون نتاج فكره هو.... بناء على ذلك أصدر "عمر باشا" لائحة بخصوص ترتيب هيئة عسكرية فى البوسنة والهرسك على نسق عساكر الحراسة المحلية. أما "حسين عونى باشا" المعروف، وقائمقام وزير الحربية، فكان يغار عندما يرى أحدا من غير الأمراء العسكريين يؤدى عملا عسكريا يستحق عليه الثناء والاستحسان. ولو أنه لم يستطع أن يعرب

(1) أحد الموالى فى ولاية البوسنة، وأحد أعضاء مجلس كبير الولاية.

(2) هو المجلس الذى يضم وجوه وأشراف الولاية، ويضم أيضا كبار الموظفين فى الولاية، مثل المفتين، والقضاة، وكبار التجار. ومهمته النظر فى الأمور التى تهم الولاية بشكل عام.

عن هذا علنا، بسبب العلاقة الوثيقة التى بينى وبين "فؤاد باشا"، إلا أنه كان لا يتوانى عن القيام خفية بأى عمل من شأنه أن يؤخر ويعوق الإجراءات التى أقوم ـ عبدكم العاجز ـ بها.

بناء على ذلك، عندما أثير فى إستانبول أمر ترتيب هيئة عسكرية فى البوسنة، على نسق الحرس المحلى، وفق لائحة "عمر باشا"، ظهر التردد لاحتمال عدم استجابة البوشناق لها، عندئذ ورد الأمر السامى المؤرخ غرة شعبان سنة ١٢٨٠هـ الموافق الثلاثين من ديسمبر ١٨٣٦م، وجاء فيها أنه: "عند مناقشة أمر ترتيب جنود حراسة فى كل من البوسنة والهرسك، على نسق الحرس المحلى، واحتمال عدم تقبل أهالى المناطق المذكورة له بسبب خشونتهم وجهلهم، لذا رؤى أن الحكمة تقتضى تهدئة خواطرهم فى هذا الخصوص قبل البدء فيه، وأن يشرح لهم أن الدولة العلية تنوى تجنيد حرس محلى، بالقدر الذى يكفى احتياجات تلك المنطقة، وأن الغرض من هذا استتباب الأمن فى الولاية وحماية الأهالى، وسوف يراعى كل ما يتعلق بانتظام وراحة هؤلاء الجنود، ولن يرسلوا إلى المناطق الأخرى كبقية الجند، إنما سوف يعملون بالتناوب فى نطاق حراستهم، وأن يتم استطلاع رأى البوشناق فى هذا الخصوص، ويشرح لهم كل ما يلزم شرحه، وأن يتم بث الطمأنينة فى نفوسهم بشتى الطرق المناسبة، وعلى أن يتم تبليغنا بما يتجمع لديكم من معلومات وتصورات".

أما عبدكم، فقد التقيت بكبار أركان الولاية عدة مرات، وتبادلت معهم الأفكار فى هذا الخصوص، وتقرر إجراء تنسيقات عسكرية فى البوسنة والهرسك، وافتتاح مدرسة إعدادية عسكرية فى سراى البوسنة. وأصبحتُ آمل أن يتم تدريب البوشناق، وأن تصلح أحوالهم، وأن يتم تعمير منطقة البوسنة، فهى بمنزلة الحديقة الجميلة فى الممالك المحروسة. والسبب الرئيسى فى خوف البوشناق وإحجامهم عن الانخراط فى سلك الجندية أنهم من سكان المناطق الباردة ولم يألفوا الغربة، وما يشغلهم هو أن يرسل المجندون من بينهم إلى بلاد بعيدة، مثل جزيرة العرب[1]،

---

(١) هى شبه الجزيرة العربية، وأحيانا يعنى أيضا سوريا والعراق، بالإضافة إلى شبه الجزيرة العربية.

ومناطق الأكراد[1]. وكنت واثقا أنهم ماداموا لن يذهبوا خارج البوسنة، فلن يكون لديهم ثمة اعتراض، وعندئذ يمكن إجراء التنسيقيات العسكرية فى البوسنة. وكان سكان قضاء "نقشيك" يتحركون دوما وهم مسلحون مثل عساكر الحراسة لأن منطقتهم يحيطها متمردو الجبل الأسود والمناطق العاصية من جميع الجهات، لذا تصورت أن يتم تنظيمهم على غرار عساكر الحراسة، وتعمم هذه النظم فى النواحى والأقضية الواقعة على طول خط امتياز الجبل الأسود، حيث إن ناحيتى "قوريانيچ"[2]، وأقضية "قولاشين"[3] تشبه "نقشيك"[4]، وكذلك بالنسبة لسكان الجبال فى "إشقودرة "، وبذلك تتم محاصرة منطقة الجبل الأسود. ولما كان سكان الحدود فى إقليم "بهكه" أهل جفاء وبداوة، فقد اتخذوا من هذا ذريعة لتطبيق نظام الحرس المحلى هناك أيضا، حيث إن نظام الحرس المحلى كان مطبقا آنذاك فى ولاية "خرواتيا" المجاورة له. والسبب فى هذا التفكير هو وجود بعض ذوى القوة والذكاء من بين أركان الولاية فيه. ولأن دولة النمسا كانت تفكر فى إلغاء نظام الحرس المحلى فى "خرواتيا"، وأن تجرى هناك أيضا تنسيقات عسكرية، لذا كنت أريد أن أضم إقليم "بهكه" أيضا إلى دائرة التنسيقات العسكرية.

بناء على ذلك، فقد ذكرت فى العريضة التى قدمتها فى منتصف شهر شعبان ردا على الأمر السامى السالف الذكر (إن ترتيب الحرس المحلى ضرورى بالنسبة لقضاء "نقشيك" فى المقام الأول، وبعد ذلك يجب أن ينفذ فى قضاء "قولاشين"، وناحية "قروريانيچ"، التى تعيش حتى الآن بنظام العشائر، ويكون من المناسب أن تعممه بعد ذلك فى النواحى الأخرى الواقعة على خط امتياز الجبل الأسود، لكن ينبغى

---

(1) منطقة الأكراد، وكانت فى ذلك الوقت فى غرب آسيا، فى المنطقة الواقعة بين الدولة العثمانية وإيران. وكان الجزء الأكبر منها يقع فى الدولة العثمانية. وهذه المنطقة يغلب عليها الطابع الجبلى، وأهل هذه المنطقة من العشائر المتنقلة، التى تغير محل إقامتها مع حلول فصل الصيف أو الشتاء، طلبا للمرعى، وكلهم مسلمون.

(2) قوريانيچ Korianiç: ناحية تتبع قضاء " تره بين "، فى سنجاق الهرسك.

(3) قولاشين Kolaşin: أحد أقضية " سنجاق يكى بازار "، فى ولاية البوسنة.

(4) نقشيك Nikşik: أحد نواحى " سنجاق الهرسك "، وتقع على خط امتياز الجبل الأسود.

تنفيذ التنسيقات العسكرية فى كل أقضية ونواحى الهرسك والبوسنة على غرار بقية الولايات، على أن يتم إعداد كثير من الجند الاحتياطى المدرب بسرعة، وذلك بجعل مدة الخدمة الفعلية ثلاث سنوات، ومدة الاحتياط تسع سنوات. فتتكون قوة كافية فى مناطق الهرسك والبوسنة تسد حاجة الولاية فى مقتبل الأيام، غير أن الأجانب الذين لا يريدون استقرار هذه المناطق إذا شعروا بهذه الإجراءات، فسوف يعملون على إلغائها بمجموعة من الدسائس، ولذا يجب إحاطة الأمر بالكتمان، ودراسة الأمر بكل جوانبه دراسة جيدة، وتقليب وجوه النظر فيه. والأفضل ألا تتخذ أى خطوة فى هذا الموضوع بدلا من أن يظهر التردد والتلون عند التنفيذ. ويلزم معرفة اتجاه رأى ملجأ الوكالة [الباب العالى] فى هذا الأمر، وتبعا لهذا الرأى، سيتم توجيه الأفكار فى أثناء جمع المعلومات المطلوبة الوجهة التى تتفق مع اتجاه الباب العالى. لأن المنهج الذى سيتقرر منذ بداية المناقشات والدراسات [أيا ما كان] ـ إذا تم السير عليه ـ سيضاعف من ثقة الشعب [البوشناقى]، أما إذا ظهر أى قدر من التلون [والتلاعب] فسوف تثور شكوكهم، ويتخذها أعداؤنا ذريعة لإفساد أفكار الناس.

أرسلت خطابات دعوة لأركان الولاية الموجودين خارج عاصمتها للحضور إلى سراى البوسنة بعد عيد الفطر، لمناقشة المسائل المهمة التى تخص الولاية بشكل عام. وكان الهدف الحقيقى من هذه الدعوة هو مناقشة التنسيقات العسكرية. وقد أبلغت "فؤاد باشا" بهذا فى أوائل شهر رمضان.

كان "عمر بك القاضى" شيخا نقى السريرة، وهو من أسرة "قولن زاده" المشهورة، ومن أمراء "سنجق بهكه"، ومن أركان الإيالة، ويقيم فى مزرعته الواقعة فى ضواحى "بهكه"، ولم ينتظر "عمر بك" إلى ما بعد العيد، وجاء إلى سراى البوسنة خلال شهر رمضان، ونزل ضيفا على مقر الحكومة. وكان يقطع النهار فى الوعظ بجامع "خسرو بك الشريف" فى مقام "آيا صوفيا البوسنة"، ويقضى المساء مع عبدكم فى تبادل الآراء حول تنظيم الجيش. وقد توقعنا أننا لن نتعرض

لمشكلات أثناء تنفيذ التنسيقات العسكرية فى منطقة "بهكه". لأن "عمر بك" يحظى باحترام أهالى إقليم " بهكه ".

وفى أثناء دراستى لأحوال البوشناق، رأيت أن الرجال المتدينين منهم يؤثر فيهم وعظ العلماء، أما الشباب الذين هم أساس الجندية، فيؤثر فيهم بدرجة أكبر كلمات معشوقاتهم. ذلك لأن فتيات البوسنة حتى سن العشرين أو الخامسة والعشرين لا يضعن النقاب، وكن يبادلن الشباب الحب العفيف ويتزوجن عن حب. وكان أغلب الشباب يذهب إلى المحكمة لعقد الزواج، ويظهر آباؤهم وأمهاتهم فى البداية غضبا مفتعلا، ثم يقرون هذا الزواج، وقليل منهم من يتزوجون برضاء والديهم، لأن الآباء إذا أرادوا تزويج أبنائهم، أنفقوا أموالا طائلة على حفل الزواج تؤدى إلى إفلاسهم. لذا رأيتُ فى بداية الأمر أن أمنع وألغى تماما إقامة حفلات الزواج. وأمرتُ بمضاعفة ضرائب من يقميون تلك الحفلات.

والعادة للإنسان طبع ثان، ولا يقلع الإنسان عنها بسهولة، إلا أنه فى بعض الأحوال الخاصة، يمكن تغييرها دفعة واحدة، فسرعان ما اعتاد الناس على عدم إقامة حفلات زواج باهظة التكاليف، خاصة أنهم ضاقوا من متاعبها، وبذا تمكنت فتيات كثيرات من الزواج بسهولة. وتمكنت ـ عبدكم ـ بمبالغ زهيدة تبدأ من خمسة أو ستة حتى عشرة أو اثنى عشر ذهبا، من تزويج فتيات كثيرات، أحببن منذ سنوات، وأرجئ أمر زواجهن بسبب الفقر.

ولهذا مالت الفتيات إلى جانب الحكومة وسعدن بالإجراءات التى اتخذناها لتسهيل أمر زواجهن. وبناء على ذلك، قام الوعاظ والمفسرون فى جامع بك الشريف بوعظ الناس وتبصيرهم بفضائل المجاهدين والمرابطين بتفسير الآية الكريمة ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص ﴾[1]. وذلك لترغيب البوشناق فى الجندية، وبينوا لهم فضل تعلمها، كذلك كانت الفتيات يرددن أمام أحبائهن الأغانى التى تثير حماستهم للجندية.

---

(1) سورة " الصف "، الآية رقم (٣).

وبسبب انشغال الصربيين بالتدريب العسكرى المتواصل، سرت شائعة فى سراى البوسنة بأنهم سوف يهجمون على البوسنة فى فصل الربيع، واتخذت هذه الشائعة ذريعة لإقناع الأعيان بأهمية تعلم الجندية، وضرورة استعداد البوشناق دائما للقتال عن طريق تكوين جيش مدرب.

وكنت مفوضا فى اختيار شكل زى موحد لجنود البوسنة الذين سيتم إعدادهم، وكنت ـ عبدكم ـ أرغب أن يرتدوا أحد أشكال الملابس التى ترتديها العساكر السلطانية. فرغبت لهم أن يرتدوا زى كتيبة الاستطلاع، التى كانت موجودة فى معسكر سراى البوسنة، فى ذلك الحين، وهو زى ذو شريط أخضر، فقد كان البوشناق يفضلون هذا اللون.

بناء على ذلك خصصت زيا أخضر اللون لكل واحد من الوعاظ والمدرسين فى جامع بك الشريف، وكانوا يقولون للجماعة أنهم ارتدوا هذا الزى الأخضر، لأن الملائكة الكرام هبطت إلى وجه الأرض فى بعض الغزوات النبوية بعمامات خضراء، وكانت مددا للمسلمين. وكان "حافظ أفندى" خطيب "جامع بك" درويشا، وكان كثير من الناس يعتبرونه من الأولياء، وقد خصصت له هو أيضا زيا أخضر اللون ليرتديه صباح يوم العيد، ونبهتُ على أن ترتدى كتيبة الاستطلاع المذكورة ـ صباح يوم العيد ـ الملابس الجديدة التى جاءت من قبل، واستدعيتُ مجموعة من كتيبة القناصة ذوى العمامة الخضراء الموجودين فى الهرسك. وفى صباح يوم العيد اصطف أفراد كتيبة الاستطلاع، التى فى المعسكر على جانبى الطريق من مقر الحكومة، حتى " جامع بك "، وهم يرتدون ملابسهم الجديدة ذات الشريط الأخضر. وذهبنا نحن والوالى ورئيس الفرقة والباشاوات وسائر الأمراء العسكريين والموظفين الحكوميين، ومعنا القناصة المذكورون ذوو العمامة الخضراء، إلى "جامع بك"، وقد ارتدينا جميعا الزى الرسمى. وبعد الصلاة صعد الخطيب إلى المنبر بزيه الأخضر هذا، وخطب خطبة جميلة، وعندما ذكر اسم جلالة السلطان فى الخطبة، ظهرت علامات سرور طيبة على وجوه البوشناق ومشاعر جميلة اتضحت من تصرفاتهم.

أما العمامة الخضراء التى يرتديها القناصة، فكانت موضع استحسان البوشناق. وقد تركت ملابس كتيبة الاستطلاع ذات الشريط الأخضر، أثرا عميقا فى قلوب شباب البوسنة، وتأكد أنه قد أصبح لديهم ميل طبيعى إلى الجندية، وكان هذا هو أمل شخصى العاجز، وقد استعمل تعبير "ذو اللون الأخضر" فى لغة البوشناق بمعنى "مشرف أو سعيد". كما أن الفتيات اللائى سعدن بالإجراءات التفتيشية التى سهلت لهن أمر الزواج، أصبحن يقصدن من تعبير "ذو اللون الأخضر" فى الأغانى التى وضعت أخيرا، الإشارة إلى ملابس كتيبة الاستطلاع ذات الشريط الأخضر. أما أغانى الفتيات، فكانت أكثر تأثيرا فى الشباب من نصائح الواعظين.

وكل ما أنفق سواء على تجهيز ملابس معلمى المساجد، والهبات التى أعطيت أو المصاريف التى أنفقت فى مسألة تزويج الفتيات، كانت كلها من الفائض من مرتب[1] شخصى العاجز، ولم تصرف "پارة" واحدة من خزانة الدولة. ذلك لأن مجموع مرتبى وما آخذه مقابل اشتراكى فى المهمة التفتيشية، كان يبلغ حينذاك اثنى عشر ألفا وخمسمائة قرش شهريا وكنت أترك هذا المرتب لمصروفات عائلتى ـ عبدكم ـ فى إستانبول . وعلاوة على هذا، فقد صدر أمر بتخصيص مرتب شهرى قدره ثلاثينَ ألف قرش عن المهمة التفتيشية. ولأن البوسنة منطقة منخفضة الأسعار، لذا كنت أنفق ما تبقى من الثلاثين ألف قرش هذه، فى سبيل أداء المهمة التفتيشية، على أحسن وجه. وبعد عيد الفطر، وصل إلى سراى البوسنة أركان الولاية الموجودون خارج عاصمتها وانضموا إلى أركان الولاية الموجودين فى سراى البوسنة. وتم تشكيل مجلس مؤقت، وانتخب "أوزون عبد الله أفندى" لرئاسته على أن يجتمع المجلس فى قصر "محمد باشا البهكي".

وحضرتُ الاجتماع الأول، وافتتحتُ المجلس، وأحلتُ إليهم مناقشة الأمور التى تهم كل الولاية، مثل الضرائب والأعشار. ولما كانت مسألة التنسيقات

(1) هو المرتب الذى يدفع لموظفى الدولة عند التقاعد، أو العزل، كذلك يدفع عينا أو نقدا لكبار العلماء، أثناء توليهم وظائفهم

العسكرية هى أهم الموضوعات، فقد قمت بعمل الترغيبات اللازمة لهذا الموضوع، بذكر بعض الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، التى تتعلق به، وبعد ذلك قلت: "هل جاء قاضى العسكر إلى البوسنة من قبل؟". فقالوا: "كان يوجد فى جيش "الفاتح" رحمه الله عندما شرف إلى هنا قاضى عسكر، ومن بعده لم يأت إلى هنا قاض عسكر سواه". فقلت بناء على ذلك: " هاأنذا أحمل رتبة قاضى العسكر، وقد جئت إليكم، ولذا يجب عليكم الآن أن تقوموا بترتيب الجيش".

وكان قد نوقش سرا من قبل مع أركان الولاية أمر تنفيذ التنسيقات العسكرية فى البوسنة، وتم الحصول على موافقتهم. وكان بينهم من يخشى من سكان الحدود. أما هذه المرة، فقد طُرح موضوع التجنيد للدراسة فى أثناء وجود أغاوات الحدود فى المجلس، وتقبلوه قبولا حسنا، وعلى الفور وفى نفس اليوم، وضعت أسس العمل، وأحلت إليهم دراسة تفاصيله. وأخذت منهم وعدا بتكتم هذا الأمر، ولم أر ضرورة لأن يؤكدوا وعدهم لى بالقسم.

واستمر أركان الولاية فى مناقشة الأمر. فإذا ما اختلفوا فى مسألة ما، سألوا شخصى العاجز عن طريق "أوزون عبد الله أفندى"، وكنت ـ عبدكم ـ أذهب أحيانا لحضور اجتماعاتهم، ولنحل المشكلات بمناقشتها معا. ولم يستطع أحد سوى عبدكم أن يعرف موضوع المناقشات الجارية. وبسبب التزام البوشناق، فقد انشغل ثمانية عشر منهم بالمناقشات لمدة أربعة وعشرين يوما، ولم تتسرب منهم كلمة واحدة. وقد أثارت طول فترة هذه المناقشات التى جرت فى مثل هذا المجلس الكبير اهتمام الأجانب، خاصة النمساويين والصربيين، واجتهدوا لمعرفة حقيقتها، ولكنهم لم يستطيعوا أن يتوصلوا لشيء. وتأكد لى من هذا الأمر، أنه من الممكن تنفيذ كثير من الأعمال مع هؤلاء الرجال الصادقين، ولأن عبدكم يعرف عنهم هذه الخصال، فإننى كما ذكرت لم أر ضرورة لأن يقسموا على حفظ الأسرار، واكتفيت بوعد منهم.

ونتيجة لهذه المناقشات التى جرت، تم ترتيب نوع من العساكر المحلية على

أصول عساكر الحراسة المحلية فى أقضية ونواحى سنجق الهرسك، "ويكى بازار" الواقعة على خط امتياز الجبل الأسود. وأن تجرى القرعة الشرعية لأخذ الجنود من كل الأقضية والنواحى وبقية سناجق البوسنة على النحو المتبع فى كل البلاد العثمانية، ولما كان من المحتمل أن يخشى البوشناق، وخاصة البدائيون منهم فى مناطق الحدود، من أن يصبحوا دفعة واحدة فجأة تحت قيادة ضباط لم يرونهم من قبل ولايعرفونهم. لذا سينتخب الضباط فى السنة الأولى ولمرة واحدة فقط، من الأمراء المحليين ومن الأغاوات، وبعد ذلك يطبق قانون الترقية، على أن تكون مدة الخدمة الفعلية، ثلاث سنوات، ومدة الاحتياط تسع سنوات، وأن يعمل عساكر البوسنة داخل الولاية، وألا يرسلوا إلى خارجها.

وعند وضع هذه المواد الاستثنائية موضع المناقشة فيما بيننا، قلت: "يلزم أن يكون كل الضباط من النظاميين، وإلا فلن يستتب النظام أبدا فى فرق البوسنة، وإذا جاز، أن يكون القائمقام ورؤساء الفرق الذين سيعملون معه، وعدد من الملازمين، وصغار الضباط من الأمراء والسادة المحليين، فليكن ذلك لمرة واحدة وليس على الإطلاق، فمن الواجب أن يكون نصفهم من الضباط النظاميين، واعتبارا من السنة الثانية، يتم تطبيق قانون الترقية العسكرية". وقد أيدت هذا الرأى بالأدلة المقنعة، ووافق عليه المجلس.

وجعلنا مدة الخدمة الفعلية ثلاث سنوات حسبما رأى عبدكم، لأنه إذا حدث استبدال ـ للجند ـ كل ثلاث سنوات، سيصبح هناك حوالى أربعين ألف جندى مدرب احتياطي فى خلال عشر سنوات، وهكذا يتوفر للبوسنة فى وقت قصير مقدار كاف من العساكر المدربة اللازمة لها. وبناء على ذلك، وافق عبدكم على هذا الاستثناء الذى لم يعد قائما بعد أن طبقته الدولة، وجعلت مدة الخدمة الفعلية ثلاث سنوات بشكل عام.

وعند دراسة مسألة عدم استخدام عساكر البوسنة خارج الولاية، فقد بدا هذا أمرا طبيعيا، حيث إن الدولة العلية كانت بالفعل تضع دائما فرقة عسكرية من جيش

الروم ايلى فى كل من البوسنة والهرسك، ومع أن الموافقة على هذا الاستثناء يبدو مسايرا لطبيعة الحال، إلا أنه ليس من الأصول أن يفرض شرط كهذا على الدولة.

ومع هذا، فعندما أبلغت الأمر إلى "فؤاد باشا"، جاء فى البرقية السامية، التى وردت إلينا ما يلى: "عندما عرض الأمر على مجلس الشورى، كان المقصود أن يتم تنظيم عساكر حراسة محلية على حدود البوسنة مع النمسا، على أن ترتب على نسق عساكر الحراسة المحلية، أما وقد اتضح أنه من الأرجح أن يتم ترتيب عساكر نظامية فى البوسنة على أن تكون مدة الخدمة الفعلية ثلاث سنوات، ومدة الاحتياطى تسع سنوات، فقد تمت الموافقة على تعيين الضباط من الأمراء المحليين، وكذلك على عدم استخدام عساكر البوسنة خارجها". وتفضل [فؤاد باشا] بمدح وتقدير جهود شخصى العاجز.

ولما كان من الضرورى أن توضع قرارات مجلس الولاية أمام مجلس عام للموافقة عليها، فقد تمت دعوة كل وجوه وأشراف البوسنة إلى مقر الحكومة فى سراى البوسنة، وذلك فى يوم الخميس التاسع والعشرين من شهر شوال، وحضر كذلك أركان الولاية، وأعضاء المجلس الكبير، وعقد مجلس عام، تحت رئاسة شخصى العاجز، وبعد أن قرأت الحديث الشريف "أمتى كأسنان المشط"[1]، قلت: "بموجب هذا الحديث الشريف، يجب أن تكون الأمة المحمدية متنافسة، ومتناسبة مع بعضها البعض كأسنان المشط، ولو كان المشط متنافر الأسنان، لا يمكن أن تمشط به لحية، كذلك الأمة إذا لم تكن متنافسة، لا يمكن أن توفق فى عمل ما. ومادام هناك جنود فى كل من الروم ايلي والأناضول وجزيرة العرب، فلم يعمل البوشناق خارج حدودهم ؟ إن الانفصال عن الجماعة نوع من المخاطرة، ويقولون

(1) لفظ الحديث: " الناس سواء كأسنان المشط، وإنما يتفاضلون بالعافية ". انظر الحافظ العراقى: "تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة "، ٢/ ٢٩٤، ط. الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٣٩٩هـ.

إن الحمل الذى ينفصل عن القطيع، يأكله الذئب[1]. وقد استفاض أركان الولاية فى التفكير فى هذا الأمر، ولم يستطيعوا أن يجدوا أنسب من أن تطبق أصول القرعة الشرعية هنا أيضا، مثلما تطبق فى سائر الأماكن، مع استثناء بعض الأمور لأسباب تتصل بطبيعة موقع البوسنة، وقرروا استرحام الدولة فى طلبها. فمثلا، مدة الخدمة الفعلية الآن فى الدولة العلية، خمس سنوات، وقد رأى أركان الولاية أنه من المناسب أن تكون مدة الخدمة الفعلية فى البوسنة ثلاث سنوات، حتى يمكن تكوين جيش مدرب فى وقت قصير. ولا بأس فى هذا، فأسنان المشط، وهى متناسقة، يمكن أن تكون الأسنان فى موضع أقصر منها فى موضع آخر. وأظن، بل أعتقد أن الدولة أيضا ستسمح بهذا". وأعلنت قرارات أركان الولاية، وبدأت فى استطلاع آراء الموجودين.

فقال بعض وجوه البلدة: "إن سلامة وسيادة الدولة رهن بتكوين الجنود النظاميين". وقال البعض الآخر: "نحن عاجزون عن بذل الشكر لصدور الإرادة السنية، بقبول استرحامنا".

وقال "درويش أفندى" مفتى "تروانيك": "إن استمرار الوضع القائم فيه مخاطرة، ونحن مضطرون إلى تنظيم الجنود، وقد بحثنا طويلا صورة ترتيبها وتشكيلها. ولم نستطع التوصل لشيء سوى طلب الاسترحام، بالاستثناء الذى نطمع فيه، بسبب موقع وحال البلدة [البوسنة]. ولا يمكن أن يوجد شيء فى الدنيا والآخرة أسمى من الجندية".

كذلك تكلم "مصطفى أفندى" مفتى سراى البوسنة، وأثبت بالأدلة العقلية والنقلية أنه لا يوجد فى هذا الوقت عبادة أفضل من العمل والخدمة فى الجيش

(1) أخرج " أبو داود " فى سننه ١/ ١٥٠، حديث رقم ٥٤٧ فى كتاب الصلاة، باب التشديد فى ترك الجماعة، بإسناده عن " أبى الدرداء " (ﷺ) عن النبى (ﷺ)، قال: " ما من ثلاثة فى قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة، إلا قد استحوذ عليهم الشيطان، فعليك بالجماعة، فإنما يأكل الذئب القاصية". وأخرجه كذلك النسائى فى كتاب الإمامة (الصلاة)، باب التشدد فى ترك الجماعة.

السلطانى، وأعلن أسفه لأن حاله وعمره قد حالا بينه وبين الانخراط فى سلك المرابطين فى سبيل الله، ثم تكلم طويلا حول مزايا وشرف الجندية.

وعندما أعلن فجأة القرار الذى انتهت إليه مناقشات مجلس أركان الولاية وظل سرا حتى ذلك اليوم، كان له أثر كبير على كل الموجودين، وتقبلوه جميعا قبولا حسنا.

وعندما طرح موضوع عدم استخدام عساكر البوسنة خارج الولاية للمناقشة، قال " حافظ أفندى " خطيب " جامع بك الشريف "، وهو يرتدى زيه الأخضر: "يا سيدى، نحن لا نريد سوى أن ترتدى عساكر البوسنة الزى الأخضر الخاص بالعساكر التى جاءت إلى الجامع صباح يوم العيد". فلما أجبته مازحا: " وهو كذلك، يا حضرة الخطيب، أردف مطلقًا على الكتائب التى ترتدى هذا الزى الأخضر اسم جنود الحرمين الشريفين، حيث هذا الشريط الأخضر علامة على أن هؤلاء الجنود مستعدون للذهاب إلى الحجاز فورا فى حالة وقوع اعتداء للذود عن مكة المكرمة والمدينة المنورة، وتساءل ألن أكون أنا أول من يذهب على رأس عساكر البوسنة!؟ إلى هناك فمن ذا الذى يتوانى عن الذهاب". فعمت الدهشة وجوه الحاضرين، ولأن السيد الخطيب رجل صالح، عابد، ويعد من الأولياء، لذا لم يستطع أحد أن يعلق بكلمة على هذا القول الغريب. وعلى الفور، أصبح ارتداء عساكر البوسنة زى كتيبة الاستطلاع ذات الشريط الأخضر، اقتراحًا ملزمًا، وانقطع الحديث بشأن عدم استخدام عساكر البوسنة خارج الولاية.

وعندما قلت بعد ذلك: "الآن سنعرض نتيجة مناقشات مجلس أركان الولاية، لاتخاذ القرار النهائى. فليفكر كل منكم جيدا، ويقول كل ما يجول بخاطره قبل عرضه على جلالة السلطان للتصديق عليه". فقال مفتى سراى البوسنة: " نعم، إن كل ما سيقال الآن سيكون من قبيل الاستفسار، وسيوضع قيد البحث والمناقشة. وليكن معلوما لديكم من الآن أننى سأصدر فتوى بقتل من يعترض فيما بعد على القرار الذى سيصدر بإجماع الآراء فى أمر يتعلق بخير وسلامة الدولة". وقد أيده بقية المفتين فى هذا.

وعلى الفور، تلا الشيخ الخطيب آيات كريمة مناسبة للموقف، وردد مفتى "تروانيك" أيضا دعاء جميلا. وظهرت على وجوه الجميع علامات رجاء قبول الدعاء، وتبادلوا التهنئات، ثم انفض المجلس. وشاع فى كل أنحاء المدينة فى ذلك اليوم أن مسألة تعليم الجند التى ظلت موضع نزاع طوال أربعين سنة جرى حلها، فتبدلت حال الأهالى، وأصبحوا فى حال غير الحال.

ومع أن البرقيات بين إستانبول وسراى البوسنة كانت صريحة لنا، إلا أننى أرسلت على الفور برقية بأن المجلس العام وافق وصدق على قرارات مجلس أركان الولاية، وبرجاء عرض الاقتراح بارتداء عساكر البوسنة ملابس كتيبة الاستطلاع، ذات الشريط الأخضر، وإصدار الفرمان العالى وإرساله.

وبسبب ما أشار إليه خطيب المسجد فى كلمته، ظل أمر عدم استخدام عساكر البوسنة خارجها، شرطا مبهما. فقد ورد فى المرسوم العالى بدلا من هذا الشرط، أن تُضم عساكر إلى وحدات البوسنة.

والغريب أن أناسًا بهذا الشكل ليس لهم حظ من المدنية حتى الآن كالبوشناق كانوا (فيما مضى) يخافون من ارتداء ملابس كتيبة الاستطلاع متى طُلب منهم هذا بل يشهرون السلاح كى لا يرتدوها. ها هم الآن يرغبون فى ارتدائها بإرادتهم. كذلك الشيخ الخطيب الذى ضحى بأهم شروط البوشناق وهو عدم استخدام عساكر البوسنة خارجها، فى سبيل أن ترتدى عساكر البوسنة هذا الزى (الأخضر) ولم يستطع البوشناق أن يعترضوا.

وكان الشتاء فى البوسنة هذا العام، شتاء طويلا قارسا، ومع حلول فصل الربيع، تذوب الثلوج فتبدو أوراق الشجر والمراعى خضراء مثل الزمرد، ويخرج الأهالى للنزهة فى شوق وطرب، وتبدأ فتيات مدينة سراى البوسنة فى الرقص أمام عشاقهن، فى مناطق النزهة، ويرددن الأغانى التى نظمنها باللغة البوسنوية، ويلمحن فيها إلى ملابس كتيبة الاستطلاع، ذات الشريط الأخضر، ومضمون أحد هذه الأغنيات يقول:

" جاء للمفتش أمر السلطان، أنفق ذهبا يتدفق كالماء،
زوّج البنات ليلدن غزاة، وجنودًا بملابس خضراء".

وشباب البوسنة الذين كانوا يخافون من رؤية الجند، أصبحوا الآن يستمعون بنشوة إلى هذه الأغنيات وهى تتردد على ألسنة الفتيات، وكبر أملنا فى استقرار فكرة التجنيد فى البوسنة.

لم تحظ منطقتى البوسنة والهرسك بإحصاء سكانى، وذلك لأن الدولة لم تكن تستعين بهما فى الحروب. وقد اتضح من دفاتر التعداد التى وضعت تقديريا لسكان هاتين المنطقتين، أن عدد الشباب الذى فى سن التجنيد، يقدر ـ دائما ـ بحوالى الثمانمائة. ولذا سوف يتم تشكيل لواءين يضمان ستة كتائب استطلاع، يتم استبدالهما مرة كل ثلاث سنوات، وقد تقرر أن يتشكل فى العام الأول اللواء الأول من مجندين، ويتشكل اللواء الثانى فى السنة التالية، وفى السنة الثالثة تكتمل الألوية الثلاث. ولكن ينبغى انتظار المرسوم العالى لكى يتم تكوين اللواء الأول.

وحتى لا يمر الوقت هباء فى انتظار وصول المرسوم العالى، تحركنا [الفرقة التفتيشية] من سراى البوسنة فى أواخر ذى الحجة، ووصلت إلى "طاشلينه" للتفتيش على بعض المراكز المجاورة، لتثبيت فكرة الجندية فى الأماكن التى نذهب إليها. وبعد أن درسنا هناك بعض المسائل الإدارية والمالية، ذهبنا فى أوائل عام ١٢٨١هـ [١٨٦٤م] إلى "سينيچه "[1] مركز سنجق " يكى بازار" فى ذلك الوقت.

وعندما نوقش أمر الجندية مع الوجوه الأشراف سواء فى "طاشلينه" أو فى "سينيچه"، أبدوا تقبلهم للفكرة وأعلنوا شكرهم لتطبيق كل ما قرره أركان الإيالة فى سراى البوسنة، على ناحية "يكى بازار". لكن لما كانت حالة أقضية "قولاشين"، "وغوسينه" تشبه حالة "نقشيك"، فقد أفصحوا أنه من المناسب أن يطبق على هذين القضائين، ما سيطبق فى "نقشيك".

---

(1) سينيچه Siniçe مركز قضاء فى " سنجاق يكى بازار "، بولاية البوسنة.

وفى حروب الجبل الأسود السابقة، كان سكان الجبل الأسود يهاجمون "قولاشين"، فإذا ما التحم أهلها معهم، منى كلا الجانبين بخسائر فادحة. وكان سكان " قولاشين" يضطرون إلى ترك الدار والديار، لأن سكان الجبل الأسود كانوا يهاجمونهم بأعداد غفيرة، بالإضافة إلى أنه لم تكن تقدم لهم حينذاك أى مساعدة من المناطق المجاورة. فيتفرقون فى سنجق "يكى بازار"، ويقوم سكان الجبل الأسود باستغلال أراضى "قولاشين" وزراعتها.

وفى أثناء وجودنا فى "يكى بازار" طلب سكان "قولاشين" مساعدتهم على العودة إلى بلادهم. ولذا تم استدعاء أمير اللواء "محمود باشا" أحد أمراء الفرقة العسكرية فى الهرسك[1]، إلى "سينيچه"، وعند استدعائه من "إشقودرة" انضم إليه "حسين حسنى أفندى"، وهو أحد رؤساء فرق الأركان الحربية العاملين برفقة المهمة التفتيشية، ومعه الكتائب الموجودة فى تلك المنطقة، وعدد من العساكر العاملة. وسلمت إليه المعدات وكافة اللوازم الأخرى، وخرجا مع جنودهما. أما مهاجرو " قولاشين "، فقد جاءوا من كل صوب وحدب وانضموا إليهم فى أثناء الطريق، حسبما هو متفق عليه من قبل.

وعندما وصلوا إلى "قولاشين" وهم على هذا النحو، حاول أهل الجبل الأسود تخويفهم بإطلاق بعض الأعيرة النارية، لكنهم لم يستطيعوا أن يصمدوا طويلا أمام الهجمات الشجاعة التى قام بها أهل "قولاشين" اعتمادا على وجود العساكر السلطانية، وفر أهل الجبل الأسود هاربين من "قولاشين". كذلك بدأ كل من "محمود باشا"، "وحسين أفندى" فى إصلاح الخنادق هناك وإنشاء قلاع فى بعض المواقع المهمة.

وقد ظلت الإجراءات المذكورة فى طى الكتمان خشية أن يسمع بعض السفراء بالأمر، فيقولون للباب العالى: "توقفوا، ولا تفعلوا شيئا، فلننتظر ونحقق فى الأمر. ولو صدر للباب العالى أمر على هذا النحو، ستصبح الإجراءات موضع نقاش، وإلى

(1) هو المشير " محمود باشا " قائمقام المشير فى " أدرنة " الآن (جودت).

أن تتضح حقيقة الموقف، يكون فصل [الربيع] قد انقضى. ولأن قضاء "قولاشين" منطقة مرتفعة وشديدة البرودة، فمن الطبعى أن يؤجل الأمر إلى العام التالى، ويستمر الوضع هكذا إلى ما لانهاية. لكن هذه المناطق نائية وإلى أن يشيع الأمر فى البوسنة والهرسك، يكون قد تم البت فيه واستقر أهالى قضاء "قولاشين" فى "بلنغه" وقراها. ويصبح الأمر فى حكم المنتهى، ثم يبلغ الأمر بعد ذلك بفترة طويلة إلى الباب العالى.

وقد أظهر "محمود باشا" إخلاصا وحماسة، فى السيطرة على "قولاشين"، واستقرار أهلها، لكنه سرعان ما استقال بسبب اعتلال مزاجه، وعين أمير لواء يدعى "سليم بك" بدلا منه، وقد أتم هو "وحسين حسنى أفندى" إصلاح خنادق "قولاشين"، وأتموا بناء القلاع وبقية الاستحكامات العسكرية.

وقد طبقت فى "يكى بازار" هذه المرة التعديلات العسكرية التى سبق إجراؤها فى الهرسك، ونتيجة التعديلات التى أدخلت على الجند العاملة، توفرت للحكومة أموالا، بلغت مائة واثنى عشر ألفا وأربعمائة قرش شهريا.

رجعنا" سينيچه " فى اليوم الثامن من شهر محرم الموافق العشرين من شهر يونيو، ووصلنا إلى "ويشغراد"[1]، ومنها اتجهنا إلى "طوزلاى زير"[2] مركز سنجاق "ايزورنيق"، وفى أثناء انشغالنا بالتفتيش على أحوال تلك المناطق وأعمال المزارع، شاع أن هناك بعض الاضطرابات فى منطقة "بهكه"، ولكى نقترب منها تحركنا من "طوزله" ووصلنا إلى ناحية سنجق "بنالوقه"[3] مرورا بالضفة اليسرى لنهر البوسنة.

تحريض النمسا لمسلمى البوسنة

حدث فى سنجق "بهكه" أن حاول بعض موظفى النمسا، إثناء البوشناق عن

---

(1) ويشغراد Višeğrad: أحد أقضية " سنجق سراى "، بولاية البوسنة.

(2) طوزلاى زير Tuzla-ı Zır: جزء من " طوزله " " بسنجق ايزورنيق"، بولاية البوسنة، وينقسم هذا القضاء إلى ناحيتين " طوزلاى بالا "، "وطوزلاى زير "، ويطلق عليهما المملكتان.

(3) بنالوقه Banaluka:أحد السناجق الخمس، التى تتكون منها ولاية البوسنة

قرارهم [الخاص بالتجنيد]. وقالوا لسكان منطقة الحدود وهم دائمو الصلة بأهالى "خرواتيا": "لقد قبلتم الانضمام إلى الخدمة العسكرية، مع أن الدولة العلية تمر بأزمة مالية، ولن تستطيع دفع رواتبكم الشهرية". وثبت أن سكان الحدود ردوا عليهم بقولهم: "ليس من ديننا أن ننخرط فى الجندية طمعا فى المال، فهذا حق دولتنا وديننا علينا كما أن هذا ما رآه أركان الولاية وأفتى به مفتو الأقضية الأربعة، وليس بوسعنا أن نتراجع". وعندما علمنا بثبات سكان الحدود، وهو أشد ما كان يقلقنا فى مسألة تنظيم الجيش، تأكدنا أنه لن يظهر للتردد أثر لدى سائر البوشناق.

فى تلك الأثناء علمنا بوصول أمير اللواء "صالح باشا" إلى البوسنة حاملا المرسوم العالى، وأنه فى طريقه إلى سراى البوسنة، ومنها إلى "اكشى صو"، وهى منطقة تفيض بشرا. وقد أطلق عليها هذا الاسم بسبب مياهها المعدنية، وهى مياه جد مفيدة، ويأتى إليها الناس فى الصيف من كل مكان، ومن النمسا فيقيمون فيها لعدة أسابيع، وبها نزلٌ ضخمة لإقامتهم.

عندما وصلنا "اكشى صو" وجدت الوالى "عثمان باشا"، ومعه الكثير من وجوه وأشراف البلدة، فأقمت بها بضعة أيام، ثم جئنا جميعا إلى مدينة سراى البوسنة عاصمة الولاية لاقتراب موعد شرف وصول المرسوم العالى.

وفى أثناء مرورنا وتفتيشنا على المناطق المجاورة على النحو السابق، شاعت بعض الأراجيف فى تلك المناطق، تقول إن: "هناك بوادر ثورة عظيمة فى البوسنة، وإن الأهالى سيعلنون العصيان". وقال أمير اللواء "صالح باشا" أيضا إنه سمع فى أثناء مجيئه عن طريق الطونة وصاوه[1]، أن هناك اضطرابًا كبيرًا فى البوسنة.

وكان السماح لبعض موظفينا على الحدود فى تلك الأثناء بالسفر إلى النمسا للعلاج، مؤيدا لهذه الأراجيف. وقد فسر بعض الناس استئجار الباشا الوالى أحد الخانات داخل قلعة سراى البوسنة للاستجمام والإقامة، بأنه بسبب خوفه وقلقه.

وحقيقة الحال أنه لم تكن هناك ثورة فى البوسنة، إنما مجرد تحول وتغير فى

(1) نهر كبير يمر من النمسا والمجر، ويصب فى نهر الطونة.

الأحوال. فعند عودة عبدكم العاجز إلى سراى البوسنة، كان حضرات المدربين يحثون الناس على التدريب العسكرى، كما كانت الفتيات فى المتنزهات يرددن للشباب أغنية " الجندى ذى الرداء الأخضر".

وعندما عرف موعد وصول " صالح باشا " إلى مَرسى "بروت" الواقع على نهر "صاوه"، أرسلتُ إلى هناك فصيلة من الفرسان النظاميين وعددًا من فرسان الشرطة. ودعوتُ أركان الولاية وواحدا أو اثنين من وجوه وأشراف كل قضاء، ليكونوا فى سراى البوسنة فى العاشر من شهر ربيع الأول، وجاءوا جميعا فى اليوم المحدد، وانتظروا وصول المرسوم العالى، ومن لم يتمكنوا من الحضور لعذر شرعى، أرسلوا أبناءهم لتسجل أسماؤهم ضمن الجيش.

قامت لجنة مكونة من وجوه مدينة سراى [البوسنة]، ومن التجار ذوى النفوذ، بفحص دفاتر المناطق لمعرفة عدد من يلزم تجنيدهم من مدينة البوسنة هذا العام، وبالتالى فقد اتضح الأمر، وزال كل أثر للتردد بين البوشناق، وعليه فقد داخلتنا الطمأنينة والأمان.

وفى يوم الأربعاء الرابع عشر من شهر ربيع الأول، تأكد وصول "صالح باشا " إلى سراى البوسنة بالمرسوم العالى. فأقيم سرادق فى منطقة تبعد عن المدينة مسافة ثلاثة أرباع الساعة[1]، ووصل كل الأمراء والموظفين وأركان الولاية ووجوه وأشراف البلدة معًا إلى هناك، وقد أرسلت من قبل إلى هناك فصيلتان من الفرسان، ليكونوا فى استقبال القادمين، ووصل " صالح باشا "، ونزل فى السرادق المعد. وخرج بضعة آلاف من الأهالى إلى خارج المدينة راجلين وركبانا، ولم يخرج بعض وجوه البلدة إما بسبب المرض أو التمارض. وأيا ما كان السبب، فإن بقاءهم داخل المدينة أثار دهشة الكثير، وكان هذا سببا فى ظهور بعض الضيق على وجوه بعض أركان الولاية ممن أيدوا فكرة الجندية.

والواقع أن حدوث مثل هذه التأثرات الوجدانية أمر طبيعى، حيث إن هذا اليوم

---

(1) مسير الساعة يعادل ثلاثة أميال أو خمسة كيلو مترات.

كان بداية عهد جديد بالنسبة للبوشناق، ومع هذا فقد كان من غير المستبعد فى أيام تغير كهذه، أن تقع حوادث كبيرة لأسباب صغيرة، فقد كانت علامات التمرد تظهر فى البوسنة كلما أثير موضوع التجنيد. ومع هذا لا يمكن القول بانقطاع المخاوف تماما، لأن الرأى العام فى مثل هذه الأحوال يحتاج إلى وقت كاف. أما فى البوسنة فإن الرأى العام كان بجانبنا، ولذا لم أشعر بالقلق.

وحينذاك صعدتُ على ربوة صغيرة، وجاء "صالح باشا" وهو حاملا المرسوم العالى داخل حافظة من قماش الأطلس، يضمها إلى صدره ووقف إلى جانبى واصطف جانبى الباشا الوالى، وأركان الولاية وأعضاء المجلس الكبير والأعيان وكبار التجار وأصحاب النفوذ فى انتظار الكلمة.

وبعد أن خطبت فيهم لتحريك حماستهم، وذكرتُ الأحداث التاريخية (للبوسنة) والأخلاق الراسخة والمزايا التى يتمتع بها البوشناق، وأبديتُ أسفى لتخلفهم فترة طويلة على الرغم من ظهور عظماء من بينهم فيما مضى، وقلت: " إن البوسنة تشبه كتابا مهترئ الغلاف، إلا أنه سليم المحتوى، وكما ترمم أربطته، فإن هذا الوضع القائم، يشبه الكتاب القديم، وأربطته هى هذا المرسوم العالى. وإننى سعيد وفخور بهذا، حيث إن ختام مهمتى يصادف البدء فى تنفيذ أمر فيه خير لكم. هذا الأمر هو تنفيذ الأحكام العظيمة الواردة بهذا المرسوم العالى، وحين يُقرأ عليكم المرسوم العالى بمشيئة الله تعالى، ستعرفون قدر هذه التوجيهات، وما فيها من آيات الرحمة من جلالة السلطان ظل الله، بما يؤيد كلامى، وتوفوه حقه من الشكر ". عندئذ قال " الوالى باشا ": "أعرف أننى محظوظ لأن هذا الخير العميم ثم فى فترة ولايتى".

وترجم "أوزون عبد الله أفندى" هذه الكلمة إلى اللغة البوسنوية،لأن أكثر الموجودين يجهلون التركية، وقرأها على الناس بصوت مرتفع،ثم أبلغنى ردهم جميعا " بقولهم نحن يا سيدى لا نستطيع أن نقول إننا نستحق كل هذا المدح، الذى مدحتنا به و لكننا جميعا نشكركم لأنكم عرفتمونا على هذا النحو، وإن كان يعيبنا شىء، فهذا العيب فى الغلاف فقط". وعندئذ ظهرت علامات الفرح على كل

الموجودين، وانفرجت أسارير الوجهاء الذين فى قلوبهم تردد وقلق، وضحك الموجودون ـ وهو أمر ضرورى ـ من قوله: "إن كان يعيبنا شيء، فهذا العيب فى الغلاف فقط". ووسط مظاهر السعادة هذه، صدر الأمر للموكب بالتحرك،وكان طول الموكب مسافة نصف الساعة، وقد دخل هذا الموكب الضخم العظيم المدينة، وأودع المرسوم العالى مقر الحكومة.

وبعد يومين أى فى يوم السبت السابع عشر من شهر ربيع الأول، قُرئ المرسوم العالى، على الباشا الوالى فى "آت ميدان"الواقع فى مواجهة المعسكر السلطانى، ثم عقبت على هذا بقولى: " إننى لا أرى ضرورة للحديث عن شجاعة البوشناق فالتاريخ شاهد عليها، وهى من الأمور المعروفة والمسلم بها فى كل مكان، وكل ما ينقصهم هو التدريب، وها هو ذا المرسوم العالى، قد قرئ وفتح لكم هذا المجال، إن اليوم هو تاريخ جديد للبوسنة والهرسك، كما أن ضرورة التدريب العسكرى أمر ثابت شرعا وعقلا والتجربة أيضا تشهد بذلك.وبعد ذلك، فسر مفتى الهرسك الآية الكريمة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ﴾[1]. وبين ضرورة أن ينتظم كل واحد منهم (فى سلك الجندية) وفائدة التدريب، وبعد أن وضح للحاضرين باللغة البوسنوية واللغة التركية، أن الحروب تعتمد على الجنود المنظمة المدربة، توجه "درويش أفندى" مفتى "تراونيك" إلى الله بالدعاء، كما دعا مفتى سراى البوسنة بدعاء بليغ فصيح. وما أن انتهوا من دعائهم، حتى رددت الآلاف المجتمعة فى الميدان كلمة آمين، على نحو أخذ بمجامع القلوب، كما ردد جنود الفرسان والمشاة السلطانية، الذين اصطفوا فى الميدان، لعزف السلام، هتاف ليحيا جلالة السلطان ثلاث مرات، فأشعلوا حماسة ومحبة البوشناق.

وبعد ذلك انصرف كل من الباشا الوالى، وأركان الولاية، وأعضاء المجلس الكبير من الاحتفال، وفى أثناء دخولهم من الباب الكبير المطل على ميدان المعسكر،

(1) سورة " الصف "، الآية رقم (٤).

بغرض تناول بعض المشروبات والترويح عن أنفسهم لبعض الوقت، اندفع كثير من الناس إلى داخل المعسكر من الباب الجانبى، وظهر نوع من الفوضى داخل المعسكر. ونهضنا لاستطلاع الأمر، فاتضح أن الشباب فى أثناء مسارعتهم لتسجيل أسمائهم ضمن الجيش، هجموا جميعا [على باب المعسكر] كى يدخلوا دفعة واحدة، ليسجل كل منهم اسمه قبل الآخر، وبذا لم يعد هناك وقت لتناول أى مشروبات، فأمرت قائلا: "قدموا الزى العسكرى للشباب الآن". وأخرجت ملابس كتيبة الاستطلاع ذات الشريط الأخضر، وانشغل أركان الولاية وأعضاء المجلس الكبير حتى المساء، بتسليم الملابس للشباب، وعلى الفور أصبح جنود كتيبة الاستطلاع الذين فى الثكنات، والأفراد الذين ارتدوا هذه الملابس الجديدة كالأخوة الأشقاء. وأخذوهم معهم إلى عنابرهم الخاصة بهم، وفى ذلك اليوم، أصبح البوشناق حريصين على الجندية، حتى إن الشباب من فرط ازدحامه كانوا يتدافعون فى أثناء دخولهم المعسكر. وكان بعض أعيان البلدة يبحثون عن أبنائهم فى منازلهم وفى الطرقات، ليسجلوا أسماءهم فى سجلات الجيش، وفى الوقت نفسه يمضى الأبناء ليسجلوا أسماءهم عن رضى وطواعية، ويرتدوا الزى العسكرى، ثم يبلغوا آباءهم.

وحدث أن جاء ثلاثة إخوة، وسجل كل منهم اسمه دون علم الآخرين، ثم جاء والدهم ورغب فى أخذ أحدهم، ولم يوافق أىّ من الثلاثة أن يخرج [من الجيش]، فأُخرج واحد منهم بالقرعة الشرعية، وسُلم لوالده. وكان المتصور بعد إحصاء عدد المتطوعين، أنه إذا ظهر نقص فى عدد الجنود، أن يستكمل هذا العدد إما بإجراء القرعة الشرعية، أو بأى سبيل آخر، كتقديم عدد من الناس للعمل كجنود معاونة. لكن اتضح أن عدد المتطوعين فى سراى البوسنة أكبر من العدد المطلوب تجنيده منها. وانتقلت هذه الظاهرة من مركز الولاية إلى المناطق المجاورة، وقد تجمع فى مراكز الأقضية، شباب أقضية وسناجق سراى البوسنة، "وايزورنيق"، المقرر أن يقيدوا ضمن الكتيبة الأولى، وحمل مديرو الأقضية الأعلام، وتقدموهم وقرعت الطبول، وأخذوهم واتجهوا نحو سراى البوسنة مباشرة، وعندما اقتربوا من المدينة،

استقبلتهم الفرق الموسيقية، واتجهوا على الفور إلى المعسكر السلطانى، وانضموا إلى الكتيبة الأولى، ومن سياق هذه الأحوال، لم تعد هناك حاجة لإجراء القرعة الشرعية، حيث إن عدد شباب البوسنة كان يزيد عن المطلوب، وكان هذا مؤشرا على تأجيل إجراء القرعة إلى العام التالى.

أما " تذكره جى زاده درويش بك"، وهو من أركان الولاية، وسليل أسرة عريقة فى "تروانيك". وكان يحمل رتبة قائمقام لواء فرسان التيمار، الذى تم تكوينه من قبل، فقد اختير هذه المرة قائمقام للفرقة الخامسة فى البوسنة، التى اشترك فى تشكيلها على النحو المذكور. وعلى الفور شكلت لجنة تحت رئاسة وإشراف أمير اللواء "كَنج أحمد باشا"، مكونة من بعض أركان الولاية والضباط المؤهلين، وكلفت اللجنة بترتيب وتنظيم العساكر الجديدة أولا بأول.

أما "عصمت بك" الذى كان يعمل كاتبا فى لواء الشرطة، وهو ابن "أوزون عبد الله أفندى" كبير أركان الولاية، فقد عين أمين اللواء. واختير ابن أحد وجوه سراى البوسنة، ليعين سنجقدارا.

وارتدى شباب البوسنة، الذين قيدوا أسماءهم فى الجيش، ملابس الاستطلاع، وكانت الفتيات تناديهم فى أثناء سيرهم فى الشوارع بقولهن: "حبيبى يا ذا الرداء الأخضر". وقد أدى هذا إلى ازدياد حب البوشناق للجندية، وأصبحت لديهم رغبة شديدة فى تعلمها، لدرجة أنه إذا ذهب أحد أفراد كتيبة الاستطلاع إلى السوق، كان يحيط به اثنان من البوشناق ويرافقانه فى ذهابه وإيابه، ليتعلما منه الخطوة العسكرية.

وسراى البوسنة مدينة أنشأها العثمانيون. فقد أمر جلالة السلطان "محمد خان الثانى" ببناء قصر فى هذا الموقع، فأقيمت من حوله الخانات والمنازل والمحال، وأصبحت مدينة كبيرة. ولذا سميت سراى البوسنة. وقد أقيم مؤخرا المعسكر السلطانى مكان ذلك القصر، و ها هى ذى الكتيبة الأولى من اللواء الأول فى البوسنة، يتم تكوينها فى هذا المعسكر. وقد اتخذت قصبة "تروانيك " مركزا للكتيبة الثانية، وصدر أمر بتجمع العساكر الذين سيقيدون ضمن هذه الكتيبة فى المعسكر

السلطانى فى "تروانيك". وقد اختير مساعدو المقدمين وضباط هذه الكتائب من الكتائب النظامية، واختير مساعدو المقدمين من أبناء الأمراء، وسُمح باختيار الملازمين من أبناء الأمراء المحليين، ومع هذا فقد اتضح أنه من الضرورى أن يوجد بينهم ضباط مدربين من خريجى المدرسة الحربية لتدريبهم وتعليمهم، وأن يرقى اثنان من رتبة ملازم ثانٍ فى البوسنة إلى رتبة ملازم أول، وأربعة من المساعدين الأكفاء من الكتائب النظامية الموجودة فى البوسنة إلى رتبة ملازم ثانٍ، ثم يلحقوا بفصائل البوسنة، ويكون بقية الملازمين من الأمراء المحليين، ويكون نصف الرقباء ممن يحملون رتبة عريف المدربة بالكتائب النظامية، ويختار النصف الآخر من أبناء الوجهاء، وهكذا تم تنظيم العرفاء بشكل مشترك.

ولما كانت رتب ومرتبات الضباط سوف تحتسب من تاريخ وصول المرسوم والأوامر السلطانية، فقد استثنيت كتائب البوسنة فى هذه المرة ولمرة واحدة فقط. وذلك حسب الإذن السنى، الذى تم الإحسان به عليهم، بهذا الاستثناء. وتم اعتبار رتب ومرتبات ومخصصات الضباط من تاريخ إبلاغى ـ عبدكم ـ بها، وقد ازداد إقبال ضباط الكتائب النظامية على كتائب البوسنة، ولذا فقد أجريت انتخابات دقيقة جدا لاختيار أكفئهم.

وكان هؤلاء الضباط يعاملون الجنود الجدد معاملة الأبناء والإخوة، واعتنوا عناية شديدة بأمر تعليمهم وتدريبهم. وحولت إحدى الكتائب فى معسكرى البوسنة وتروانيك إلى فصل دراسى، خُصص لتعليم الجنود، وأرسل من إستانبول عدد كاف من الرسائل والمطبوعات، ولما كان أكثر الجنود الجدد أمّيين، يجهلون القراءة والكتابة، فقد تخرج أغلبهم بعد ثلاث سنوات، وهم يستطيعون القراءة والكتابة بدرجة طيبة. والحاصل، أنه أصبح كل لواء من ألوية البوسنة مدرسة لتعليم البوشناق.

وكانت ملابس وأسلحة الكتيبتين الأولى والثانية، تصل على دفعات عن طريق "سلانيك"، وبعد إنهاء استعدادات إكمال هذه الكتائب، تقرر تكوين كتيبة ثالثة فى

الهرسك، فقد انتقلت أفكار الجندية من البوسنة إلى هناك، وبدأ شباب سنجق الهرسك، فى التجمع فى " موستار "، وشباب "يكى بازار " تجمعوا فى سينيچه ويكى بازار. وعلى الفور، أرسلنا لهم موظفين مخصوصين لتدريبهم وتنظيمهم. وتم اختيار وتعيين ضباط لهم بشكل مختلط على النحو المذكور، وطلب " فؤاد باشا" برقيا، أن ترسل الملابس والأسلحة اللازمة لهذه الكتيبة فورا.

وقد ابتكر " فؤاد باشا " لألوية البوسنة علما جديدا أحمر اللون وعلى نسق جديد. ذلك لأنه رجل محب للابتكار، وعندما عرض العلم الذى تم تخصيصه للواء البوسنة، على الحضرة السلطانية، أبدى جلالة السلطان " عبد العزيز خان " إعجابه به، وأصدر مرسوما بتخصيص هذا العلم للواء الأول من جيش الخاصة السلطانية. وأن يعمل علما بدلا منه لجيش البوسنة، وأمر بعد ذلك بتعميم هذا العلم فى كل الألوية. بناء على ذلك صدر الأمر بتخصيص العلم الأحمر، الذى صنع أولا للواء الأول من جيش الخاصة، والعلم الثانى إلى اللواء الأول من كتائب البوسنة.

وقد استدعى الأمر بقائى فى سراى البوسنة فترة تزيد على الشهر، انتظارا لوصول العلم، حيث إنه يجب أن أحضر بنفسى مراسم تسليمه.

وبعد أن تم تدريب الكتيبة الأولى من اللواء الأول فى البوسنة، وتعليمها مبادئ الجندية، ركزت الجهود أولا بأول لتعليم هذه الكتيبة كيفية إجراء مراسم العرض العسكرى، ليكون هذا ضمن مراسم تسليم علم اللواء. وقد تولت كتيبة الاستطلاع الموجودة فى المعسكر أمر تعليمهم، وبدأوا فى التدريب الشاق. وكان البوشناق حريصون جدا على التعليم، لدرجة أنهم كانوا يقطعون الليل فى التعليم داخل المعسكر، واستطاعوا خلال شهر واحد أن يتقنوا إجراء مراسم العرض العسكرى.

ولما كانت المصلحة تقتضى أن تجرى مراسم التسليم بشكل مهيب، لذا أُعد نشيد جميل بلغة البوشناق لينشد فى يوم التسليم. ووضع نقيب الموسيقى لحنا له من المقام

الموسيقى الذى يفضله البوشناق، وجعل منه معزوفة جميلة ليرددوها معا. ومطلع هذه المنظومة هو: " هلموا تعالوا تحت اللواء ".

ولم يكن أحد غيرهم يعلم عن هذا الأمر شيئا، أو يعرف كيف سيتمكن عساكر البوسنة من أداء مراسم العرض العسكرى. ووصل العَلَم فى منتصف ربيع الآخر. وفى يوم الأربعاء الموافق العشرين من نفس الشهر، وذهب " الوالى باشا " وأمراء الجيش والموظفون المدنيون وموظفو القصر والعلماء جميعا إلى مقر الحكومة بملابسهم الرسمية. وتحركنا جميعا فى الموكب المُعَد، وامتطى "صالح باشا " صهوة جواده، وأمسك فى يده العلم داخل حافظة، واتجه إلى ساحة ميدان الخيل أمام المعسكر السلطانى، الذى سبق أن تُلى فيه المرسوم العالى. ووصل إلى منطقة قريبة من باب المعسكر الكبير المطل على الميدان. واصطف على جانبى الميدان عدد من جند جلالة السلطان من الكتائب الموجودة فى المعسكر، وأدوا التحية. ونظرا لازدحام الميدان بالناس، فقد تجمعت النساء فى المنازل المطلة على الميدان، ليشهدن الموكب، وزينت أسطح المنازل بالفتيات اللائى جلسن للفرجة، وأصبحت أسطح المنازل وكأنها حدائق زهور.

ودخل " صالح باشا " من باب المعسكر المذكور، وربط العلم بالصارى، وفى أثناء رفعه خرج من الباب الجانبى للمعسكر مجموعة من جنود الكتيبة الأولى المدربين فى البوسنة ـ والذين سجلوا أسماءهم أولا ـ وهم يحملون البنادق. أما الذين سجلوا أسماءهم مؤخرا وتعلموا فقط الخطوة العسكرية، فقد تقدموا واشتركوا بدون بنادق. وفى أثناء تقدمهم صوب الميدان وهم على هذا النحو، بدأت فرقة الموسيقى السلطانية فى عزف المقطوعة السابقة ليسيروا على أنغامها وهم يرددون كلماتها، وفى الوقت نفسه كان كل الموسيقيين يرددون بلغة البوشناق بصوت واحد مرتفع: " هلموا تعالوا تحت اللواء ". وقد أثارت هذه الأنغام دهشة الموجودين وإعجابهم بعازفى الموسيقى العسكرية.

أما العساكر الجديدة، فقد تقدمت صوب الميدان فى انتظام تام، وأتمت مسيرتها،

وكان الناس يظنون أنها كتيبة الاستطلاع القديمة، لكن عندما رأوا "درويش بك" قائمقام اللواء، وبعض أبناء الأمراء والوجهاء ضمن الضباط، ثارت شكوكهم، وقال بعض الأمراء والآغاوات الذين بجوارى بلغة البوشناق: "هذه الكتيبة هى كتيبة جنودنا الجدد". فقال البعض الآخر: "لا يا صديقى، إنهم الجنود المدربة". فرد عليهم آخرون: "حسنا، لكن ضباطنا يقودنهم، ألا ترونهم".

وبينا هم يتحدثون على هذا النحو، وصلت العساكر فى مجموعات متتالية إلى الطرف الأقصى من الميدان، والتحموا جميعا فى مجموعة واحدة، وسرعان ما اصطف الجنود فى تشكيل ميدانى بناء على الأمر الصادر إليهم من "درويش باشا". عندئذ قلت ـ عبدكم ـ للواقفين بجوارى: "أيها البوشناق، انظروا ها هى ذى الكتيبة الأولى من جيش البوسنة، فشاهدوا أثر تدريب شهر واحد فقط". وعندئذ اعتلتهم الدهشة والفرح، لدرجة أن الدموع انهمرت من عيون بعض الوجوه والأشراف حتى ابتلت لحاهم، وبدت على وجوهم علامات التأثر والإعجاب.

وفى هذه الأثناء انفصل "درويش بك" ومعه بعض الضباط عن الكتيبة، وتقدموا حتى وصلوا إلىّ. وكان "الوالى باشا" يمسك بجراب العلم السلطانى، فأمسكتُ ـ عبدكم ـ العلم وسلمته إلى الضباط المشار إليهم، وقلت: "أيها البوشناق الغزاة، ها هو ذا علم اللواء الأول فى جيش البوسنة، وهذا العلم السلطانى هو الهدية الأولى للبوسنة من جلالة سلطاننا العظيم، وإن هذا لفخر عظيم للواء الأول. كما أن المحافظة على عظمة وشرف هذا اللواء فريضة على كل البوشناق، فقد اكتمل الآن لواؤنا. وإننى سأقوم بتسليم هذا العلم إلى الكتيبة الأولى نيابة عن كل اللواء. فيا ضباط وجنود الكتيبة الأولى، إن هذا لمن دواعى الشرف لكم، فقد انقضى ثلاثون يوما على قراءة المرسوم العالى فى هذا الميدان، وقد تعلمتم خلال هذه الفترة القصيرة، ولذا فإننى أسلمكم بنفسى علم اللواء، وقد حُرمتم النوم والراحة، وبذلتم كل جهودكم ليل نهار. لكنكم نلتم المجد والخلود، وإننى لا أشك بعد هذا فى أنكم سوف تحافظون أنتم وإخوانكم على عظمة وشرف هذا العلم السلطانى.

فشرفه هو شرف ومجد سلطاننا ودولتنا وأمتنا، الذى تقسمون اليوم على المحافظة عليه. لكن هل تعرفون معنى المحافظة على شرف العلم السلطانى ؟ قد يقال إن ذلك يكون بألا يطاله التراب وبأن يحفظ فى مكان أمين، ولكن لللتراب والغبار وآثار الرصاص لا تخل بشرفه، بل إن شرفه ومجده يزداد بآثار الرصاص، وما تحدثه به من ثقوب. إن شرفه فقط أن يظل خفاقا أمام العدو، وأن تضحوا بأرواحكم فى سبيله، ها هى ذى أمانة السلطان، فاحملوها".

وصدر أمر بإرسال علم صغير إلى كل كتيبة من كتائب البوسنة، بالإضافة إلى علم اللواء. وقمت بتسليم علم الكتيبة الأولى إلى " ابوزر أغا " مقدم الكتيبة الأولى، وعلى الفور قام إمام الكتيبة الأولى بالدعاء، وهتف بعده الجنود الجدد: " فليحيا جلالة السلطان " ثلاث مرات، ثم أطلقت المدافع من القلعة عشرين طلقة، ووقف الجنود فى شكل مجموعة، ومروا أمامنا وأدوا عرضا عسكريا جميلا، ثم عادوا إلى المعسكر من نفس الطريق، الذى أتوا منه، واصطفوا مرة أخرى وهتفوا: " فليحيا جلالة السلطان " ثلاث مرات، ثم ثبتوا علم اللواء أمام باب المعسكر، وخصصوا واحدا منهم لحراسته، وظل أهل المدينة حتى المساء يتوافدون على موقع العلم للتفرج عليه، حيث إنهم لم يكونوا قد رأوا علما من قبل، وأصبحت المنطقة التى أمام المعسكر مطافا لمن يودون رؤية العلم. وانشغل الشباب والفتيات عن العشق بالتفرج على العلم.

وبعد إجراء مراسم العرض العسكرى، اقترب منى قناصل الدول الصديقة، الذين حضروا مراسم تسليم العلم لتهنئتى ـ عبدكم ـ وأبدوا إعجابهم واستحسانهم، حيث إنهم لم يسمعوا أو يروا جنودا يجرون مثل هذا العرض العسكرى، بعد شهر واحد من بدء تدريبهم، ولا حتى فى الدول الأوربية التى أوجدت مثل هذا النظام.

وبعد إجراء مراسم تسليم العلم، انتهت مهمتى فى سراى البوسنة، فذهبت إلى "تروانيك"، واصطحبت معى أمير اللواء "أحمد باشا" وسلمت علم الكتيبة الثانية للجنود الجدد الموجودين فى معسكر السنجق.

وحتى ذلك الحين لم يكن يمنح أى وسام عثمانى لأحد من أصحاب المناصب العلمية. أما عبدكم، فقد أحسن على بصفة استثنائية بوسام عثمانى من الدرجة الثانية، ذلك مكافأة لعبدكم على الترتيبات العسكرية التى تمت بها فى البوسنة.

وألحق جنود سنجقى "بنالوقه" "وبهكه" بالفرقة الثانية، ولما كان متطوعو "بنالوقه" على وشك القدوم إلى "تراونيك"، وبلغت "بهكه" فى اليوم الثانى من شهر جمادى الأولى، ووجدت فى معسكرها خلافا غريبا بين أمراء الحدود ومقدم الكتيبة، ذلك أن زعماء مناطق الحدود الذين كان يخشى جانبهم فيما يتعلق بأمر الجندية، قام بعضهم بإحضار أبنائه، وأحضر البعض الآخر إخوته، وبعضهم أحضر أقاربه المتطوعين، وقدموهم إلى معسكر الجيش كى يكتسبوا أولوية على المقيدين فى الجيش بالفعل. وكانت حصة كل قضاء فى البوسنة من المتطوعين يتم إبلاغها إلى "بهكه" كل فى ورقة منفصلة، ولما اتضح أن متطوعى الحدود أزيد من المطلوب، رفض مقدم الكتيبة هذا العدد الزائد، وأراد أن يعيدهم، أما سكان الحدود، فكانوا يرفضون هذا، لأنهم كانوا يعتبرون خروجهم من الجندية بعد انخراطهم فيها أمرا يمس شرفهم، كذلك كان مقدم الكتيبة لا يستطيع أن يقبل أعدادا أزيد من المقدار، الذى أبلغ إليه. ووقع الطرفان فى حيرة، فأصدرتُ فور وصولى إلى "بهكه" أمرا إلى مقدم الكتيبة بقبول الأعداد الزائدة دفعا للنزاع.

ولم يقبل زعماء الحدود أن يقيد أبناؤهم وإخوانهم ضمن الضباط، وذلك احتراما للأصول التى اتخذت فى بقية السناجق. وأصروا على أن يقيدوا ضمن الجنود، وبعد أن يتعلموا الجندية، يصبحون ضباطا بالشكل المناسب، ولم يكن هناك سبيل سوى أن يقيدوا جميعا ضمن الجنود، ويجب النظر إلى ساكنى مناطق الحدود هؤلاء، والذين يقال إنهم قوم همجيون، على أنهم يعرفون تماما معنى الجندية الحقة.

وقد أثار تصرف وسلوك سكان الحدود، حماسة الناس فى بقية الأقضية، وفى فترة قصيرة جاء متطوعون أكثر من العدد المقرر عن كل قضاء، وتجمعوا فى "بهكه"، وأرسلوا على الفور إلى " تروانيك ".

وفى تلك الأثناء وصلت أيضا ملابس وأسلحة الكتيبة الثالثة، ومع ازدياد إقبال أهالى الهرسك على الجندية، ورد فى التعليمات الواردة من "موستار" أن أكثر الشباب الممتازين الذين قيدوا ضمن الجنود المتطوعين من كل مكان يبلغ دخل الواحد منهم ثلاثة أو خمسة آلاف قرش سنويا.

وبهذا الشكل تم تكوين الكتيبة الثالثة أيضا، وتمت تشكيلات اللواء الأول، ثم تحركت [الفرقة التفتيشية] من "بهكه"، إلى سنجق "بنالوقه" لإتمام المهمة التفتيشية هناك.

وعلى النحو السابق كان الضباط المدربين المنقولين من الكتائب والألوية المختلفة إلى لواء البوسنة، جميعهم من الشخصيات المنتقاة، كذلك كان أكثر الذين أخذوا من أبناء الأسر العريقة فى البوسنة، من ذوى الاستعداد الذين يجيدون القراءة والكتابة، ولذا كانوا يهتمون ويجتهدون فى التعلم وتحصيل الفنون العسكرية بصورة متميزة. وأصبحت كتائب البوسنة منتظمة، وتخرج من بينهم ضباط وأمراء ممتازون، وقد ظهر الانتظام والانضباط المتميز فى كتائب البوسنة، ويرجع هذا إلى ما يتمتع به البوشناق من أخلاق طيبة، وإلى أن ضباطهم من الشخصيات المنتقاة، وهذا يعد أيضا بداية طيبة، لأن الضباط هم روح الجند النظاميين.

وأخيرا رغب جلالة السلطان "عبد العزيز خان" فى رؤية عساكر البوسنة، فأمر بإحضار كتيبة اللواء الأول إلى إستانبول ، وأقاموا فى معسكر طاش، وقد عادت الكتيبة المذكورة إلى البوسنة، بعد أكثر من خمسة شهور قضوها فى المعسكر دون أن تقيد أى جزاءات فى تقاريرهم اليومية، وكان هذا مثارا لدهشة وإعجاب الأمراء العسكريين الموجودين فى الدائرة العسكرية، حيث إنهم لم يروا من قبل كتيبة تقيم فى مكان ما مدة تزيد عن خمسة شهور دون أن يقع من جانبها خطأ واحد من أحد الجنود، ثم أحضرت كتيبة ثانية من كتائب البوسنة إلى إستانبول ، وأقامت هى الأخرى أربعة شهور، عادت بعدها دون أن توقع على أى من جنودها أدنى جزاءات. وتمت تشكيلات اللواء الأول فى البوسنة على النحو المذكور، وبعد

إحصاء عدد المتطوعين المتوقع عددهم فى السنة التالية، رؤى أن يجند بقيتهم بطريق القرعة الشرعية، وأن يكون فى الأقضية والنواحى التى فى أطراف الجبل الأسود، نوع من عساكر الحراسة المحلية وفق الأصول المرعية فى هذا، على النحو المشروح آنفا. وأن تخصص الإيرادات الجديدة التى ستنتج عن التعديلات والتوفيرات، لمواجهة ما يزيد من مصروفات هذه العساكر الجديدة على ألا تتحمل خزانة الدولة أية مصروفات زائدة. وتذكرت أننى ناقشت ذات مرة أمر تشكيل لواء من الفرسان فى منطقة البوسنة، دون أن تتحمل الدولة نفقات هذا اللواء.

وكنت قد قدمت لائحة أشرح فيها هذا، وقلت فيها إنه: "يوجد فى منطقة البوسنة لواءان دائمان من فرسان الجيش الثالث، لكن لا يوجد معسكر، يكفى لاستيعاب هذين اللواءين فى فصل الشتاء، لذا كانوا يعانون مشقة كبيرة فى أيام الشتاء. ولما كان فى البوسنة كثير من أصحاب الأقضية، وكان أبناؤهم قد اعتادوا ركوب الخيل، لذا كان يشق عليهم أن يكونوا ضمن الجنود المشاة، وأنه لو أنشئ لواء فرسان من المتطوعين منهم، على أن يدبر أبناء العائلات العريقة أمر الخيول والأسلحة، وأن توسم خيولهم بأختام حكومية ويصرف لهم تموينهم ومخصصاتهم ما داموا فى الخدمة العسكرية، وأن تعتبر مدة الخدمة العسكرية بالنسبة لهم اثنتى عشرة سنة. فى السنوات الثلاث الأولى منها يجمعوا فى فصل الصيف، ويدربوا لمدة شهر. وهكذا يتكون لدينا لواء من الفرسان بدون نفقات، ويخصص بدل نقدى لحيواناتهم لن يتجاوز بضعة قروش.ويمكننا التحكم فى زيادة عدد هؤلاء الجنود، أو تخفيض قيمة هذا البدل النقدى. والنتيجة أن يتكون لواء من الفرسان المدربة دون أى مصروفات، ويعاد واحد من لوائى الفرسان النظاميين المذكورين إلى عاصمة الولاية، وفى تلك الأثناء تلقيت أمرا بعودتى إلى إستانبول .

بناء على ذلك تحركت الفرقة التفتيشية من "بنالوقه" فى يوم الاثنين العاشر من جمادى الأولى سنة ١٢٨١هـ [١٨٦٤م]، واصطحبت معها أربعة من عرفاء الكتيبتين الأولى والثانية من اللواء الأول فى البوسنة، شديدى البنية وطوال القامة، ومن ذوى المظهر المتميز، كنموذج لعساكر البوسنة الجديدة.

بين النصرانية والإسلام

وصلنا إلى "غراد شقه"[1]، وفى اليوم التالى تجولنا فى "غراد شقه" النمسا. وفى اليوم الذى يليه، ركبنا الباخرة فى نهر الصاوه، واتجهنا جنوبا. ووصلنا بعد يوم واحد إلى "زمون"[2] الواقعة فى مواجهة "بلغراد"[3]. وجاء الفريق "على باشا" محافظ بلغراد إلى "زمون"، وتقابلنا معه ووقفنا منه على حقيقة الأحوال فى "بلغراد". وبعد أن أقمنا ليلة فى "زمون" سافرنا إلى إستانبول بباخرة "الطونة". والتقينا ونحن فى الباخرة بالسفراء الأوربيين، وهم فى طريق عودتهم إلى إستانبول إثر حلول فصل الخريف، وذلك بعد أن قضوا فترة فى بلادهم.. ومن بينهم "ماركي موتيه"[4] سفير فرنسا فى إستانبول ، والذى أصبح أخيرا وزيرا لخارجية فرنسا. وهو إنسان رقيق عريق الأصل، وقد دار بينى وبينه حوار شيق.

ذلك أنه بعد أن تناولنا طعام الإفطار جلسنا معًا نحتسى القهوة، ونتحاور، وكان بصحبتنا "واصو أفندى" مترجم الهيئة التفتيشية، وكنا نقطع الوقت فى مناقشات تتصل بالسياسة ومباحث الفلسفة. وفى هذه الأثناء، صعد إلى المركب بعض الأمراء من ميناء "الأفلاق"، واشتكوا من الإجراءات التى اتخذت بخصوص المزارع، وعندما سأل "ماركى موتيه" عن نظم الأراضى فى الدولة العلية، بينتُ له الأحكام الشرعية والقانونية المتعلقة بالتصرف فى الأملاك والأراضى، وبينت له الأسس الإدارية فى هذا الخصوص، فقال ممنونا: "كان "نابليون بونابرت" يقول: "لو أننى تدينت بدين لاخترت الإسلام، لأنه لا رهبانية فى الإسلام". لكننى لما أقمت لفترة فى إستانبول ، عرفت أن للعلماء درجات مثل الرهبان، وها أنت ذا فى درجة عالية فى هذه الهيئة العلمية، وقد استطعت بهذه

(1) أحد قضاءات " سنجاق بنالوقه "، وتقع على ساحل نهر صاوه.

(2) قصبة تقع على الساحل الأيمن لنهر الطونة، فى مواجهة بلغراد.

(3) بلغراد ويطلق عليها العثمانيون اسم " آق حصار "، بمعنى القلعة البيضاء، وتقع على نهر "الصاوه"، عند مصبه فى نهر "الطونة". فتحها العثمانيون سنة ٩٢٧هـ، فى زمن السلطان " سليمان القانونى "

(4) ماركى موتيه: كان سفيرا لفرنسا فى إستانبول ، ثم أصبح وزيرًا للخارجية الفرنسية.

الصفة الرسمية الروحية أن توفق فى تنفيذ الترتيبات العسكرية فى ولاية البوسنة، وهى ولاية تأبى منذ أمد بعيد أن يجند أبناؤها فى الجيش العثمانى، "فنابليون" لم يستطع أن يقف على حقيقة الأمر، لأنه لم يصل إلى هنا". وعند قول "ماركى موتيه" هذا قلت له: "لقد أصاب " نابليون بونابرت" فى هذا، وقال فيه قولا جميلا. والحقيقة أنه لا رهبانية فى الإسلام، والحديث الشريف يقول: "لا رهبانية فى الإسلام"[1]. وهؤلاء الملتحون الذين رأيتهم ليسوا رهبانا، لأنه ليس لهم صفة روحية رسمية، فالأمة الإسلامية لا تستطيع أن تصبر كالحكومة الروحية على هذه العلاقة المباشرة بين الرهبان والطوائف المسيحية.

فالطفل النصرانى تلده أمه، لكنه يحتاج إلى القس كى يُعمده ويعده نصرانيا، وليعترف بمجيئه إلى الدنيا، وبعد ذلك يحتاج أيضا إلى وساطة القسيس حتى يستطيع أن يعبد الله أو يستغفر لذنوبه. وإذا أراد أن يتزوج لبقاء نوعه، فإن عقد زواجه مرهون بالقسيس، ويحتاج إلى دعاء القسيس ليتصدق على أرواح موتاه، كما أن دفنه بعد موته متوقف على حضور القسيس. وإذا تأخر وصول القسيس، تظل الجنازة قائمة.

ولما كان النصارى فى كل هذه المراسم الدينية مضطرين إلى الرجوع للقساوسة، لذا لم يترك هؤلاء القساوسة ذنبا لم يرتكبوه مع هؤلاء المساكين، خاصة أنهم كانوا يجبرون النصارى ساعة احتضارهم على أن يوصوا بوقف أملاكهم وأموالهم على الكنائس، ويحرمون ورثتهم منها، وهذه التصرفات هى السبب الرئيس فى تحول النصارى فى كثير من مناطق أوربا إلى الإلحاد. أما الإسلام، فيخلوا من كل هذه المصاعب.

---

(1) لا رهبانية فى الإسلام: لم يثبت لفظه، كما قال " العجلونى"، فى كشف الخفا ومزيل الإلباس (ج ٢ / ص ٥٢٨). قال " ابن حجر ": لم أره بهذا اللفظ، لكى فى حديث "سعد بن أبى وقاص" عند "البيهقى": إن الله أبدلنا بالرهبانية الحنيفية السمحة ": وأبى أخرج أحمد فى مسنده (٣/ ٢٦٦) " لكل نبى رهبانية، ورهبانية أمتى الجهاد فى سبيل الله عز وجل".

فالطفل المسلم يولد، فيؤذن والده فى أذنه بالأذان الشرعى، ويسميه دون أن يحتاج إلى شيخ، ثم يكبر الطفل ويتعلم القراءة ومبادئ دينه، فيعبد الله من تلقاء نفسه، فهو يحتاج إلى معلم ليعلمه، لكنه لا يحتاج إلى وساطة الآخرين ليعبد الله. وعندما تقيم الجماعة الصلاة، تختار إماما من بينها، ومع أنه قد جرت العادة على تعيين إمام الجامع لأداء مهمة الإمامة هذه، إلا أن هذا ليس من الضرورات الدينية، فإذا لم يكن هناك إمام، أصبح أحد أفراد الجماعة إمامًا لها، وتقام الصلاة. والله وحده هو الذى يغفر الذنوب عند المسلمين. ولا يلزم لهذا سوى التضرع بقلب خالص، ولا يتدخل أحد بين العبد وربه. وإذا أراد رجل الزواج من امرأة، يعقد عليها إما بحضورهما أو بوكيلين عنهما، ويلزم فقط وجود شاهدين ولا يحتاجان إلى شيخ. والواقع أنه جرت العادة على وجود الشيخ فى أثناء عقد الزواج، وتنحصر أهمية وجوده فى تسجيل أسماء المتزوجين وتحصيل مقدار المعجل والمؤجل من المهر. ويؤدى هذا كنوع من الخدمة، ومع ذلك يقوم إمام الجامع أو الشيخ بالدعاء للتبرك به، كذلك يمكن عقد الزواج حتى فى حال عدم وجود الشيخ.

وإذا أراد أحد المسلمين أن يتصدق على روح موتاه، فإنه يتلو القرآن، ويتصدق على الفقراء،ويهدى ثواب هذا لروح الميت، ولا يحتاج إلى إمام أو شيخ لتوصيل هذا الثواب إليهم. كذلك إذا توفى شخص ما، فإن أمر تكفينه وإقامة صلاة الجنازة عليه، ثم دفنه، فرض كفاية على سائر المسلمين، وإذا لم يؤدوه، يقع وزره عليهم. لكن لما كان من المعتاد أن يقدم مبلغ من المال للإمام فى الجنازات، لذا ترك للأئمة أمر القيام بهذه المهمة، وإذا لم يكن هناك إمام يجب أن يقوم بها أحد الموجودين.

والحاصل، أن هؤلاء الملتحين مثل المؤذن والإمام، كل منهم له عمل ومهمة يؤديها، وليس لأى منهم صفة روحية يمتاز بها عن سائر الناس، والمدرسون الذين يحتلون أعلى درجات المناصب العلمية، والذين يتمتعون بالاحترام والتقدير بين الناس، هم فى مقام الأساتذة الأوربيين، ورفعة مكانتهم وحرمتهم يستمدونها من العلم وشرفه. ومع هذا فإنهم يتمتعون باحترام أكثر بين المسلمين وذلك لتبحرهم

فى الأحكام الدينية أكثر من بقية الناس، وإن القضاة والملالى[1] ينشأون أيضا على هذا المنوال. ولأن إحقاق الحق هو أعظم المهام فى الإسلام لذلك لابد أن يكون القائمون على تنفيذه متميزين عن سائر الهيئات الأخرى فى كل النواحى، ولذا فإن زى العلماء مميز عن ملابس بقية الهيئات الأخرى. بناء على ذلك يطلق على القضاة والملالى لقب الحكام العدول [القضاة]، وهم ليسوا كرؤساء القساوسة، ويطلق لقب كبير القضاة على من يعملون فى وظيفة قاضى العسكر، وهم من نراهم مساوون لكرادلة روما، وشيخ الإسلام هو الذى يتولى مهمة الإشراف على هؤلاء القضاة، وهو وكيل لجلالة السلطان، وهو أيضا لا يتمتع بصفة روحية.

والحاصل أنه لا رهبانية عند المسلمين. والخلافة النبوية التى تعنى إمامة جميع المسلمين، هى فى الحقيقة مهمة جليلة يضطلع بها جلالة السلطان بنفسه، ولا تتعداه إلى شيخ الإسلام أو القضاة والملالى. فكل منهم موظف. يتم عزله أو تعيينه بإرادة جلالة السلطان فحسب. ولا ترتبط بإجراء أى من المراسم الدينية المختلفة، فالأئمة الذين يقيمون صلاة العيد والجمعة ويقرأون الخطبة يطلق عليهم لقب الخطباء، وهم يضطلعون بهذه المهمة بتفويض من جلالة السلطان، فهو نوع من الوكالة، وكل وكالة تسمى وظيفة".

واستمع "ماركى موتيه" إلى شرحى وأبدى شكره، وقال: "لقد أقمت طويلا فى إستانبول ، ولم أستطيع أن أقف جيدا على هذه الأمور". فقلت له: "لقد أقمتم فى منطقة بك أوغلي، ولذا لم تستطع أن تقف جيدا على أحوال إستانبول، ولم أقل كل أحوال المسلمين، وذلك لأن بك أوغلى برزخ بين الدول الإسلامية وأوربا. وإنك ترى إستانبول من هناك بمنظار معظم، لكن النظارات المعظمة التى نظرت بها كانت كلها معوجة" .

كنت أتناقش وأتبادل الحوار مع "موتيه" كل يوم على هذا النحو ووصلنا إلى

(1) مُلّا: بضم الميم وتشديد اللام المفتوحة، العالم والفاضل والفقيه. وتطلق كلمة " ملا، منلا " على من يحصلون على رتبة " المولوية ".

مرفأ "بوغاز كوى" ثم أخذنا القطار إلى "كوستنجه" وركبنا باخرة بريد البحر الأسود، ووصلنا إلى إستانبول فى اليوم الثانى من جمادى الآخرة سنة ١٢٨١هـ الموافق الحادى والعشرينن من تشرين الأول، وبمجرد نزولى من الباخرة، اتجهت إلى الباب العالى، وقدمت إلى "فؤاد باشا" عرفاء جيش البوسنة. فنظر إلى هيئتهم، واندهش وشاهد تدريبهم المبدئى، وأبدى إعجابه بهم، ثم قدمتهم إلى جلالة السلطان فى أثناء مراسم صلاة يوم الجمعة، فأمر جلالة السلطان بإلحاق العرفاء بالأربع والعشرين عريفا المرافقين لجلالته.

وقد أمر جلالته بالإحسان على عبدكم بواحدة من البنادق التى وزعت على عساكر البوسنة، لتكون وسام فخار لعبدكم، محفور عليها العبارة التالية: "تذكار تقدير من الهيئة العسكرية إلى صاحب السماحة [١] "جودت أفندى"، وهو من الصدور قضاة العسكر[٢]، وذلك لما أبداه من همة بالغة فى تبليغ أهالى البوسنة الشجعان، شرف الانخراط فى سلك الخدمة العسكرية، فى الدولة العثمانية".

ترتيب الأوضاع فى البوسنة والهرسك

عند عودة عبدكم من البوسنة، جاء "فؤاد باشا" إلى المجلس الأعلى ليحضر المناقشات بنفسه وبناء على المعلومات التى قدمها عبدكم، تم توحيد منطقتى البوسنة والهرسك، وشُكلت منهما ولاية واحدة، وأُرسلت صورة من لائحة الولايات إلى البوسنة.

وفى السنة التالية تم تكوين لواء البوسنة الثانى فى مكانه، بعد إجراء القرعة الشرعية، ووضعت الترتيبات العسكرية فى البوسنة والهرسك موضع التنفيذ الكامل.

---

(1) اللقب الرسمى، الذى يطلق على من يحملون رتبة قاضى العسكر.

(2) الصدور العظام: لقب يطلق على قضاة العسكر فى الدولة العثمانية، وهو من أعلى الرتب العلمية، استعمل للمرة الأولى فى زمن السلطان " مراد الأول "، وهو ليس من الوظائف العسكرية .M. Z Pakalın, a. g. e.، C. II, sh. 229.

أما فى منطقة الجبل الأسود، فقد بُدِء فى تنظيم جنود الحراسة المحلية، التى أعدت على نسق عساكر الحراسة، فى منطقة " نقشيك " أولا، على النحو السابق. ولما كان الضباط المكلفين بتكوين فرقة عساكر الحراسة هذه، يجهلون القواعد الدقيقة الواجب مراعاتها فى مثل هذه الأمور، فقد عينوا خادم أحد زعماء "نقشيك" ضابطا. وسجلوا سيد هذا الخادم الضابط، جنديا تابعا له. وبسبب مثل هذه الأمور المغايرة لطبيعة الحال والأحوال، اتسم العمل بالفوضى ولم ينجح الضباط فى تنظيم هؤلاء الجنود المحليين.

وكنت أنا العاجز، آمل فى تعميم هذه الأصول فى "إشقودرة" بعد تنفيذها فى الهرسك "ويكى بازار". وكان اللاتين سكان الجبل والمسلمون فى "إشقودرة" متحابين وعلى وفاق، لأن قساوسة الجزويت لم يكونوا قد تدخلوا بينهم بعد. فكان اللاتين سكان الجبل يكونون مع المسلمين جيشا (واحدا) على نحو يقوى رابطة الوحدة بينهم. وكانت هذه القوة تتغلب دائما على أهل الجبل الأسود، وقد أثبتت أحداث "غوسينه" التى وقعت بعد معاهدة برلين صحة هذا. لكن ما الجدوى وقد حدث تهاون منذ البداية فى إجراء ترتيبات عسكرية فى "إشقودرة".

وعند الحديث عن تشكيل لواء الفرسان فى البوسنة، أُحيل التقرير المقدم إلى "فؤاد باشا" فى هذا الشأن إلى دار الشورى. وذهبت مرة أو مرتين إلى دار الشورى لمناقشته، ورأيت أنه ليس هناك بين أعضاء دار الشورى من يمكنه تفهم مثل هذه الأمور الدقيقة؛ فمنهم من يرفضه لهذا السبب، ومنهم من يرفضه لذاك. أما "حسين عونى باشا" قائمقام وزير الحربية، فكان لا يسمح بتواجد أحد من غير العسكريين عند مناقشة الأمور العسكرية.

بناء عليه لم أتمكن من الاستمرار فى التوجه إلى دار الشورى. وبسبب ظهور حرب قوزان فيما بعد على النحو الذى سنذكره آنفا، فقد أهمل ترتيب الفرسان فى البوسنة، بل وأصبح الأمر فى طى النسيان.

وعند عودة السفير الفرنسى "ماركى موتيه" إلى إستانبول على النحو السالف، توجه إلى الباب العالى، وأثناء لقائه "بفؤاد وعالى باشا" أبدى سرورا بالغا بحديثه مع عبدكم. وعندما قال "ماركى موتيه": "إننى لم أكن أعرف أن هناك رجلا متفتحا بهذا الشكل". قال "فؤاد باشا": "إن العلماء هم أساتذتنا الذين يتخرجون فى المدارس العالية". فأبدى "موتيه" أسفه لأنه لم يكن يعلم بوجود رجال على هذا النحو فى إستانبول . ثم نهض وانصرف وهو يقول: "ليتنى ألتقى ببعضهم". فقال "عالى باشا" "لفؤاد باشا": "أرأيت ما فعلت، ها هو ذا الرجل يريد أن أعرفه بالعلماء وقضاة العسكر. فأى معتوه منهم أقدمه له، أأقابله بالشيخ" زاده "مفتى جبل تكفور!!". والحقيقة حسبما ذكرنا من قبل، أنه بذهاب العلماء الأجلاء مثل " عارف حكمت بك "، "والمولى رشيد " لم يظهر من يملأ مكانهما، وندر من يمكن أن يقال عنهم علماء بالمعنى الحقيقى.

وأثناء وجود عبدكم فى البوسنة دار حديث فى البلاط السلطانى، حول تولية عبدكم منصب شيخ الإسلام، فقيل إننى مشغول الآن بالترتيبات العسكرية، أما "ماركى موتيه " فكان يثنى على عبدكم فى غير حضورى، وقد حضر لزيارة عبدكم فى منزله.

وعندما أثير هذا الأمر فى مجلس" فؤاد وعالى باشا " قال " كامل بك" تشريفاتى الخارجية المعروف: "إنكم تحلون بعض المشكلات السياسية بوضع السفراء والعلماء، وجهًا لوجه. أما لو أصبح " جودت أفندى " شيخا للإسلام، فيصبح للسفراء نفوذ فى دار الفتوى أيضا، فلتفكروا فى هذا الأمر جيدا. وكان " فؤاد باشا " رجلا واسع الصدر، لذا أخذ هذه الكلمات من قبيل الدعابة، أما " عالى باشا " فهو رجل واهم، ولذا أعطى هذه الكلمات اهتماما. ومع أننى ـ عبدكم ـ لم أعلم شيئًا عن هذا الأمر، إلا أننى كنت فى كل أمر أضع مصلحة الدولة ـ مهما كانت ـ نصب عينى، فأعرض رأيى وأوضحه وفقا لها. وذلك حسب المنهج الذى وضعته لنفسى والتزمت به.

تجنيد غير المسلمين

عند تجنيد العساكر المعاونة من كل أنحاء البلاد أثناء حرب القرم، طرح السؤال التالى: "ترى هل من الممكن تجنيد القوزانيين ومشاركتهم فى الحرب؟". وحينذاك جاء "بيزانى" رئيس المترجمين الإنكليز إلى "رشيد باشا"، وقال له: "لو قدمتم الضمانات الكافية، يمكن أن نرسل القوزانيين إلى الحرب".

فأبدى "رشيد باشا" خوفه قائلا: "إذا استمر هذا الوضع فى "قوزان" لفترة أخرى، فمن شأنه أن يؤدى إلى التدخل الأجنبى فيها، وبالتالى يكون "لقوزان" حكومة ذات وضع خاص. والواقع أن سيطرة الدولة [العثمانية] على قوزان غير سارية إلى الآن، إلا أنها أيضا ليست ذات حكومة معترف بها من الدول الأجنبية، أما إذا تركناها عرضة للتدخل الأجنبى فسيصبح هذا وبالا علينا، لذا ينبغى علينا ـ ليس الآن، ولكن مستقبلا ـ أن نقر سلطتنا على "قوزان". وكلما نوقشت مسألة تجنيد التبعة غير المسلمين بعد حرب القرم، لم يمكن الانتهاء فيها إلى رأى. وقد وضع هذا الأمر موضع الدراسة مرة أخرى بعد تناقص عدد من هم فى سن التجنيد، وضيق النطاق الذى تجرى فيه القرعة العسكرية. ووضعت مسألة تجنيد غير المسلمين موضع الدراسة، أمام لجنة برئاسة "فؤاد باشا" وباشتراك خواص الوزراء.

وقد سُئلت ـ عبدكم ـ عن رأيى فى هذا الموضوع، حيث إننى كنت أحد أعضاء هذه اللجنة، فأجبت بقولى: " إذا تم تجنيد التبعة غير المسلمين مع الجنود المسلمين جنبا إلى جنب فى كتيبة واحدة، فلابد من وجود قسيس مع هؤلاء، شأنه فى هذا شأن الشيخ الإمام (مع الجنود المسلمين)، ولو أنه كان قسيسا من طائفة واحدة، لهان الأمر، لكن هناك مِلل متعددة من التبعة غير المسلمين، فهناك الأرثوذكس، والكاثوليك، والأرمن، واليعقوبيون، والبروتستانت، وكل واحد منهم مختلف عن الآخر، وبالإضافة إلى هذا، نجد أن الكاثوليك ينقسمون إلى طوائف مختلفة هم اللاتين والأرمن الكاثوليك، والملكانية وهم الروم الكاثوليك، والمارون، والسريان، والكلدان، وكل من الملكانية والمارون خصم للآخر منذ زمن.

وإذا تكلمنا عن البلغار، نجد أنهم يبغضون الأروام، رغم أنهم يتفقون معهم فى المذهب الأرثوذكسى، وعلى هذا فكل فريق من هذه الطوائف يريد قسيسا خاصا به، واليهود بدورهم يريدون حاخاما. لذا يلزم الكنيسة ذات الطوائف المختلفة حشدا من رجال الدين. وفى الأيام الدينية نجد أن للمسلمين شهر رمضان، ويقابل هذا عند النصارى أياما دينية خاصة بهم، فكيف يمكن إدارة حشد بهذا التباين. وعندما يجد القائد العام نفسه فى حرج، فإنه يلجأ إلى البلاغة العسكرية لإثارة حمية الجنود، وتشجيعهم على الصبر والثبات وحثهم على التضحية، وإن أكثر الكلمات تأثيرا فى المسلمين هى الفتح والشهادة، وكلمة " هيا أيها الشباب، تقدموا لنصرة الدين المبين". كما أن أمهات المسلمين يلقن أبناءهن فى المهد كلمات الفتح والشهادة، ثم فى طفولتهم، ويشرحن لهم سمو درجتى الغزو والشهادة (فى سبيل الله). وهذا الحث الدينى يدفع بالأبناء إلى طريق الفداء والتضحية، ومثل هذه الأفكار الدينية هى السبب فى شدة بأس جنود المسلمين فى المعارك، وفى شدة تحملهم وصبرهم ـ دون سائر الأمم ـ متاعب الطريق، أثناء التحركات العسكرية، لكن لو أراد مقدم الكتيبة التى تضم جنودًا من المسلمين وغير المسلمين، أن يثير حماستهم وقت الضرورة، فماذا يمكن أن يقول لهم. فى الواقع إن الغيرة الوطنية قائمة فى أوربا مقام الغيرة الدينية، لكن هذا لم يظهر إلا بعد انقضاء عصور الإقطاع، وبعد أن ظلوا لسنوات طوال يلقنون كلمات الوطنية هذه لأطفالهم منذ نعومة أظافرهم. وبعد ذلك أصبحت كلمة "فى سبيل الوطن"، لها تأثيرها ومفعولها لدى الجنود، لكن إذا طرحت كلمة الوطن عندنا [فى الدولة العثمانية]، فلن يخطر على بال الجنود غير قراهم، وإذا فرض واستعملنا منذ الآن كلمة الوطن، حتى لو استطعنا أن نعطيها بمرور الوقت نفس الدرجة من القوة التى فى أوربا لتحتل مكانتها فى أفكار الناس عندنا، فمن المستحيل أن تحقق هذه الكلمة نفس قوة الحماسة الدينية. بل لا يمكن أن تحتل مكانتها كما أن حدوث هذا يحتاج إلى وقت طويل. وتظل جيوشنا فاقدة لمعنوياتها حتى ذلك الحين.
[وهنا أطرح سؤالا] أيمكن لجندى يحمل اسم "حسن" أن يستجيب لنقيب يحمل اسم "خريستو "، يأمره فى أوقات الحرب العصيبة أن يلقى بنفسه إلى الموت ؟. وإذا

كان الإنكليز فى الهند قد رقوا جنودا من غير النصارى إلى رتبة العريف، إلا أنهم مع ذلك منعوهم من الترقى لدرجات أعلى، ولم يكن لأحد أن يتدخل أو يعترض عليها. أما نحن فإذا ما شرعنا فى تجنيد النصارى، فلابد أن نمنحهم الرتب التى يستحقونها قانونا، مثلهم فى هذا مثل المسلمين، وإذا لم نفعل هذا، فستقوم الدول المتحالفة بتقديم نصائح الصداقة بعرض حمايتها على غير المسلمين، وهكذا يصبح نظامنا العسكرى البعيد عن تدخل الأجانب عرضة للتدخل الأجنبى. هذا بالإضافة إلى أن جنود المسلمين أقدر على تحمل مشقة التحركات العسكرية. وهم فى وقت القتال لا يريدون شيئًا سوى الذخيرة والخبز الجاف. أما النصارى، فلا يمكنهم تحمل هذا القدر من المشقة، كما أنه ينبغى أن تدفع لهم مرتباتهم أول كل شهر، وأن يوفر لهم طعامهم وشرابهم، وكل ما يلزمهم، وإلا أصبحنا عرضة وهدفا لاعتراض الأجانب. وكل هذا يتوقف على دراسة متأنية وموسعة، ومناقشة أهل الخبرة. وأهل الخبرة الذين أعنيهم هم أمراء الجيش الذين تمرسوا بالقيادة وخاضوا الحروب، وليسوا أبدا أصحاب الرتب العسكرية العالية.

وبناء على هذا أجابوا بقولهم: "حسنا! لكن المناطق التى تجرى بها القرعة العسكرية الآن، قد أصبحت محدودة جدا. ولو استمر الأمر هكذا، فسوف نقضى على أنفسنا بأيدينا".

فقلت: "نعم، فالدولة الآن فى حكم العاجز الذى تقع أعباؤه على عاتق تبعته المخلصين. وإذا استمر الحال على هذا المنوال، فإنه بمرور الوقت سيدب الضعف إلى الأتراك الذين هم عنصرنا الأصيل، ولو نظمت المناطق الكثيرة المعفاة من التجنيد [فى الدولة العثمانية] فسوف يتسع نطاق القرعة العسكرية، ويرتاح الأتراك بدرجة أكبر. وها هى ذا البوسنة على سبيل المثال، فقد بلغ عدد جنودها العاملين والاحتياطيين خلال عشر سنوات، خمسين ألفا. ولعل ما فكر فيه "رشيد باشا" بخصوص "قوزان"، لم يغب بعد عن الأذهان. وجبل البركة[1] يموج

(1) جبل البركة يقع فى الشمال الشرقى بولاية أطنه، ويوجد داخل لواء يحمل نفس الاسم. وهو سلسلة جبلية تفصل بين جبال طرسوس، ووادى نهر جيهان.

بالعصيان منذ زمن بعيد، وقد ازدادت أهميته الآن، كما سرى التمرد إلى جبل الأكراد[1]. وطال العصيان "آقچه طاغ"[2] بدوره. أما "درسيم"[3] فهى موئل الأشقياء، حيث يفر إليها المجرمون من المناطق المجاورة لها، وبذا يفرون من قبضة القانون. وبسبب هذه الجبال، فإن كثيرا من العشائر يعيثون فسادا، وإذا أمكن تنظيم تلك المناطق والسيطرة عليها، سيرفع العبء عن كاهل الأهالى الموالين للدولة، وحتى ذلك الحين، يجب التفكير بتؤدة وتعمق فى أمر تجنيد غير المسلمين، والبحث عن حل له.

تكوين الفرقة الإصلاحية

وأثناء هذه المباحثات، طُرح للمناقشة موضوع إجراء القرعة العسكرية فى إستانبول ، دون تفريق بين المسلمين وغير المسلمين، على أن يعمل المجندون منهم فى فرق الموسيقى والشئون الفنية، وأن يعمل المجندون من الأناضول والروم ايلى فى المدفعية والرماية و لكن ظهر أنه من المناسب أن أسافر عبدكم بوصفى مندوبا فوق العادة فى مهمة خاصة، وأن تنظم فرقة عسكرية كاملة منظمة لإصلاح منطقة الأناضول، بدءا من " قوزان ".

بناء على هذا قلت: " فى حالة التحرك بفرقة عسكرية كاملة، سوف أستعيد بإذن الله منطقة " قوزان "، وأعمل على إخضاع متمردى جبل البركة وجبل الأكراد. لكن هناك ناحية " زيتون " الصغيرة[4] المجاورة "لقوزان"، والتابعة "لمرعش"، وهى فى حالة عصيان منذ عدة سنوات، لأن أهلها من الأرمن على علاقة بإمبراطور فرنسا، وإن تأديب المسلمين وترك هؤلاء على حالهم أمر قبيح وضار جدا. وعبدكم

---

(1)جبل الأكراد، يقع فى موازاة الجانب الشرقى لجبل البركة.

(2) مركز قضاء فى " سنجاق ملاطيه "، أكثر أهله من الأكراد.

(3) درسيم وتكتب أيضا " درسم "، منطقة جبلية تقع فى وادى نهر الفرات، غرب الأناضول، وهى سنجاق تابع لولاية " معمورة العزيز ".

(4) مركز قضاء فى " سنجاق مرعش "، بولاية حلب، تقع على جبال " زيتون ". وتبعد عن "مرعش " مسافة ٤٩ كيلو متر، وتتميز ناحية " زيتون " بطبيعتها الجبلية الوعرة، شديدة الانحدار.

على استعداد للذهاب إلى هناك، بشرط أن ينفذ فى منطقة "زيتون" ما سينفذ فى "قوزان".

وبناء على هذا صمت "عالى باشا"، ولم ينطق أحد من الموجودين بكلمة واحدة. ثم انفض المجلس، وبعد يومين استدعى "عالى باشا" عبدكم وقال لى: "استعد للسفر [إلى قوزان]، وليطبق على أهالى منطقة "زيتون" ما سيسرى على أهل "قوزان" أيا ما كان الأمر". فأجبته: "سمعا وطاعة". وبدأنا ـ عبدكم ـ "ودرويش باشا" فى الاستعداد للسفر.

كما صدر أمر بتكوين فرقة باسم الفرقة الإصلاحية، على أن يتولى رئاستها "درويش باشا" السابق ذكره، مشير الجيش السلطانى الرابع. وعبدكم بوصفه مندوبًا فوق العادة، واخترق "درويش باشا" منطقة الجبل الأسود مرورا من بوغاز "استروق". واختار سبع كتائب نظامية من خيرة العساكر السلطانية، التى عبرت إلى "إشقودرة" مظفرة. وكان أغلب جنودها من جنود فرقة "الزيبك"[1] الشجاعة، وبعضهم من خيرة الجنود الألبان، وكلهم مسلحون ببنادق حديثة ذات ست طلقات. ومعروف أن الألبان يتسمون بالسرعة والنشاط والشجاعة والإقدام، وقادرين على ارتياد الجبال والأماكن المرتفعة الوعرة. أما الجنود الزيبك، فهم جنس طيب من الأتراك، لا يخشون المهالك والمخاطر، شجعان متفائلون، لا يشعرون بالضيق أو التعب، وكأنهم قد خلقوا للجندية.

وكان ضمن مقدمى الكتيبة اثنان من القواد الأفذاذ، أحدهما "أحمد أفندى "، وهو ذكى شجاع، تخرج فى المدرسة الحربية (هو "أحمد فيضى باشا" والى اليمن). والثانى "محمد أغا طاتلى أوغلى" مقدم كتيبة القناصة المعممين، وهو متخرج من بين الجنود المقاتلة ويتميز باستعداد فطرى وشجاعة غير عادية، (هو "محمد باشا طاتلى أوغلى" الذى استشهد فى الحرب الروسية الأخيرة)[2]، وقد بلغ رتبة فريق، وأظهر

(1) طائفة من جنود الحراسة المزودين بأسلحة خفيفة.

(2) يقصد الحرب الروسية العثمانية، التى وقعت سنة ١٨٧٧ : ١٨٧٨م.

فى الحرب شجاعة وثباتا وكفاءة غير عادية. كذلك "رديف أفندى" أحد مقدمى الكتيبة (هو "رديف باشا" المعروف، ووزير الحربية مؤخرا، وكان حينذاك تابعا لوزير الحربية "حسين عونى باشا"، لذا كان (حسين عونى) يوليه اهتماما أكثر من سائر الضباط). ومن بين أمراء الألوية ظهر من يدعى "إبراهيم بك" وكان شجاعا جسورا بصورة خارقة للعادة، وقد استشهد فى "كريد" وهو يحمل رتبة أمير اللواء.

وانضم للفرقة أيضا لواء فرسان جيش الخاصة الثانى. وكان "كديك على بك" قائمقام هذا اللواء. وهو إنسان جسور، من خيرة ضباط الفرسان، وفارس ماهر. وأصبح أمير لواء فى الفرقة الإصلاحية. وهو الفريق المشهور "كديك على باشا" الذى أبلى بلاء حسنا فى الحرب الروسية الأخيرة.

وكان أركان الحرب الذين برفقتنا كلهم من خيرة ضباط أركان الحرب، وعلى رأسهم "حسين بك" صهر "رشدى باشا" أحد حاملى رتبة قائمقام أركان الحرب. وهو إنسان ذكى شجاع، وقد أصبح أمير لواء فى الفرقة الإصلاحية.

وكان ضمن ضباط أركان الحرب الذين برفقته، اثنان من الضباط الأكفاء، أحدهما المقدم " أحمد مختار أفندى "[1]، قائمقام الفرقة الإصلاحية، وسرعان ما ارتقى إلى رتبة المشير مؤخرا، وهو أيضا "غازى أحمد مختار باشا " الموجود فى مصر. والآخر هو رئيس الفرقة "حسين حسنى أفندى " وهو نسيج وحده. كان فى معيتى ـ عبدكم ـ فى البوسنة مدة عام ونصف، اكتسب خلالها مهارة وملكة فى الأمور الإدارية والسياسية. ولأنه من ضباط أركان الحرب، فقد مُنح رتبة رئيس المرافقين، وأُلحق بمعيتى عبدكم. ولم ينقض وقت طويل، ونال هو أيضا رتبة مقدم.

---

(1) أحمد مختار أفندى، الغازى أحمد مختار باشا (١٨٣٩: ١٩١٢م): رجل دولة وجيش مشهور، وأطلق عليه لقب " غازى " لمهارته العسكرية، أرسله السلطان " عبد الحميد الثانى " إلى مصر سنة ١٨٨٥ م، كمندوب فوق العادة، لبحث المسألة المصرية، التى نجمت عن دخول الإنكليز مصر سنة ١٨٨٢ م، كما شغل منصب الصدر الأعظم سنة ١٩١٢م، وتوفى فى العام نفسه.

Rafat Uçarol، Gazi Ahmet Muhtar Paşa، Istanbul، 1976، sh. 400.

وقد قدم هذه المرة أيضا الكثير من الخدمات الطيبة (للفرقة الإصلاحية) ورفعت رتبته، لكن احتسب هو أيضًا فى عداد الشهداء والمفقودين فى "كريد" مثل "إبراهيم بك".

وقد أعدت للفرقة الإصلاحية كتيبة من كريت، وكتيبة من حلب ومرعش وأطنة. وعلى هذا النحو تكونت الفرقة الإصلاحية من إحدى عشرة كتيبة مشاة ولواء من الفرسان. وقد تحرك أمير اللواء " قورت إسماعيل باشا " (هو " قورت إسماعيل باشا " المشهور والياور الأكرم) من سيواس، واتجه ناحية قوزان الشرقية ومعه لواء من الفرسان وأربع كتائب من المشاة، ليلحق بالفرقة الإصلاحية، وبهذا تصبح الفرقة الإصلاحية مكونة من خمس عشرة كتيبة من المشاة ولواءين من الفرسان.

وكان أمير اللواء "حسين باشا" ينتظر وصول الفرقة الإصلاحية فى "پياس"[(1)]. وكان الفريق " سيد باشا " قائد موقع حلب، سيلحق بالفرقة أيضا ومعه أمير اللواء " حسنى باشا "، وهو من أمراء الجيش السلطانى الخامس، وأمير اللواء "ياور باشا" (هو المشير ووزير الحربية مؤخرا).

وكان أمير الأمراء "أرسلان باشا" ـ وهو من أمراء "الكرج"[(2)] ـ يتجه إلى مرعش للانضمام إلى الفرقة الإصلاحية، ومعه حوالى مائتين من فرسان الكرج والشراكسة، "ومحمد بك الشكردلى" المشهور، وهو من أمراء الأكراد، ومعه حوالى ثلاثمائة من فرسان الأكراد، وذلك للانضمام إلى الفرقة الإصلاحية (هو "محمد باشا الشكردلى" عضو مجلس شورى الدولة، والذى أصبح أمير الأمراء بعد ذلك)، وقد نال "قورت إسماعيل باشا" رتبة اللواء أثناء حرب القرم. وقد أظهر شجاعة وكفاءة فى المعارك الروسية، التى وقعت على حدود الأناضول.

وأيضا "أرسلان باشا"، فقد ضرب قافلة روسية فى مكان ما ذات صباح، وعند

---

(1) قصبة على شاطئ خليج الإسكندرونة، تتبع ولاية أطنة.
(2) هم سكان منطقة كَرجستان فى القوقاز.

المساء وعلى مسافة حوالى عشر ساعات من هذا الموقع، ضرب قافلة أخرى. وأطلق "محمد بك الشكردلى" رماحه على رجال المدفعية الروسية عندما أطلقوا عليه نيرانهم.

والحاصل، أن هؤلاء الثلاثة "قورت بك"، "وأرسلان بك"، "وكردى بك" نالوا شهرة ومجدا فى الحروب الروسية. واستفادت الفرقة الإصلاحية من كل منهم فائدة كبيرة، وجرى تزويد الفرقة الإصلاحية بخمس وحدات من مدافع الجبل ذات الطلقات الست، التى هجم بها "إبراهيم باشا المصرى"[(١)] على جبل البركة، وعلى جبل قوزان[(٢)]، واتضح أنها أكثر فائدة فى الجبال من كثير من أطقم المدافع.

وقد خُصص للفرقة الإصلاحية محاسب من وزارة المالية، ومعه وحدة حسابات تساعده، كما عُين ضمن معيتى ـ أنا العاجز ـ مجموعة متنوعة من كتيبة المراسلات، وخُصص لكل منهم راتب استثنائى، وأمر بتخصيص مبلغ عشرة آلاف قرش شهريا بصفة استثنائية "لدرويش باشا"، بالإضافة إلى مرتب ومخصصات رتبة المشير، كما أمر بتخصيص مرتب يبلغ ثلاثين ألف قرش شهريا، بالإضافة إلى المعاش والمهمة التى أتقاضاها عبدكم فى إستانبول .

وقد مُنح عبدكم و"درويش باشا" صلاحيات واسعة، وأختص عبدكم بالأمور الإدارية، واختص هو بأمر تعبئة الجند، أما مسألة إصدار الأوامر للجند بشأن تحركاتهم العسكرية، فقد كانت مسئولية مشتركة بيننا.

و بناء على الأمر الذى صدر من مقر قيادة الجيش كان لعبدكم الإشراف المعنوى على أركان الحرب، وكانت الأغلبية ترجع إلى عبدكم فى شئونها.

---

(1) " إبراهيم باشا " ابن " محمد على باشا " والى مصر، كانت فترة حكمه قصيرة للغاية، فقد تولى سنة ١٨٤٨، وتوفى فى العام نفسه. قاد كثيرا من الجيوش فى فترة حكم والده. وتخطى حدود الشام إلى آسيا الصغرى، واستطاع أن يهزم جيش الدولة العثمانية فى موقعة "قونية" سنة ١٨٣٢م.
M. L.، C. VI، sh. 176/3.

(2) جبال منطقة " قوزان " تقع شمال ولاية " أطنه ". تحدها ولاية أنقرة شمالاً، وقونية وسيواس شرقًا، وحلب جنوبًا، وجبال البركة غربًا. كان نصف سكانها فى ذلك الوقت من المسلمين، والنصف الآخر من الأرمن. وأهلها من العشائر المهاجرة بسبب طبيعة المنطقة الجبلية. وسمجاق قوزان يضم أربعة أقضية هى " سيس "، " وقارش "، " وخاچين "، " وفكه ".

وكانت التفويضات الموكولة إلينا واسعة النطاق. وبوسعنا التجاوز عن بقايا الضرائب والإعفاء من التجنيد. ويمكننا تخصيص راتب شهرى قدره بضعة آلاف من القروش مدى الحياة، ومرتب بدل أملاك.

وتم ترتيب الفرقة الإصلاحية على هذا النحو. وقبل الموعد المقرر لسفرنا إلى قوزان بحوالى ثلاثة أو أربعة أيام، صدر أمر بذهابنا إلى قوزان، بعد الانتهاء من تأديب جبل البركة أولا. وقبل ذكر سبب هذا التغيير، يبدو من اللازم التعرض إجمالا لبعض الأحوال التاريخية والجغرافية لتلك المناطق.

أحوال مناطق شرق الأناضول

سنجاق "قوزان"، عبارة عن منطقة شاسعة وعرة الجبال. تحدها ولاية "سيواس" شمالا، وولاية "أطنه" جنوبا، وسنجق "مرعش" شرقا، وسنجقا "قيصرية "[١] "ونيكده"[٢] غربا.

وأكثر الأهـالى فيها جـماعات متفرعة من عشيرة "فرسخ" (وارساق)، وهى من فلول الأتراك السلاجقة. وسكان هذه الـجبال كانوا بمنزلة العساكر المشاة لأبناء قوزان، والعشائر المهاجرة المستقرة فى الجهة اليمنى لنهر "جهان"[٣] فى "چقورْاوه"[٤] بمنزلة الفرسان لهم.

وذلك لأن هذه العشائر تقضى فصل الشتاء فى "چقورْاوه"، وتنتقل فى الصيف إلى الهضاب الموجودة داخل الأناضول، ولأنهم مضطرون إلى المرور من "قوزان" فى الذهاب والإياب، كانت هذه العشائر تحتاج إلى إذن من أبناء "قوزان"، ومنهم عشيرة (وارساق).

---

(1) قيصرية: كانت " قيصرية " فى ذلك الوقت مركز سنجاق فى ولاية أنقرة، وكانت أحد المراكز التجارية المشهورة فى الأناضول.

(2) يقع " سنجاق نيكده " فى أقصى الشمال الشرقى لولاية "قونية"، وكان أغلب أهله من المسلمين.

(3) نهر يخترق منطقة " سيواس "، بولاية أطنه، ويصب فى البحر الأبيض المتوسط.

(4) واد متسع فى سنجاق أطنه، بولاية أطنه، يمتد من ساحل البحر الأبيض حتى داخل " سنجاق قوزان " بطول مائة كيلو متر، وعرض يتراوح بين خمسين وعشرين كيلو متر. ويخترقه الخط الحديدى الواصل من مرسين إلى أطنه.

وقد أضيف إلى سنجق "قوزان" جزء كبير من منطقة "چقوراوه" الواقعة بين "قوزان" "وأطنة"، على أن يكون مشتى لهذه العشائر. وهى عشائر "اشار"، "وصير قينيتلى"، وهما عشيرتان كبيرتان من التركمان. وثلاث عشائر صغيرة من الأكراد هى عشائر "قى نيتيلى"، "ولك"، "وحاجيلر". ومع أن عادة السرقة شائعة عند كل العشائر، فإن عشائر التركمان كانت أخف وطأة من هؤلاء الأكراد.

وكان القوزانيون يبدون وكأنهم حكومة مطلقة مسيطرة متمردة، والأقضية المجاورة لها على غرارها وفى حالة أقرب للعصيان، وكان قضاء "قره عيسالى" ـ وهو قضاء كبير ـ فى أيدى أبناء "مَنْمَنْجى". ويحكمونه وكأنهم حكومة تشبه الحكومات الإقطاعية القديمة. أما أهل ناحية "قارصاناتى"[١] الواقعة جنوب جبال " قره عيسالى" على ضفة نهر "زامانتى"[٢] ففى حال أشبه بالعصيان.

وقضاء "قارص ذو القدرية"[٣]، الواقع شرق " قوزان "، والملحق بسنجق "مرعش" لم يكن تحت أيدينا تماما، وحكم أبناء "كوكولى" منطقة "سونباس"[٤]، وهى على الحدود بين هذا القضاء، و"قوزان الشرقية"، ومع أنهم كانوا يمتنعون عن دفع الضرائب لأبناء "قوزان"، فإنهم لم يخضعوا لمديرى "قارص ذو القدرية"، اعتمادا منهم على تدعيم "قوزان" لهم.

والحاصل أن كل النواحى المجاورة "لقوزان" كانت فى حالة أشبه بالعصيان، ولما كانت هذه الحالة توافق هوى أبناء "قوزان"، فقد أطلق هؤلاء حرية التمرد لأهالى هذه الأماكن.

وقد قوى نفوذ "جبار زاده" فى القطاع الأوسط من الأناضول. ولما أقام ارتباطا بقطاع "أَطَنَة"، رأى أن أبناء "قوزان" يعوقون اتصاله "بأَطَنَة"، فأرسل عددا كبيرا

---

(1) ناحية تقع على الضفة اليمنى لنهر سيحان.
(2) نهر صغير يتفرع من نهر " سيحان ".
(3) قضاء يقع فى سنجاق قوزان، بولاية أطنة. تحده "خاچين" من الشمال، "وفكة" من الغرب، "وسنجاق جبل البركة" جنوبا، وولاية حلب شرقا. وكان أغلب سكانه فى ذلك الوقت من المسلمين
(4) وتكتب أيضا " صة نباس "، منطقة تقع على حدود " قوزان "، وتتبع " قارص ذو القدرية".

من الجند للقضاء عليهم، فسيطر جنوده على منطقة الروم "بقوزان"، وعبروا مضيق جبل "قوزان"، وأثناء هبوطهم إلى " قره بيلان"[1]، وهى مشتى أبناء "قوزان"، اعترضهم "يوسف أغا الكبير القوزانى"، وشتت جنود "جبار زاده" وهزمهم، فازدادت شهرته ومكانته " عن ذى قبل.

كان "يوسف أغا " قد أعطى أثناء حياته، قطعة صغيرة شرق "قوزان" لابنه الثانى "سمور أغا"، وبعد وفاته، عندما أصبح ابنه "على بك" زعيما "لقوزان"، حسب وصية " يوسف أغا "، احتفظ" سمور أغا" بزعامته "لقوزان الشرقية ".

وهكذا انقسم سنجق "قوزان" على قسمين؛ "قوزان الغربية" وهو القسم الأكبر، "وقوزان الشرقية". وقد ازدادت قوة زعيم "قوزان الغربية"، نتيجة ولاء عشائر "چُقُورْاوه" له.

كانت "قوزان" بقسميها عبارة عن قرى وقصبات. أما "قوزان الشرقية"، فكانت تضم "خاچين"، وكانت "قوزان الغربية" تضم قصبة "سيس"، وتحتوى قصبة "خاچين" على أكثر من ألفى منزل. وكان عمل مفتى "قوزان الشرقية" يتعلق بعدد محدود من المسلمين، لأن أكثر أهل "قوزان الشرقية" من الأرمن. وكان زعيم "قوزان الشرقية" يقيم فى قرية تسمى "كورلشن" على مسافة ساعتين من "خاچين".

أما قصبة "سيس"، ففيها حوالى ستمائة دار للمسلمين والأرمن، لكنها تتمتع بموقع مهم. وهى مشتى مفتى "قوزان الغربية" وأعيانها، أما مصائفهم ففى الهضاب. وكان زعيم "قوزان الغربية" يقضى فصل الشتاء فى "بيلانكوى"، على مسافة ثمان عشرة ساعة من "سيس"، و يتردد أحيانا على قصره فى "سيس". وكانت كنائس وأديرة الأرمن المشهورة، ومقر زعامتهم الروحية، تقع خارج قصبة

(1) بيلان Beylan: قصبة صغيرة، وهى مركز قضاء سنجاق حلب، بولاية حلب. تقع عند نهاية الطريق الموصل من الإسكندرونة إلى حلب، وتقع بين جبلين. تبعد عن حلب مسافة مائة وخمس وأربعين ك. م، وعن الإسكندرية مسافة خمس كيلومترات، ويسكنه العرب والأتراك.

"سيس"، وكان البابا يقيم هناك فى فصل الشتاء، وفى فصل الصيف يذهب مع الجميع إلى الهضبة.

وكان "لعلى بك" زعيم "قوزان الغربية" ابن شقى يدعى "چادرجى محمد بك" قتل والده وخَلَفه فى زعامة "قوزان الغربية". وفى تلك الأثناء وصل "إبراهيم باشا المصرى" إلى "أطنة" وسيطر عليها، وأرسل فرقة عسكرية للسيطرة على جبال "قوزان"، فاستسلم له "سمور أغا"، زعيم "قوزان الشرقية". وعندما دخلت العساكر المصرية "قوزان الشرقية" لتواصل سيرها إلى قرية "فكه" التابعة "لقوزان الغربية"، وهى بمثابة المفتاح لمنطقتى "قوزان"، هاجم "چادرجى محمد أغا" العساكر المصرية بغتة، وهزمهم هزيمة منكرة. ومع أن انتصار "چاردجى" فى ذلك الوقت نال تقدير واستحسان الدولة، إلا أنه بعد انسحاب المصريين من تلك المناطق، طغى "چادرجى" وبغى. ويروى أنه عندما كانت تُبَلَّغ إليه بعض الإرادات السنية، كان يجيب بوقاحة: "لقد سيطر ابن عمى على مناطق كثيرة، ولا تتصوروا أن حكم هذا الجزء من " قوزان" عزيز على".

وعندما توفى "چادرجى" أصبح أخوه "عمر بك" زعيما "لقوزان الغربية"، وبعد أن حكمها مدة ثمان سنوات، نهج ابنه "أحمد بك" (أحمد باشا الذى حددت إقامته الآن فى طرابلس الغرب) نهج "چادرجى"، وأعلن العصيان على والده، واستولى على الزعامة عنوة. ولما كان أبوه "عمر أغا" رجلا مسالما، وديعا، فقد حظى باحترام أهل "قوزان". وكان سادة أبناء "قوزان" يحملون دوما لقب أمير. أما رؤساءهم، فكان يطلق عليهم لقب زعيم. ولذا كانوا يطلقون على "أحمد أغا" لقب "سيدنا الزعيم"، وعلى أبيه لقب "الزعيم الكبير".

وعندما توفى "سمور أغا"، زعيم "قوزان الشرقية"، تولى مكانه ابنه "محمد بك"، فلما توفى بعد ذلك بثمانية أشهر، أصبح أخوه "يوسف أغا" زعيما "لقوزان الشرقية". ومع أن أخاه "حاجى بك" تولى زعامة "قوزان الشرقية " لفترة. إلا أن "يوسف أغا" كان رجلا ماكرا، فانتصر عليه، وانتزع منه زعامة "قوزان الشرقية"، وخصص لأخيه " حاجى بك " منطقة " خاچين " ليعيش بها.

وعندما وصلنا بالفرقة الإصلاحية إلى "قوزان" كان "أحمد أغا" المشار إليه زعيما "لقوزان الغربية"، و"يوسف اغا" زعيما "لقوزان الشرقية"، وحينذاك كان يطلق فى الأوراق الرسمية على المتصرف لقب قائمقام، وعلى زعيم "قوزان الشرقية" لقب مدير، مع أن كليهما لا يمتثل للأوامر السلطانية، ويستقل بحكم منطقته مستبدا بها.

وعندما دخلت الفرقة العسكرية التى أرسلها "محمد باشا القبرصي"[(١)] بقيادة "چتال باش مصطفى باشا"، قضاء "قارص ذو القدرية"، واقتربت من "قوزان"، هجم عليها أهلها وشتتوها، ثم اتخذت الدولة موقفا تجاه "قوزان"، حتى إن يوسف أغا غضب على "أحمد أغا" ابن "كَنج أوغلان"[(٢)] وهجم عليه لأنه أحسن معاملة فرقة "چتال باش مصطفى باشا". غير أن حرب"أحمد أغا" مع "يوسف أغا" استمرت لأكثر من عام بسبب شجاعته فضلا عن وعورة منطقته، ولأنه لم يتلق مساعدة من أى جانب، لذا اضطر إلى الاستسلام "ليوسف أغا" رغما عنه، وأُجبر على المصالحة معه، ودفع [مبلغًا من المال] ترضية له.

وتقع قصبة "سيس" على مسافة ثمان عشرة ساعة من "أطنه" فى سفح جبال "قوزان"، فى أحد أطراف "چُقُورْاوه". ونصف هذه المسافة تابع "لأطنه". وهى منطقة تجوال عشائر "قوزان". ولهذا فإن التوغل فى "أطنه" لمسافة ساعة أو اثنتين يعتبر أمرًا غير مأمون العواقب، وعندما كان كبير "آل قوزان" يضيق بأحد، كان يحرض عليه أحد العشائر الموالية له. لذلك لم يكن أحد يجرؤ على التفوه علنا بكلمة ضد كبير "آل قوزان"، حتى فى مجلس "أطنه" الكبير.

تحركات الأرمن

كانت ناحية "زيتون" الملحقة بقضاء "مرعش"، فى حالة تمرد وعصيان، وبسبب بعض مظاهر العصيان التى قام بها أرمن منطقة "زيتون"، جمع "عزيز باشا" ابن

---

(1) كان فى ذلك الوقت يحمل رتبة مشير الجيش ببلاد العرب(جودت).

(2) هو واحد من أعيان " يغاباصان " التابعة لناحية" سونباس "بقضاء" قارص ذو القدرية (جودت)

المرحوم "عزت باشا" وقائمقام سنجق "مرعش"، حوالى خمسة وأربعين ألفا من مهاجرى الجراكسة والعشائر المحلية لتأديب الأرمن. وبدلا من أن يعمل على تسوية الموقف بصورة طيبة، تهور ودفع بهؤلاء إلى منطقة "زيتون". فهاجمهم أهل "زيتون" هجوما عنيفا، تقهقرت على أثره فرسان العشائر. ولقى الكثير من أفراد العشائر المحلية حتفهم. ورجع المهاجرون بعد أن أصيبوا بخسائر فادحة نتيجة جهلهم بتلك المنطقة، لذا طغى أهل "زيتون" وأعلنوا العصيان، وبعد ذلك انقطع الاتصال بين "مرعش"، "وزيتون".

أما المخربون الأرمن فى إستانبول ، فقد أخذوا صور مختارى مناطق "زيتون" الأربع، وقدموها إلى إمبراطور فرنسا. وعندما توجه "جميل باشا" سفيرنا فى باريس إلى مقر وزارة الخارجية الفرنسية، وعرض عليه وزير الخارجية تلك الصور بوصفها صور أمراء من الأرمن، أخبره "جميل باشا" أنهم مجموعة من الرعاة. وعندئذ تأكدت فكرة أن فرنسا تعمل على حماية الأرمن بشكل غير رسمى.

وكان ما يرمى إليه أرمن إستانبول هو تكوين إمارة أرمنية فى "زيتون" رغم أن أحوال تلك المنطقة وموقعها لا يسمحان بهذا. لأن قرية "زيتون" تقع داخل واد ضيق بين الجبال العالية الواقعة شمال "مرعش"، وتضم ألف وثلاثمائة منزل، وكذلك القرى المجاورة لها تضم حوالى ثلاثمائة وأربعين منزلا، منها أربعين منزلا للمسلمين. وحوالى ألف و ثلاثمائة منزل للأرمن. فى حين كانت القبائل والعشائر المسلمة تحيط بها من كل جانب. ولهذا لم يكن من الممكن أن تكون للأرمن حكومة ممتازة هناك.

لكن لما وطد الفرنسيون أواصر الصداقة معهم، ثارت حمية الباب العالى. فقد تبين أنه إذا تخطت الإصلاحات ناحية "زيتون"، فإن هذا يعنى أنها ستكون "كالثؤلول"[1] فى قلب الدولة. لهذا السبب وافقت أن أكون مندوبا فوق العادة

(1) هى الحبة فى قدر الحمصة، تظهر على الجلد وتمتلئ صديدا وقيحا، وقد يتكرر ذلك غير مرة، والجمع "تآليل".

للفرقة الإصلاحية على النحو السابق، واشترطت أن يتم إصلاح منطقة "زيتون" مثل منطقة " قوزان ".

أحوال منطقة جبل البركة

ينبع نهر "جهان" من منطقة الألب، ويمر بالجانب الشرقى من ناحية "زيتون" على مسافة ساعتين جنوب قصبة "مرعش"، وينحدر من داخل جبل "دلدل"[1] إلى "چُقُورْاوه"، ثم يمر إلى جوار أطلال قلعتى "همية"، "وشاه ماران"، ومن قصبة "مسيس"[2]. ثم يصب فى البحر[3] فى الجانب الغربى لميناء "يمورطه لق".

وجبل "دلدل" جبل شاهق يبدو على مرمى البصر كربوة عالية، وينقسم إلى قسمين، يمر من وسطهما نهر جهان، وتسكن عشائر "فرسخ "[4] الهمجية جانبى هذا الجبل، لكنها لا يمكن أن تتصل ببعضها ولا تستطيع الهبوط إلى الوديان، خوفا من العشائر المهاجرة. كذلك كانت العشائر لا تستطيع صعود هذا الجبل، وكان أهل " فرسخ " هؤلاء يعيشون على زراعة هذه الأماكن ورعى الماعز.

ويطلق اسم "جبل البركة" على سلسلة الجبال الممتدة من جبل "دلدل" هذا، حتى بوغاز "بيلان"[5]، ومع أن الحكومة كانت تطلق على هذه السلسلة إلى عهد قريب اسم "جبل البركة"، إلا أن الأهالى كانوا يسمونه "جبل كاور"، وهو الاسم القديم له، وكان يطلق على سلسلة الجبال الممتدة بموازاة الجانب الشرقى لهذا الجبل، اسم "جبل الأكراد ".

وهناك واد جميل خصب يقع بين هذين الجبلين، يمتد من " مرعش " إلى " سهل العميق "[6]، وهو منطقة لتجوال العشائر، ولذلك لم يكن به طريق للعابرين.

---

(1) دلدل طاغ: إحدى ذرى جبل البركة، من جهة نهر جهان.

(2) مسيس قصبه سى Misis:قصبة صغيرة فى " سنجاق أطنه "، بولاية " أطنه ".

(3) يقصد البحر الأبيض المتوسط.

(4) فرسخلر، وتكتب أيضا " وارساق ": وهم قبيلة تنتمى إلى أصل تاتارى.

(5) بيلان بوسازى: تقع " بيلان " فى " سنجاق حلب "، فى ولاية حلب، وتبعد مسافة عشر كيلومترات عن جنوب شرق الإسكندرونة، وكانت تعرف من قبل باسم " باب الإسكندرونة ".

(6) واد فى قضاء بمركز حلب، ويضم عدد قليل من القرى.

وكانت عشيرة "الريحانية"، وهى من عشائر التركمان، تقضى فصل الشتاء فى "سهل العميق"، وعشائر الأكراد المسماة "دليقانلى وچليكانلى" تقضى الشتاء فى وادى "دومدوم" الواقع بين هذين الجبلين، وفى فصل الصيف كانوا ثلاثتهم ينتقلون إلى "مرعش" مرورا من هذا الوادى، ويتجهون من هناك إلى هضاب المصيف بطول هذا الوادى.

وفى الجانب الغربى لجبل البركة، يقع سنجق "پياس" أى "عُزَير"، يحده من الغرب خليج "الأسكندرونة" ونهر "جهان". وتقضى عشائر التركمان المسماة "تجرلى" و"جريد" فصل الشتاء فى الضفة اليسرى لنهر "جهان"، وفى "چُقُورْاوه" التابعة لسنجق "بياس"، وفى فصل الصيف يتخطون جبل البركة، وينتقلون إلى الهضبة المستطيلة مرورا من داخل "مرعش".

وكانت العشائر التى تمر أمام "مرعش" مرتين فى العام، تحترف السرقة والنهب، وتبيع مسروقاتها هناك بثمن زهيد ويشترون أدوات السروجية وغيرها، لهذا حقق تجار "مرعش" وخاصة السروجية منهم أرباحا طائلة من جراء هذا. وكان أفراد العشائر أثناء رحلتى الشتاء والصيف، يُتلفون المزارع التى فى طريقهم، كما أن كبار اللصوص قطاع الطرق خاصة من عشيرتى "چليقا نلى"، "وتيجرلى" كانوا يجوسون فى المناطق المحيطة بطريقهم، ويسطون على من يقابلهم، ويأخذون ما معه غصبا.

وبعد حرب القرم، هاجرت حوالى ثلاثة آلاف أسرة من "نوغاى" روسيا، واستقرت على جانبى نهر "جهان"، من قلعة "همیته" حتى "سيس"، وكوَّنوا هناك قرى شتى، وأصبحوا فى مأمن من اعتداءات العشائر فى الصيف، أما فى الشتاء فكانوا يحملون السلاح للتصدى للصوص "تجرلى".

وكان جبل البركة فى حال عصيان مثل منطقة "قوزان"، لكن "قوزان" لها علماؤها وأهلها الصالحون، ولأبنائها سيادة مطلقة على تلك المنطقة. أما جبل البركة، فكان يبدو كسلسلة جبلية صغيرة بالنسبة "لقوزان"، ولذا انقسم إلى إمارات وزعامات صغيرة، وكان أهلها من اللصوص وقطاع الطرق.

وكان أبناء "كچوك على" يقومون بحراسة طريق "بياس"، وهو طريق للحج حيث تحققت لهم السيادة فى سنجق "بياس" منذ أمد بعيد، وكانوا يأخذون إتاوة مرور من العابرين، ومن الحجيج الكرام، ويرفضون الخضوع لأوامر الدولة.

تحركات ابراهيم باشا فى الأناضول

من المعروف تاريخيا أنه بعد قيام "يوسف ضيا باشا"[1] - الصدر الأعظم والسردار الأكرم فى زمن جلالة السلطان "سليم خان الثالث"[2] -، بإخراج الفرنسيين من مصر، سلك أثناء عودته طريق الحج (الشامى)، وأثناء مروره بجوار "أنطاكية" انحرف بعيدا عن طريق الحج ليتجنب الصدام مع سكان الجبل أثناء مروره من "بياس"، وذلك بسبب سوء العلاقة حينذاك مع " خليل باشا بن كجوك على " متصرف " بياس"، ووصل إلى "اسكدار" مرورا من قلب الأناضول.

فلما توفى " خليل باشا "سيطر ابنه الأكبر"دَه دَه بك" على سنجق "بياس"، وسار على خطى والده فى العصيان، فهاجمه " مصطفى باشا البيلانى " والى " أطنه " بجيش كبير، وحاصره من ناحية "مرعش" وقبض عليه وأعدمه وأحرقه علنا فى "أطنه ". وهكذا انتقل سنجق " بياس، إلى يد أمراء " أطنه ". وكان " مصدق بك " الابن الأصغر "لخليل باشا" صبيا آنذاك، فنجا من الموت لوجوده فى حضانة النساء. وعندما وصل "إبراهيم باشا المصرى" بجيش مصر إلى تلك الناحية كان مصدق بك شابا، فتعاون معه فى بادئ الأمر، ثم انضم إلى الجيش السلطانى فيما بعد. وعندما دارت المعركة بين الجيش السلطانى وجيش مصر، وأثناء توجهه إلى "بياس"، لم يتمكن "مصدق بك" من الفرار، فاستسلم "لإبراهيم باشا"، وحكم "بياس" باسمه.

---

(1) يوسف ضياء باشا (ت: ١٢٣٤هـ: ١٨١٨م): الصدر الأعظم فى زمن السلطان "سليم الثالث"، والسلطان "محمود الثانى". جاء على رأس الجيش الذى أرسلته الدولة العثمانية إلى مصر سنة ١٧٩١ ، بعد دخول الحملة الفرنسية.

(2) السلطان سليم الثالث (١٧٦١: ١٨٠٨م): ابن السلطان " مصطفى الثالث "، كان ميالا للأخذ بالنظم الغربية، خاصة فى مجال الجيوش. صادفت فترة سلطنته قيام الثورة الفرنسية، ومجيء الحملة الفرنسية إلى مصر، وتمرد منطقة البلقان. وقام الإنكشارية بخلعه من على العرش وقتله.

وعندما سيطر "إبراهيم باشا" على "مرعش"، ذهب "سليمان باشا" المشهور متصرف "مرعش" آنذاك، إلى "سيس"، واحتمى بزعيم "قوزان"، ولما لم يجد من "قوزان" العون الذى كان ينتظره، ذهب إلى جبل البركة، واحتمى بابن "قره يكيت"، وهو من زعماء منطقة "أولاشلى"، وسار إلى "إبراهيم باشا" مع الجنود الذين جمعهم من العشائر المجاورة لجبل البركة، وبدلا من أن يسترد "مرعش" انقض فجأة على كتائب "إبراهيم باشا" الموجودة فى "عينتاب"، فهزمهم وشتت جمعهم.

وعشائر "أولاشلى" قوم مقاتلون، يتسمون بالبداوة والجرأة، ويسكنون أماكن وعرة على قمة الجبل. وكانت عشائر "أولاشلى" تنقسم إلى أربع زعامات هى عائلات "قره يكيت أوغلى"، "وقيباق أوغلى"، "وجند أوغلى"، "وعلى بكر أوغلى"، وكانت هذه الزعامات تورث أبا عن جد. وكان كل واحد من الزعماء ـ حسب مناصبهم ـ يحكم فى منطقة مستقلا، ويفرض عليها سيطرته. وكانت عائلة "على بكر أوغلى" أقوى تلك الزعامات، حيث تقع فى حوزتها أشد مناطق جبل البركة وعورة. ومع أن هذه الناحية تابعة لسنجق "بياس"، إلا أن زعماءها كانوا يستغلون ابنا "كجوك على" استغلالا تاما. ويدفعون زعيم أسرة "كجوك على" إلى القتال وقتما يشاءون، لكنهم عجزوا عن إخضاعهم تماما لسيطرتهم، ومع أن زعيم "كجوك على" كان يؤَلِّب كل واحد من هؤلاء الزعماء ضد الآخر، إلا أنه لم يستطع أن يمارس عليهم مزيدا من الضغط، لأن جبال "أولاشلى" كانت هى الملاذ لهم عندما تضيق بهم الأحوال.

وعندما تحرك "إبراهيم باشا" بجيش مصر إلى سوريا، نصحه والده "محمد على باشا"، بقوله: "ولدى إبراهيم، عليك التمييز بين أحوال الجبال وأحوال السهول وإدراك الفرق بينهما، وضَعْ سكان الجبال فى اعتبارك". ورغم هذا لم يستطع "إبراهيم باشا" أن يتفهم هذه المسألة الدقيقة على النحو اللائق، فجمع أسلحة الأهالى فى الأماكن التى سيطر عليها بسهولة فور وصوله إليها، وبدأ فى

استخدامهم قسرًا، ولهذا واجه المصريون مقاومة قوية عند صعودهم الجبال المتمردة التى لم يسيطروا عليها بعد فى جبل البركة.

وبعد أن سيطر "إبراهيم باشا" على سناجق "بيلان"، "وبياس"، "ومرعش"، لم يكن يتوقع وجود بعض سكان "أولاشلى" البدائيين، الذين يتخذون من ذروة الجبل مرتع إجرام. ولذا انطلق من "چرچيلى" بفرقة عسكرية كبيرة، وعدد من المدافع، واستقر بجيشه فى منطقة "يارپوز"[1] إحدى نواحى "أولاشلى". وكان "قورت إسماعيل باشا" ـ قائد الفرقة الإصلاحية فيما بعد ـ قد أقام معسكرا فى "يارپوز" أثناء وجوده فيها، وهو المكان الذى استقر فيه "إبراهيم باشا" بجيشه. "ويارپوز" الآن مركز لمتصرفية جبل البركة أى "جبل كاور".

وعندما أرسل "إبراهيم باشا" جيشا من معسكر "يارپوز"، إلى "ابن على بكر". انضم زعماء " أولاشلى " وكل القتلة والهاربين الموجودين فى الجبل إلى " ابن على بكر" وتصدوا للمقاومة معه. والواقع أن "إبراهيم باشا" لم يستطع التحرك بهذا الجيش الجرار من الجنود النظاميين، الذين لم يعتادوا المناورة فى مثل هذه الجبال الوعرة، خاصة وأن العساكر المصرية لم تتبين الأمر، فبعد أن توغلوا فيها قطع عليهم سكان الجبال خط الرجعة، وهجموا عليهم من كل اتجاه، وأصبحت العساكر المصرية فى وضع حرج. عندئذ بدأ "إبراهيم باشا" فى طلب الصلح والهدنة مع "ابن على بكر"، ومنحه كثيرًا من النقود والأسلحة. وقد أنقذ "إبراهيم" نفسه بتراجعه.

وبعد انسحاب المصريين من هناك، استقر الأمر فى "بياس" "لمصدق بك"، وصدر أمر بمنحه رتبة أمير الأمراء.

وعندما كان "محمد باشا القبرصي" مشيرا لجيش بلاد العرب مؤخرا، أرسل جيشا بقيادة "چتال باش مصطفى باشا" لمهاجمة جبل البركة، وسلكت الفرقة العسكرية نفس الطريق الذى سلكته العساكر المصرية. وهُزمت الفرقة بمجرد الوصول إلى "يارپوز"، وسقط كثير من الضباط أسرى فى أيدى لصوص

(1) يارپوز Yarpuz: قرية صغيرة فى جبال " أولاشلى "، فى " سنجاق جبل البركة "، بولاية "أطنة".

"أولاشلى"، وعندئذ جاء "ابن كجوك على" من "بياس" إلى "مصدق بك" ـ سالف الذكر، وعرض على "مصطفى بك" مساعدته لتخليص الضباط من أيدى الأشقياء. وظل الطريق الواصل من سهل العميق إلى "مرعش" مسدودا تماما منذ ذلك الحين، وحتى وصول الفرقة الإصلاحية إلى تلك المناطق، أى طوال خمسة عشر أو ستة عشر عاما.

تحركات الأكراد

وقضاء "بولانيق"؛ هو المنطقة الممتدة من نهر "جهان" بجبل البركة، حتى جبال "أولاشلى"، وبه قرى عامرة بشكل جيد. ويتبع سنجق "مرعش"، لكنه يتصل من ناحية بوادى العميق "چُقُورْاوه"، ومن الجنوب بجبال "أولاشلى"، ولم يمكن السيطرة عليه تماما بسبب وجود مناطق "كنار" الكردية على الحدود الشرقية لتلك المنطقة.

ونواحى "كنار" هذه تقع على طول الحدود، بدءا من "بولانيق"، حتى الجنوب. وتمتد داخل الوديان الواقعة على سفوح الجانب الشرقى لجبل البركة، وهى قرى متفرقة تمثل نواحى "اكينتيلى"، "وبستان الكردى"، "ومدخل الخان"، "وچرچيلى"، "وكركوتلى". وكل أهلها من الأكراد ويتكلمون اللغة الكردية، وكانوا كلهم بحسب القومية يتبعون "دلى خليل ابن الحاج عمر" المسيطر على جبل الأكراد حينذاك.

وأهالى جبل البركة كلهم من الأتراك، باستثناء ناحية "كنار"، ويقيم معهم قلة محدودة من الأرمن.

وتقع نواحى "أكباز"، "وتيك"، "وحاجيلر" ـ بالترتيب ـ فى الجانب الشرقى لجبل البركة، ومن ناحية " كنار " المذكورة عند التقائها بناحية "كركوتلى"، وكانت قبيلة "قابولى" تتبع ناحية "تيك". وكان أهالى "تيك" يصعدون فى الصيف إلى هضاب "قابولى".

وناحية "حاجيلر" تشترك فى الحدود مع "وادى العميق" وقضاء "بيلان"، وتقطن عشيرة "قره فقيلى" التابعة لهذه الناحية قمة الجبل، وهم عصاة متمردون مثل سكان " أولاشلى ".

وكان أمراء الأتراك المحليون المنحدرون من أبناء "جوبان"، يحكمون هذه النواحى الثلاث. ("اكباز"، "وتيك"، "وحاجيلر") ومع أن ثلاثتهم تابع لسنجق "مرعش" إلا أن نواحى الأكراد العاصية المذكورة الواقعة بينهم، لم تكن تسمح لشرطة "مرعش" بحرية التردد على هذه النواحى الثلاثة. لذا كانت أوامر متصرف "مرعش" لا تسرى عليها.

وعندما عين "محمد بك" أمير "تيك" مديرا لها من قبل متصرف "مرعش"، لم يخضع له "پاشويك" أمير ناحية "حاجيلر" وأكبر شخصية فى تلك المناطق. أما "محمد بك"، فقد ضم له أمراء "اكباز"، وهب لمحاربة "پاشويك". وبناء على ذلك لم يعد بإمكان أهالى "حاجيلر" الذهاب إلى "مرعش"، كما عجز رجال "محمد بك" عن الذهاب إلى "سهل العميق".

وكان "دلى خليل" سالف الذكر مسيطرا على جبل الأكراد ومتحكما فيه، وكل القرى حتى قصبة "كليس"[(١)] تحت سيطرته. وله النفوذ على قصبة " كليس" أيضًا، فيحبس من يشاء ويطلق سراح من يشاء.

ومع أن ناحية "كفرديز" الواقعة فى جهة "مرعش" بجبل البركة تابعة "لمرعش"، إلا أن " دلى خليل " تغلب على أمرائها وأنفذ حكمه عليها.

أما ناحية الأكراد المسماة "جرجيلى"، وهى من "كنار" الواقعة فى الجانب الشرقى لجبل البركة، والتابعة " لدلى خليل " ـ كما ذكرنا ـ فكانت تمتد داخل واد واسع بجبل البركة، وبسبب موقعها المنيع كانت موئلا للصوص وقطاع الطرق، وسوقا للبضائع المسروقة إذ كانت البضائع المسروقة من " أطنه " تنقل وتباع فى

---

(1) كليس Klis: مركز قضاء تابع لولاية حلب، ويبعد عن حلب مسافة ٦٦ كيلو متر شمالا. وكان أغلب أهله فى ذلك الوقت من المسلمين.

"كليس" "وعينتاب ". والبضائع المسروقة من هاتين المنطقتين كانت تنقل وتباع فى "أطنه". وكان العابرون فى طريقى "مرعش"، "وعينتاب" يلحقهم بعض الضرر من فرسان "جرجيلى" أثناء هجومهم على اللصوص فى ذلك الطريق. والحاصل، أن الأماكن الواقعة من "پياس" إلى "كليس"، ومن "بيلان " إلى "مرعش" كانت كلها فى حالة عصيان واضطراب. أما لصوص "أولاشلى" فكانوا يتعيشون من السرقة، فيهجمون على "پياس"، وعابرى الطريق وينهبونهم. والباب العالى لا يعرف حقيقة أحوال هذه المناطق على الوجه اللائق، إنما يولى الاهتمام إلى طريق "پياس" فقط لأنه طريق الحج، وكانت الصرة السلطانية ترسل من "أطنه" إلى "بيلان" فى حراسة حوالى ألف من الفرسان.

ومع هذا، كان لصوص جبل البركة حتى وقت قريب يسرقون الصرة السلطانية عند "كوبرى پورنار"[1] فى الجهة الأخرى من "پياس". بناء على ذلك قرر "فؤاد باشا" ترك الطريق البرى من "اسكدار" إلى دمشق، وصارت الصرة السلطانية ترسل بحرا إلى بيروت، ومنها إلى الشام.

قبل عام أو اثنين، وأثناء تردد "قبولى باشا" على حلب فى عملية تحقيق، قال فى تقرير له حسب المعلومات الناقصة التى توصل إليها، إن "مصدق باشا " هو سبب كل هذه المشاكل، فإذا أبعد عن منطقة "پياس" فسوف يستتب الأمن فى طريق "پياس "، وتتم السيطرة على سنجقها. وتبعا لأحوال ذلك الوقت، كان "فؤاد باشا" يخشى إثارة مسألة "پياس"، إلا أنه أصدر أمرا مؤخرا بتحرك كتيبة من "أطنه" إلى "بيلان" بناء على التحذيرات المتكررة من "قبولى باشا". فلما وصلت هذه الكتيبة إلى " پياس" أظهر "مصدق باشا " كرما فى معاملة العساكر السلطانية، واستضاف ضباط الجيش فى قصره. لكن قائد الكتيبة بموجب التعليمات السرية التى معه، قبض على زوجات "مصدق باشا" وأبنائه، وأرسلهم فورا إلى إستانبول.

(1) يقع " كوبرى پورناز " عند نهر " برناز "، فى الجزء الشمالى من نهر " طالمن " الذى يجرى جنوب ولاية " آيدن ".

وآوى "ده ده بك" الابن الأكبر "لمصدق باشا" إلى الجبل، واحتمى " بعلى أغا " ابن " على بك "، وأعلن العصيان. وكان يهبط من الجبل بمجموعة من اللصوص من حين لآخر، فيسرقون المناطق المحيطة بهم. أما لصوص " أولاشلى "، فقد انتهزوا هذه الحالة المضطربة، ونزلوا إلى سواحل "چقوراوه"، وتمادوا فى أعمال السرقة، ولهذا أغلق طريق "پياس" تماما. وحوصرت الكتيبة الموجودة فى "پياس"، وأصبحت اعتداءات أشقياء جبل البركة تمتد إلى الطرق الموصلة من "اسكندرون " إلى "بيلان"، ومن "بيلان" إلى حلب. وكأن "مصدق بك" كان الستار الذى يحجب لصوص جبل البركة [عن الدولة]، فلما رفع هذا الستار، اندفع أشقياء "أولاشلى"، واستشرى ضررهم فى كل مكان. واتضح خطأ ما توصلت إليه تحقيقات "قبولى باشا". وبعد أن تطور الموقف إلى هذه الدرجة صار لا بد من إصلاح هذه المناطق على نحو خاص. واستطاع والى حلب السابق أن يوقع دلى خليل" سالف الذكر وقبض عليه ونفاه إلى أدرنة، واستطاع دلى خليل بدوره الفرار من " أدرنة "، وذهب إلى جبل الأكراد وتفاقم عصيانه، فلما تفاقم التمرد والعصيان بالجهة الشرقية من جبل البركة، وأرسلت استغاثة من حلب لطلب النجدة، فعندئذ عُرف أن هناك اتصال بين بعض زعماء جبل البركة، وبين الأجانب، وأن المفاوضات قائمة بينهم.

وبناء على ذلك، وبينما كانت الفرقة الإصلاحية على أهبة الاستعداد للذهاب إلى "قوزان" صدر أمر بتوجه الفرقة لجبل البركة أولا، وصدر أمر ومرسوم بالتحرك إلى "قوزان" بعد تأديب اللصوص قطاع الطرق فى تلك المناطق.

السفر مع الفرقة الإصلاحية إلى الإسكندرونة

تحركت الفرقة الإصلاحية من إستانبول على ظهر خمس سفن حربية أميرية بقيادة "درويش باشا" مشير الجيش السلطانى الرابع، وذلك فى أواخر عام ١٢٨١ هـ [١٨٦٤م]، ووصلت إلى سواحل ولاية "أطنه" فى غرة المحرم عام ١٢٨٢هـ [١٨٦٥م]. وفى صباح اليوم التالى وصلت الفرقة مرفأ الإسكندرونة، وتم إنزال

كتائب المشاة السبع ولواء الفرسان والمدافع والمهمات الموجودة معنا. وأثناء نقلها إلى الموقع الذى تقرر اتخاذه معسكرا للجيش فى ناحية "بيلان" على مسافة نصف ساعة من الإسكندرونة، ذهب عبدكم و"درويش باشا" بالباخرة إلى "پياس"، وهبطنا إلى اليابسة، وعاينا المنطقة وما حولها، ثم أصدرنا تعليمات إلى "حسن باشا" أمير اللواء فى "پياس" بالبقاء هناك مع كتائبه لمحاصرة تلك المنطقة، لكى يمنع وصول سكان الجبال إلى الساحل، ثم رجعنا إلى الإسكندرونة، وتوجهنا إلى معسكر الجيش.

ولما كنا مكلفين بإصلاح كل الولايات الممتدة من الإسكندرونة إلى "مرعش "، " والبستان "[1]، ومن " كليس " إلى " نيكده "، " وقيصرية "، ومن سواحل "أطنه" حتى حدود ولاية " سيواس "، فقد كتبنا أثناء وجودنا فى إستانبول بيانا وطبعناه ليقرأ على أهالى تلك المناطق. وفى يوم خروجنا متوجهين إلى الإسكندرونة، أرسلنا "حسين حسنى أفندى" رئيس مرافقى عبدكم العاجز، وهو من ضباط الأركان الحربية، إلى منطقة "قوزان" ومعه عدد كاف من نسخ البيان والرسائل المخصوصة لمن يهمهم الأمر، كما نُشرت نسخ كثيرة من البيان فى المناطق الأخرى بكافة الوسائل الممكنة.

وفى الصباح جاءت كتيبة من "كريد" على ظهر مركب حربى، وانضمت إلى الفرقة الإصلاحية وتُركت البارجة السلطانية "مجيدية" فى ميناء الإسكندرونة، وأعيدت المراكب الحربية الخمسة الأخرى.

وكان البيان المذكور يتضمن عفوا شاملا.كما أرسلنا رسائل خاصة إلى "ده ده بك" ابن " مصدق باشا" بضرورة استسلامه للفرقة الإصلاحية لينال نصيبه من هذا العفو العام. لكنه لم يمتثل وقال إنه سيدافع كل ما أوتى من قوة، ولجأ إلى "على أغا ابن على بكر"، فاضطر إلى حمايته حسب الأصول المرعية بين القبائل والعشائر.

---

(1) البستان: قصبة، هى مركز قضاء فى شمال " سنجاق مرعش "، بولاية حلب. وتبعد عن "مرعش" مسافة ٧٠ كليو متر. وكان معظم أهلها فى ذلك الوقت من المسلمين.

وصل إلى الإسكندرونة "ثريا باشا" والى حلب، "وعلى رضا باشا" والى "أطنه" للتشاور، ثم رجعا بعد أن شرحا معلوماتهما عن المنطقة وملاحظاتهما الخاصة. وكان رأى والى حلب أن نبدأ بمنطقة جبل الأكراد. ورأى والى "أطنه" أن نتجه نحو "قوزان" مباشرة، ولما كانت التعليمات الموجهة إلينا تقضى بتأديب لصوص جبل البركة أولا، لذا فعندما ناقشنا الأمر مع بعض الأمراء وأركان الحرب أثناء وجودنا على ظهر الباخرة، اتضح أن الوصول من "پياس" إلى جبال "أولاشلى" أمر صعب، وأننا لو ذهبنا إلى "كليس" وتحركنا من هناك إلى جبل الأكراد، سنقطع مسافة طويلة، ونضيع وقتا كبيرا هباء. لذا قررنا الذهاب إلى المنطقة الواقعة بين جبل الأكراد وجبل البركة، وبهذا نفصل بين المجموعتين. ثم نتحرك عبر الوادى الواقع بين جبل البركة وجبل الأكراد، للبحث عن طريق يؤدى إلى جبال "أولاشلى" ولم تستأهل المعلومات التى حصلنا عليها من الولاة وغيرهم عن هذه المنطقة تغيير هذا القرار. لكننا كنا فى حاجة إلى رجال يقدمون لنا معلومات كافية، ويقومون بدور المرشدين لنا فى هذا الوادى.

وفى هذه الأثناء، جاء "مرسل زاده مصطفى بك" أمير أمراء الريحانية ومعه "پاشو بك " أمير ناحية " حاجيلر ". وكأنه سلم لنا مفتاح جبل البركة. ذلك لأن أول مقر لنا عند دخولنا المنطقة أصل التمرد، سيكون على حدود " حاجيلر ". واتضح أن " پاشو بك " سيؤدى خدمات طيبة للفرقة الإصلاحية رغما عن عدوه اللدود " محمد بك " ابن " قره بك " مدير " تيك ". وتأخر مجيء " محمد بك " إلى الإسكندرونة، لأنه اضطر إلى المرور من ناحية "حاجيلر"، حيث يتربص به رجال "پاشوك بك" ليقتلوه أينما وجدوه. ولم يمض وقت طويل، حتى احتمى بأحد مشايخ "عشيرة الريحانية"، وهكذا أصبحت نواحى "تيك"، "واكباز" أيضا ضمن حمايته. ورجع كل من "پاشوك بك"، "ومحمد بك" إلى مكانيهما، على أن يمدا العساكر السلطانية بالمؤن وكافة اللوازم الأخرى.

وفى ذلك الحين كان الأمن مفقودًا فى طريق سهل العميق الموصل من " بيلان " إلى حلب، لذا رأينا إرسال خمسين من السوارى الموظفة من "أيالة حلب" إلى

"مصطفى بك" المشار إليه لحراسة الطريق، ويتولى فرسانه نقل البريد. ولو أبلغ "مصطفى بك" بهذا من قبل لكان قد أدى جزءا من المهمة. ولم يكن أحد يستطيع عبور هذا الطريق فى حالة عدم وجود فرسان عشيرة " الريحانية "، وكانوا يذهبون من "بيلان" إلى "أنطاكية" مرورا بالطريق الواقع تحت محافظة الحرس، ومنها يذهبون إلى حلب.

ولدى نزول الفرقة الإصلاحية من " بيلان " إلى " سهل العميق " انحرفت جهة اليسار فى اتجاه " مرعش "، وسارت عبر الوادى الواقع بين جبل البركة وجبل الأكراد، وأعطت إلى " مصطفى بك " خمسين من العساكر العاملة لحراسة خط الرجوع. وتركتهم فى معيته ليكونوا رهن طلب الفرقة الإصلاحية.

وعشيرة "ريحانية" هى أكبر العشائر المهاجرة، التى تتجول فى تلك المناطق وفى "چيقوراوه "، وكل العشائر خاضعة لها. وإن لم تكن كل العشائر المهاجرة تظهر الطاعة والانضباط، لكن "مرسل زاده" أمير أمراء "ريحانة"، من أسرة عريقة، ومن الشخصيات المعروفة للدولة، وهذا كان يشعرهم بالأمان أكثر من بقية العشائر. والحقيقة أن " مصطفى بك " أيضًا أسدى خدمات طيبة للدولة.

تم تجهيز دواب للفرقة الإصلاحية من "أنطاكية"، وكان أهل تلك المناطق قد ضاقوا وسئموا من لصوص جبل البركة، ولذا أرسل وجوه "أنطاكية" وأعيانها مائة رأس من الدواب للخدمة الممتازة، وأرسل أهالى قصبة "بيلان" ثلاثين رأسا لأعمال النقل، كما أرسل زعماء "ريحانة" عدد خمس وعشرين رأسا أخرى.

وأمهلنا أنفسنا بضعة أيام لتنظيم أمورنا، ثم خرجت الفرقة إلى قصبة "بيلان". ولأن منطقة جبل البركة شديدة الوعورة فقد ترك الجند أحذيتهم وحقائبهم فى "بيلان"، وانتعلوا بدلا منها خفافا، وحملوا أجربة صغيرة بدلا عن الحقائب على طريقة الروم ايلى. ثم هبطت الفرقة إلى "سهل العميق"، وأصبح جبل البركة عن يسارنا، وتحركت الفرقة بمحازاة الجبل، ووصلت إلى "حاجيلر". ونظرا لوجود لُجَة فى جهة جبل الأكراد،كان على الجيش أن يضرب خيامه فى "قارغيلى"، الواقعة بين هذه اللُّجَة، ومنطقة " حاجيلر ".

والمسافة من"بيلان" إلى "حاجيلر" وطولها حوالى عشرة ساعات، كلها منطقة مكشوفة. ولأنها مكان تجوال عشيرة "ريحانة"، لذا كان خط رجوعنا مؤمنا. أما منطقة "قارغيلى"، فهى ممر الطريق المؤدى من "مرعش" إلى "سهل العميق"، ولأن الطريق المؤدى إلى "سهل العميق" وعرا، تلزم حراسته بشكل خاص، لذا تقرر إقامة قرية هناك باسم قرية الجيش. وعلى الفور صدر أمر إلى "پاشو بك" بنقل ثلاثين أسرة من "حاجيلر" إلى هناك، فنفذ الأمر وسرعان ما أنشئت القرية. ثم تحركت الفرقة من "قارغيلى"، فبلغت مدخل "تيك" على مسافة ساعتين أو ثلاث، واستقر الجيش فى "اينجه صو"[1]، وهناك جاء أمراء وزعماء ناحيتى "تيك"، "وأكباز" واعلنوا طاعتهم.

وبدأنا فى بناء المعسكر على الفور، كما شرعنا فى إنشاء قصبة بجوار المعسكر، مكونة من بضع مئات من الأسر لتكون مركزا للقضاء الذى تكون مؤخرا نتيجة ضم نواحى "حاجيلر"، "وتيك"، "وأكباز". ولأن الكتائب الخاصة هى أول من نزل بتلك المنطقة، فقد سميت بقضاء "خاصة"، وصدر الأمر بعمل اللازم لإقامة ثلاثة أحياء فى القصبة، على أن تقسم الأُسَر حسب عدد سكان كل ناحية من النواحى الثلاث.

وقصبة "خاصة" تبعد خمس عشرة ساعة عن "مرعش"، واثنتى عشرة ساعة عن "بيلان". والمسافة بين "بيلان"، والإسكندرونة ثلاث ساعات، لذا فإن قصبة "خاصة" تقع فى منتصف الطريق الواصل من الإسكندرونة إلى "مرعش تمامًا".

وقد انتخب فى كل قرية من قرى قضاء "خاصة" مختار حسب الأصول المتبعة فيها، كما شكلنا مجلسا للقضاء مكون من أربعة أعضاء ؛ واحدا من وجهاء كل ناحية من النواحى الثلاث، وواحدا من طائفة الأرمن. كما أعددنا عساكر شرطة بالقدر الكافى، وعينا مديرا للقضاء. وأبلغنا هذا [التشكيل] لإستانبول لترسل نائبا، وتم على وجه السرعة إحصاء نفوس النواحى الثلاث وأعمارهم، على أن يستدعوا إلى

(1) قصبة تابعة " لسنجاق قيصرية "، كان أغلب سكانها فى ذلك الوقت من المسلمين.

مقر الجيش فى أوائل حزيران [يونيه] على دفعات، فيأتى الأب وأقاربه ويتم إجراء القرعة [العسكرية]. لكن عشيرة "قره فقيلى" المقيمة فى ذروة جبل ناحية "حاجيلر "، لم تستجب للدعوة التى وجهت إليها لإجراء القرعة العسكرية اعتمادا على منعة موقعهم. وعندما ظهر عجز "پاشو بك" [عن إقناعهم]، خرج أمير اللواء "إبراهيم باشا" ليلا على رأس عدة كتائب من عساكر المشاة السلطانية، وصعد إلى قمة الجبل الذى تقطنه عشيرة " قره فقيلى". ولما كانت المسافة من المعسكر إلى هناك تستغرق ثمان ساعات، فقد باغت العشيرة المذكورة بالهجوم مع إشراقة الصباح، وقبض على أغلبهم وأحضرهم إلى المعسكر قبل حلول الليل، وحدد من هم فى سن التجنيد، وأدخلوا ضمن نطاق القرعة.

إخضاع جبل الأكراد

بينما الفرقة الإصلاحية واقعة بين نارين، فتحت واقعة استعادة جبل الأكراد الطريق أمامها إلى "كليس". وقد أثارت هذه الواقعة خوف الناس فى بقية النواحى، ولذا لم يستطع "دلى خليل" البقاء فى جبل الأكراد، وانتقل إلى قرية "قياباش" فى الجانب الشرقى لجبل البركة بين جبال " أولاشلى"، داخل "كركوتلى"، وهى قرية معروفة بمنعتها الشديدة. وبناء على ذلك، بدأ زعماء جبل الأكراد الذين سئموا تمرد " دلى خليل " واستبداده، فى التردد على مقر الجيش. وهكذا تمت السيطرة على جبل الأكراد، وأصبح السفر إلى حلب يتم عن طريق "كليس".

وكانت كل لوازمنا تأتى يوميا عن طريق مرفأ الإسكندرونة، حيث كان فرسان "ريحانية" يؤمنون خط رجوعنا. وعندما فتح طريق " كليس" أيضا أصبح كل شيء يتم إحضاره عن طريق "حلب". وبدأ أفراد جبل الأكراد فى إحضار المؤن والدواب إلى الفرقة الإصلاحية بشكل مستمر، على أن يحسب ثمنها من بقايا الضرائب، كما بدأ تجار حلب "وعينتاب"، "وكليس" فى التردد على الفرقة الإصلاحية. والحاصل، أن الجانب الأيمن من المنطقة أصبح مفتوحا بالنسبة لنا، وانحصرت مهمتنا فى جبل البركة. وتشكل قضاء فى جبل الأكراد باسم "عزية "، وانتخب كل أعضاء المجلس من زعماء الأكراد، وذلك لعدم وجود نصارى فى تلك المنطقة.

وكان كل واحد من زعماء جبل الأكراد رئيسا لعشيرة أو لبطن من قبيلة، يسعد بتكليفه بعضوية المجلس. وحيث إنهم قد تخلصوا من سيطرة "دلى خليل"، وأصبحوا لا ينفرون من الانضمام لمعية أو رفقة مدير القضاء، والخضوع للأحكام النظامية. فقد اتضح من سياق الأحوال، أنهم سوف يحسنون خدمة الدولة.

أما بالنسبة لأمراء نواحى "حاجيلر"، "وتيك"، "واكباز"، فكان كل واحد منهم ـ منذ زمن طويل ـ أميرا إقطاعيا يحكم ناحيته مستبدا كحاكم مستقل، ثم إنهم كانوا يأخذون الإيرادات المحلية، وينفقون منها ما يشاؤون، إذ كانوا يجبون ضرائب النواحى، ويرسلون العُشر منها إلى بيت مال "مرعش"، لكى يبرهنوا على طاعتهم للدولة، وينفقون الباقى على أمورهم الشخصية،ويدفعون مائتين وخمسين قرشا بدل عشر سنوى عن النواحى الثلاث. وفى العام الماضى، عندما عينت متصرفية "مرعش" "محمد بك" مديرا، قام بتحصيل خمسمائة قرش عن "تيك"، "واكباز" رسما لعدد الأغنام(1)، ومع هذا فإن ناحية "حاجيلر"، لم تخضع "لـپاشوبك"، ولذا لم يستطع أن يجمع الحصة المقررة عليها، وتبين من المعاينة أن عشور ورسوم هذه النواحى الثلاث تشكل مبلغا كبيرا.

وهكذا اتضح أنه سيكون من الصعب على الأمراء الخضوع إلى مديرى الأقضية لأنهم اعتادوا الاستقلال بشئونهم، وعلى فرض أنهم سيقبلون هذا، فإن أتباعهم لن يتعاونوا معهم. وعندما أبلغنا "پاشو بك" بواسطة "مرسل زاده" بضرورة أن ينتقلوا إلى مكان آخر، تفهم [پاشو بك] هذا وصدَّق عليه، واشترط ألا يتم تفضيل"محمد بك" ابن "قره بك" عليه بوجه من الوجوه، وأن تتم معاملتهما على قدم المساواة، وأعلن أنه سيرضى بأى مكان يرسل إليه.

بناء على ذلك، تم تخصيص مرتب قدره ألفى قرش شهريا مدى الحياة لكل من "محمد بك"، "وپاشو بك"، وعين " محمد بك" مديرا لقلعة الروم، "وپاشو بك" مديرا "لألبستان". مع الوعد بمنحهما رتبتين.

(1) هى الضريبة التى تحصلها الدولة عن عدد الأغنام، التى يملكها العربان.

obeikandl.com

كما خُصِّص مرتب مناسب مدى الحياة، لكل واحد من أمراء النواحى الثلاث الأخرى. ولما كان إعطاء مرتبات مدى الحياة، يدخل فى نطاق الصلاحيات الممنوحة لعبدكم، فقد أعطيت أوامر بذلك للعمل بها لحين وصول البراءات فيما بعد من إستانبول ، وتسليمها إلى أصحابها.

أما "محمد بك"، فكان موسوسا منافقا، لذا اصطحب أخيه وأهل داره، وخرج بهم ليلا إلى ممر " قبولى"، فى الجانب الشرقى من "تيك"، وبينما توقعنا ذهابه إلى قلعة الروم، أخذ يتفاوض مع زعماء " أولاشلى"، وطلب من أهالى "تيك" الذهاب معه فلم يتبعه سوى أتباعه وبعض الأشقياء. وفيما بعد جاء إلى مقر الجيش وأبدى ندمه واستسلم [للفرقة الإصلاحية] وقبلنا استسلامه، فلما أبلغناه بحرمانه من الرتبة والوظيفة، رغب فى السماح له بالإقامة فى "أنطاكية"، فأرسلناه إلى هناك وخصصنا له ألف قرش راتبًا شهريًا.

وذهب "پاشوك بك" إلى "ألبستان" مزهوا سعيدا لتفوقه على خصمه بتلك الطريقة، وبدأ فى ممارسة الحكم، وأرسلت له من إستانبول مخصصات رتبة رئاسة بوابى الركاب السلطانى الممنوحة له. واستمر فى أداء مهام وظيفته بصدق واستقامة، وقد صدر مؤخرا أمر بمنحه رتبة أمير الأمراء.

وفى هذه الأثناء، وصل إلى الفرقة الإصلاحية عدد مائة وخمسين دابة من "أطنه"، ومائة دابة أخرى من "طرسوس"، فكان المجموع مائتين وخمسين دابة على أن يتم تخصيص هذه الدواب للخدمات الممتازة. وعندما أرسلنا فى طلب عدد من أفراد شرطة حلب، ليعملوا مع الفرقة الإصلاحية، تم إرسال عدد منهم برفقة نقيب من شرطة الفرسان يدعى "محمد جاويش" فكان الرجل الذى نبحث عنه تماما، فهو ثاقب البصيرة ومجرب، وعالم بأحوال كل النواحى. والحقيقة أنه أفاد الفرقة الإصلاحية فى كثير من أعمالها.

وعندما أبلغنا والى حلب بأنه من المناسب أن يكون فى صحبة الفرقة رجل من وجوه حلب من أهل الدراية بالشئون المحلية، أرسل من يدعى "ويسى أفندى "،

وهو من أعضاء المجلس الكبير بولاية حلب. واستفادت الفرقة منه فى جلب المؤنة وجمع الرجال من النواحى الأخرى.

ووصل أمير اللواء "قورت إسماعيل باشا" قائد مفرزة الفرقة الإصلاحية إلى ناحية "مغارة"، وهى ناحية بجوار "قوزان الشرقية". وكان "حسين حسنى أفندى" ـ الذى سبق أن أرسلته [الفرقة الإصلاحية] من الإسكندرونة إلى تلك المنطقة ـ أثناء تردده على "إسماعيل باشا" فى قلب "قوزان"، يحل ضيفا على "يوسف أغا" زعيم "قوزان الشرقية"، ويقيم لديه فترة طويلة، وبذا استطاع أن يقف جيدا على أحوال سكان تلك المناطق. ثم عاد من عند "يوسف أغا" برفقة رجل من طرفه يدعى "خليل أفندى". وقد رجع هذا الأخير إلى زعيمه معززا مكرما، وفى هذه المرة أيضا كان يرافق " حسين حسنى أفندى" من يدعى " حافظ على أفندى" نائبا عن أحمد أغا " زعيم" قوزان الغربية " (هو "أحمد باشا" الموجود فى طربلس الغرب).

وخلاصة المعلومات التى تحصلت لدينا من هذه التحريات أن أهل "قوزان" متدينون شرفاء، وأنه عند وصولنا إلى تلك المنطقة ستدور بعض المعارك المتوقعة مع حكومة أبناء "قوزان"، ولأنها حكومة متغلبة على غير أساس، فستنهدم وسرعان ما يعود الأهالى إلى حظيرة الحكومة السنية. أما معاركنا التى ستدور بالقرب من جبل البركة، فكلها مع اللصوص وقطاع الطرق ومع الأشقياء من الأهالى، وستكون بعيدة تماما عن مظاهر الغيرة الدينية. وغنى عن البيان ذكر مدى الصعوبة التى تتسم بها الحرب مع الأهالى. وقد تبين أنه فى حالة القضاء على أشقياء جبل البركة بلطفه تعالى، سيصبح إصلاح منطقة "قوزان" أكثر سهولة. وحتى ذلك الحين يجب أن تركز الجهود على أمر أهم، وهو إقناع أهالى قوزان بالإصلاح، وتهيئتهم لذلك.

ومنذ زمن بعيد كان يطلق على القائمقام وأمير اللواء لقب "بك"، وعلى المقدم لقب "أغا"، وعلى المتخرج من المدرسة فقط لقب "أفندى". وبعد ذلك أطلق لقب "بك" على مقدم الأركان بموجب الإرادة السنية، فأصبح لقب "بك" يطلق بعد

ذلك علـى "حسنى أفندى" كبـير مـرافقى عبدكم، وهو من بيكباشية أركان الحرب.

وبعد تنظيم قضاء "خاصة وعزية" على النحو المذكور، اتخذنا الإجراءات اللازمة لإصلاح أحوال نواحى الأكراد سالفة الذكر، وهى النواحى المسماة "كنار" فى الجانب الشرقى لجبل البركة.

ومع أن أهالى ناحية "كركوتلى" المجاورة لناحية "اكباز"، قد أظهروا الطاعة، إلا أن لجوء "دلى خليل" ـ كما ذكرنا من قبل ـ إلى قرية "قياباش" الواقعة على حدود جبال "أولاشلى" داخل هذه الناحية، جعل أهالى تلك القرية يعلنون العصيان.

أما ناحية "جرجيلى" الواقعة داخل جبال "أولاشلى" المتصلة بناحية "كركوتلى"، فكانت موئلا لقطاع الطرق. وكان قطاع الطرق والأشقياء الذين يفدون عليها ويجتمعون فيها من هنا وهناك، أكثر عددا من أهلها. وكان أهالى "جرجيلى" يجمعون محاصيلهم ويضعونها فى أجولة دوما، على أهبة الاستعداد للخروج إلى جبال " أولاشلى" وسبب ذلك أن هناك واد رحب يعرف، باسم وادى "دمدوم" يقع بين جبال الأكراد "وجرجيلى"، وكان يعتبر مشتى عشيرة "دليقانلى"، ولما مُنعت العشائر من الذهاب إلى الهضاب هذه السنة كانت هذه العشيرة تضرب خيامها فى ذلك المكان. وهى عشيرة كبيرة تنقسم على ثمانية بطون وتحتاج إلى المؤن. وكان من المتوقع أن يقيموا بجوار قلعة "نيغولى" الواقعة أمام "جرجيلى" والطريق المؤدى إلى "مرعش". وقد اتضح أنه من الأصلح أن تنقل محصولات "جرجيلى" إلى عشيرة "دليقانلى". ولذا أرسلنا ثلاث كتائب من الفرسان، وثلاث كتائب من المشاة النظامية إلى "جارجيلى"، بينما توجه "مرسل زاده مصطفى بك"، ومعه عدد من فرسان "ريحانية"، ليكون بمثابة مقدمة الجيش لهم . وعندما وصل "مصطفى بك" إلى قلعة "نيغولى" خرج عليه قطاع طرق "جرجيلى" وأحاطوا به، إلا أن العساكر السلطانية أدركته، وفرقت قطاع الطرق وأسرت بعضهم، وفى تلك الأثناء، كانت عشيرة "دليقانلى" قد جمعت محاصيل "جرجيلى " ونقلتها إلى مخيماتها.

وبعد ذلك، وفى يوم السبت الخامس عشر من شهر صفر، تحركنا بالفرقة الإصلاحية من "تيك"، وواصلنا السير إلى قلب ناحية "كركوتلى" على مسيرة ثلاث ساعات.

ومع أن أكراد "كركوتلى" مطيعون، إلا أنهم كانوا يفرون إلى الجبال بسبب بداوتهم. لكن أثناء ذهابنا إلى "جرجيلى" على النحو السالف، خاضت فرسان "ريحانية" فى أحد حقول الأكراد، وأطعموا خيولهم من محصول هذا الحقل، واشتكى صاحب الحقل للفرقة الإصلاحية. وبسؤال" "مصطفى بك" عن هذا الأمر، اعترف أن فرسانه قد خاضوا فى الحقل وأطعموا خيولهم من محصوله ودهسوه. وتم تحديد مقدار المحصول [الذى أتلفوه] ليعوضهم "مصطفى بك" عنه.

ولما استشعر أهالى المنطقة هذا العدل الذى طالما افتقدوه، رجع الأكراد الوحشيون الذين فروا إلى الجبال إلى أماكنهم على الفور، وشيئًا فشيئًا بدأوا فى التردد على مقر الجيش، وأحضروا الطعام بمحض إرادتهم. كما أخذوا فى الاتجار مع الجنة، وأظهروا المحبة والميل إلى الحكومة، والنفور من الزعماء المسيطرين.

أقمنا ليلة فى "كركوتلى" ثم وصلنا "جرجيلى" فى صباح اليوم التالى، ونصبت الخيام بجوار قلعة " نيغولى". ولأن " نيغولى" تقع عند تقاطع الطريق المؤدى من "مرعش" إلى "سهل العميق"، ومن حلب، "وعينتاب"، "وكليس"، "وعزية" إلى "چُقُورْاوه"، فإنها تمتاز بموقع مهم هو بمثابة المفتاح لتلك المناطق. وعلى الفور بدأنا فى إصلاح هذه القلعة لتكون مقرا للجيش فى فصل الشتاء، كما بدأنا أيضا فى إنشاء قلعة على كل ربوة من الربا الواقعة عند بوغاز "جرجيلى" فى "كركوتلى"، المطل على القلعة، ومن ناحية أخرى بدأنا فى إحصاء نفوس ناحية "كركوتلى".

وأثناء إصلاح قلعة "نيغولى" عثرنا فى حوائطها على نوعين من الحجارة، اتضح بفحصهما أن أحدهما من الحجارة الأصلية للقلعة، وهى حجارة قديمة جدا، ذات ثقوب مثل الإسفنج. والآخر من الحجارة التى أضيفت أثناء ترميم القلعة فيما بعد،

وهذه الحجارة جديدة بالنسبة للحجارة الأولى. وقد عُثر على حجر من هذه الأحجار الجديدة محفور عليه سطرين باللغة اليونانية. السطر الأول منهما تصعب قراءته، حيث إنه متآكل فى بعض مواضعه، وتمت قراءة السطر الثانى وترجمته كالتالى: " هنا وضع "الإسكندر"[1] قانون العقوبات ". وقد فهم من هذا أن هذه القلعة قديمة جدا، تخربت بمرور الزمان وقام "الإسكندر" بإصلاحها.

ومن المعلوم فى التاريخ أن "الإسكندر" حارب "دارا" فى المنطقة الواقعة بين "اياس"[2]، "وپياس". وبعد هزيمة "دارا" وأثناء عودته إلى "بيلان" عن طريق "الإسكندرونة"، تمكن من السيطرة على ممر "بيلان"، إلا أن "الإسكندر" هاجمه وهزمه هناك أيضًا، ولذا لا يستطيع الإيرانيون أن يقيموا فى تلك المنطقة، وأثناء رجوعه إلى بابل، هبط "الإسكندر" من "بيلان" إلى "سهل العميق"، قاصدا بابل، والمتصور أنه فى تلك الأثناء رمَّم هذه القلعة، ثم خربت بعد ذلك. وها نحن الآن نصلحها، ونتخذها معسكرا للجيش، وقد أمرنا بحفظ الحجر المذكور هناك.

ومع البدء فى إصلاح قلعة " نيغولى " على النحو المذكور، شُكل قضاء كبير سمى إصلاحية، ويضم نواحى الأكراد الكائنة فى الجانب الشرقى لجبل البركة، وناحية "كفر ديز" التابعة "لمرعش" بجبل الأكراد، وعشائر "دليكانلى"، "وچليكانلى"، التى تشكل عدة قرى فى وادى "دومدوم". وبدأنا فى إنشاء قصبة إلى جوار قلعة "نيغولى"، لتكون مركزا لهذا القضاء، وأيضا فى بناء مقر للحكومة.

وتم توطين بعض زعماء عشائر "دليكانلى"، "وچليكانلى" فى قصبة "إصلاحية"، وخصصنا لكل واحد منهم مكانا لسكناه فى القصبة المذكورة يناسب عدد الأسر التى معه. وعين "حسين أغا" كبير أمراء "دليكانلى" واحدا من عشيرة "چليكانلى"، وواحدا من زعماء ناحية "كفر ديز" لعضوية المجلس الذى تشكل

---

(1) الإسكندر الأكبر (٣٥٦: ٣٢٣ ق. م).

(2) اياس Ayas: قصبة صغيرة تقع فى قضاء " پياس "، التابع لسنجاق جبل البركة، بولاية " أطنه "، وتقع على مسافة ٤٥ كليو متر غرب " الإسكندرونة ".

هناك. وتشكلت قائمقامية سنجق، بضم أقضية "خاصة"، "وعزيَّة"، "وبولانيق" إلى مركز "إصلاحية". على أن تكون تابعة لمتصرفية "مرعش". وكان من بين المهاجرين الذين وصلوا إلى "مرعش" رجل من علماء "قبارطاى" يدعى "جعفر أفندى" تولى مهمة الفتيا فى إصلاحية بمرتب شهرى قدره خمسمائة قرش. وبنقل "شوقى أفندى" متصرف سنجاق "پياس" إلى قائمقامية سنجاق " إصلاحية"، عين "ويسى أفندى" الموجود فى معية الفرقة الإصلاحية، وهو من أعضاء المجلس الكبير بحلب، بقائمقامية "پياس".

كان أمراء "اكباز" يترددون على مقر الجيش أثناء مقامنا فى "خاصة"، عدا رئيسهم "أحمد بك" وهوأكبرهم سنا، فقد لزم الهدوء، ولهذا انتقلت مقاليد الأمور إلى يد "على بك"، وهو ابن أخيه وشريكه فى الأموال. وبناء على ذلك كان "على بك" يأتى مع الأمراء الآخرين ويتناقشون معنا. ولأن "أحمد بك" رجلا لا يُخشى منه ضررا، فقد أصبح فى المرتبة التالية [لعلى بك]. وأُلحق "على بك" بمعية الفرقة الإصلاحية بصورة مؤقتة، وخصص له مرتب مدى الحياة قدره خمسمائة قرش شهريا.

وأثناء وجودنا فى "إصلاحية" هذه المرة من جاء "أحمد بك"، وعندما سألناه عن سبب تأخره، قال: "كم من جيوش جاءت ومضت ولم أشترك فى عمل ما يستوجب المسئولية الشخصية. فأنا رجل بعيد عن المشاكل، وكنتُ أحدث نفسى بأنه لا شأن لى بالجيش. ثم رأيت أنكم بدأتم فى إصلاح قلعة "نيغولى"، وفهمت أن هذا العمل له أساس، لأن هذه المنطقة هى مفتاح المناطق المجاورة. ونحن من أعيان هذه المناطق، وتعودنا على الحكم مستقلين. وبسبب النظم الإدارية التى وضعتموها، ستصبح إقامتنا هنا أمرا غير مناسب. ولذا فإننى أرغب فى الانتقال مع أولادى وأقاربى إلى حلب لأقضى ما تبقى من عمرى هناك، لكن حلب مدينة كبيرة، وحسبت الأمر فوجدت أنه يلزمنى مبلغ تسعمائة قرش شهريا لأتمكن من العيش هناك. لذا أرجو أن تخصصوا لى هذا المبلغ، وترسلونى إلى حلب".

وعلى الفور تمت كتابة أمر بهذا وتوثيقه وسلمته إليه قائلا: "اذهب إلى حلب وقتما تشاء"، وسمحنا له بالانصراف فقال "أحمد بك": "إننى لا أستطيع العودة الآن إلى "اكباز"، فأرسلونى من هنا إلى حلب، وعلى الفور جهزت الدواب اللازمة له واستدعى أولاده وذووه من "اكباز" وذهبوا جميعا إلى حلب.

وفى هذه الأثناء تفرق أشقياء ناحية "چرچيلى" مثل صغار الحجل، وخرج أهالى القرى التى كانت موئلا لقطاع الطرق إلى جبال "أولاشلى"، وأحرقت هذه القرى، مع بقاء أهالى القرى الصغيرة، التى فى الأطراف فى أماكنهم. وتم البدء فى إحصاء عددهم، وبعد الانتهاء من إحصاء سكان ناحية "كركوتلى" ثم النواحى الأخرى، تم إجراء القرعة [العسكرية] فى "إصلاحية".

والحاصل، أنه أمكن السيطرة على كل نواحى الأكراد الواقعة فى الجانب الشرقى لجبل البركة، لكن ما كان ينبغى ترك "دلى خليل" المختبئ فى "قيا باش" على حاله، ولو أدركه " مرسل زاده مصطفى بك"، "وعلى بك الاكبازى" وهو من معيته، لتصدوا له، وهذا أمر يتطلب توخى الحذر، لأن زوجة "دلى خليل" هى شقيقة "مصطفى بك "، لذا لا نثق فى "على بك". رغم أنه خير من يعرف مداخل ومخارج منطقة " قيا باش "، ويستطيع أن يعرف فى أى مكان يقيم " دلى خليل ".

وبناء على ذلك، أعددنا ثلاث كتائب فى المساء وأرسلناها قبيل الفجر إلى "قياباش"، وظل "على بك" مرافقا لعبدكم على النحو المعتاد، حيث كان يعمل دليلا لنا. وفى الصباح هاجمت العساكر السلطانية منطقة "قيا باش". ورغم أن الأشقياء الذين مع "دلى خليل" هبوا للمقاومة منذ الوهلة الأولى، إلا أنهم فشلوا فى الصمود أمام الهجوم والاقتحام الجريء للعساكر السلطانية، وصعدوا من الطرق الوعرة إلى جبال " أولاشلى". وفى تلك الأثناء، صعد "دلى خليل" إلى جبال "أولاشلى" حافى القدمين، عارى الرأس، واحتمى هو أيضا "بعلى أغا" ابن "على بكر" مثلما فعل "ده ده بك" من قبل، أما حيواناته وكافة أمتعته الثقيلة فقد استولى الجنود عليها.

ووالدة دلى خليل سيدة من أكبر الدهاة فى هذه المناطق، وقد جرحت بطلقتين من الرصاص أصابتها فى يدها وركبتها. أما السيدة شقيقة " مصطفى بك " زوجة "دلى خليل"، فقد امتطت خيرة جياد زوجها وفرت إلى الجبل. وبعد أن قطعت مسافة قصيرة من الطريق، وصلت إلى المناطق الوعرة، ولم يستطع الجواد المسكين مواصلة السير فسقط، وأثناء تدحرجه، خرجت قدما السيدة من ركاب الجواد، واصطدمت بالحجارة، وصعدت إلى جبال "أولاشلى" حجلا مثل الحجال[1]، ولحقت بزوجها.

وعلى هذا،كان من غير المناسب بقاء "على بك" فى تلك المناطق. لذلك طلب من إستانبول أن ترسله إلى "أدرنة"، وتخصص له مرتبا مدى الحياة قدره خمسمائة قرش شهريا، وأن يتسلم راتبه من "أدرنة".

وعقب ذلك، جاء " ابن قره"، " وابن قيباق"، " وابن چند " إلى " إصلاحية"، وهم من زعماء " أولاشلى "، وأعلنوا طاعتهم. و نظرا لقرب قرية " قدير أغا " ابن " قره يكيت" من "إصلاحية"، فقد تم تعيينه عضوا بمجلس سنجاق "إصلاحية" على أن يقيم هناك، ويتردد على المجلس يوم أو اثنين فى الأسبوع.

ولما كان الهدف من تحركاتنا هو زعماء " أولاشلى " الأربعة، وقد أعلن ثلاثة منهم الطاعة على هذا النحو، فلم يبق أمامنا سوى "على أغا بن على بكر ". ولما كان " على أغا " رجلا مطيعا واعيا، وأخف وطأة من الآخرين، فقد تم إبلاغه بالأمر. ولما كان من المخالف لعادات القبائل والعشائر أن يخضع لنا ويضحى بمن لجأ إليه، فلم يعد أمامنا من سبيل سوى إخضاعه بالقوة. وبقى أن نقول إن أبناء "قره يكيت"، "وقيباق "، " وچند " كانوا من المؤلفة قلوبهم. لذا فإن استمرارهم فى الطاعة بدون أن نتمكن نحن من إخضاع " ابن على بكر "، كان أمرا غير موثوق به.

وقد اتضح أنه من المصلحة أن تتوجه الفرقة على الفور، من "إصلاحية" إلى "يارپوز "، ومن هناك إلى معقل " ابن على بكر ". لكن كان هذا الطريق وعر،

(1) الحجال: طائر فى حجم الحمام، أحمر المنقار والرجلين، طيب اللحم.

وسبق أن اختبره "إبراهيم باشا المصرى" ومن بعده "چتال باش مصطفى باشا". ولهذا السبب، كان من الأسلم أن تخرج الفرقة إلى قضاء "بولانيق" أولا، ومن هناك نبحث عن طريق أسهل من خلف الجبل. وبناء على ذلك تركنا كتيبة من العساكر النظامية لحراسة الموقع فى "إصلاحية"، وتحركنا بالفرقة الإصلاحية فى أوائل ربيع الأول،ووصلنا عن طريق " بولانيق" على مسافة خمس ساعات من " إصلاحية ". وضربنا الخيام للإقامة. وعلى الفور بدأنا فى إحصاء السكان لإجراء القرعة فى نواحى أبناء " قره يكيت"، " وقيپاق"، " وچند ".

وما أن سمع أهالى "كيشنز" بتحرك الفرقة الإصلاحية، حتى تركوا قراهم وصعدوا الجبال، وتركوا محاصيلهم فى الحقول، وذلك لأن أهالى تلك المناطق كانوا يرتعدون خوفا من الجنود. وما أن وصلنا إلى هناك، حتى تم تخصيص جنود شرطة لحراسة هذه المحاصيل.

وعندما وصل "قنبر أفندى" مفتى وخطيب قضاء "بولانيق" مع بعض الوجوه والعمد. كلفناه بإبلاغ أهالى "كيشنز" أن يحضروا ويدرسوا محاصيلهم ويأخذوا حاجتهم منها، ثم يبيعوا لنا التبن. أما القرويون فكانوا يعتقدون أن المحاصيل التى تقع فى حوزة الجيش لا يرجى منها خير، قياسا على الوقائع المشابهة السابقة. وفقدوا الأمل فى محاصيلهم. وبناء على بلاغنا لهم، هبطوا إلى التلال المجاورة لقراهم، وعندما رأوا محاصيلهم على حالها، بدأوا فى الاقتراب شيئا فشيئا مشدوهين، ثم درسوا محاصيلهم، وخزنوا تموينهم، وأعطوا الفرقة الإصلاحية التبن المتخلف من تلك المحاصيل ورفضوا أن يأخذوا ثمن التبن، لأنهم كانوا حتى ذلك الحين لا يستخدمون النقود فى تعاملاتهم. وكان محظور علينا قبول شيء مجانا، وعند الحديث معهم فى هذا، تعجبوا أن يكون للتبن ثمن، فدفعنا ثمن التبن إلى أهالى قرية " كيشنز " قياسا على ثمنه المعروف المحدد، الذى اشترت به الفرقة من قبل فى "خاصة "، "وإصلاحية ". وكانت السلع فى قضاء "بولانيق" مثل الزيت والبصل لا تباع أو تشترى بالنقود، لكننا تعاملنا فيها أيضا بنفس الطريقة، و هنا أيضا دهشوا لما رأوه من الفرقة الإصلاحية من مظاهرالعدل والإنصاف، وبدأوا فى التعود على تصرفات

الحكومة وألفتها. وعلى هذا النحو بدأ الضعف يدب يوما بعد يوم فى نفوذ وسلطة الزعماء المحليين.

ووصلت الكتيبة الموجودة منذ فترة فى مركز قضاء "بولانيق"، إلى "كيشنز"، وانضمت إلى الفرقة الإصلاحية. وفى هذا الأثناء وصل إلى الفرقة الإصلاحية "أرسلان باشا"، ومعه حوالى مائتان من رماة البنادق "الكرج"، وفرسان الشركس. كما وصل أيضا "محمد بك الشكردلى"، ومعه حوالى ثلاثمائة من الفرسان الأكراد مزودين برماحهم، وكانوا جميعا من خيرة الجنود، ويتسمون بالنظام والطاعة لقياداتهم. وهكذا أصبح أكثر فرسان الأكراد من أمراء وزعماء العشائر، كما انضموا إلى "محمد بك" ومعهم عدد من فرسان كل عشيرة (على سبيل الفخر) حتى إن "محمود أغا" المشهور، وهو أحد زعماء جبل "درسيم" جاء ومعه عدد من الفرسان. وكان يهدف من مجيئه الوقوف على حقيقة الأحوال فى حالة توجه الفرقة الإصلاحية إلى "درسيم"، وكان أشد ما أثار دهشة أشقياء جبل البركة هو رؤيتهم "لمحمود أغا"، ومعه حوالى خمسة عشر أو عشرون من الفرسان المسلحين المزودين بالبنادق، وهم على تلال ذلك الجبل، الذى يصعده المشاة بصعوبة بالغة. وكان المتصور أن يكون التحرك من "بولانيق" لإخضاع "ابن على بكر " بالسير من خلف الجبل، لكن الطريق الموصل من هنا إلى معقل "ابن على بكر"، والذى يمر "يارپوز". كان هو ناحية " قيى" التابعة لسنجاق "پياس" فى جهة "چقوراوه" من جبل البركة، وكان التوجه من هذا المكان إلى معقل "ابن على بكر " أكثر سهولة. وأثناء محاصرة المتمردين من كل اتجاه، نما إلى علمنا أنهم يقضون بعض احتياجاتهم الضرورية من ناحية "قيى"، فتقرر السيطرة على تلك الناحية، وأن تتم مهاجمة المشاة من هناك.

وبمجرد وصولنا إلى "چقوراوه" أعلنا إلى كافة الأطراف، أن تنهى حساباتها مع "حلب"، "ومرعش"، لأن كافة تعاملاتنا سوف تكون مع ولاية "أطنه"، وجاء أصحاب المستحقات المالية إلى قرية "كيشنز"، وسددنا مستحقاتهم نقدا وبحوالات، وانتهت صلتنا تماما " بمرعش " و"حلب".

كما عاد إلى حلب "مرسل زاده مصطفى بك"، الذى كان مكلفا بحراسة خط رجوعنا ومعه رجال شرطة حلب، كذلك "سيد باشا" قائد منطقة حلب. لكن بقى معنا أمير اللواء المرافق، "وحسنى باشا".

وأرسلنا الباشا المرافق "وحسنى باشا" رئيس الأركان مع فصيلة من الفرسان، وكتيبتين من المشاة إلى ناحية "قيى" لاستكشاف الطريق. ووصل أمير اللواء "حسن باشا " من "پياس" إلى هناك وبمعاينة المكان، اتضح أنه من المناسب أن يستقر الجيش فى الجانب الشمالى من قرية "حاجى عثمانلو" مركز ناحية " قيى ". وفى اليوم الخامس والعشرين من شهر ربيع الأول، تحركنا بالفرقة الإصلاحية من قرية " كيشنز "، وهبطنا إلى اتجاه " چقورراوه " وقضينا الليل فى موقع يسمى "باج بورنى " على مسافة أربع ساعات من قرية "كيشنز"، وفى الصباح نصبت الخيام فى شمال قرية " حاجى عثمانلى"، وتمت تعبئة كتائب المشاة التسع التى معنا و ذلك لأن قرية "حاجى عثمانلى" تقع فى أحد وديان جبل البركة، وطرف منها يقع على حافة "چقورراوه "، والجانب الآخر يمتد فى اتجاه الشمال. ولما كانت [هذه القرية] طويلة [من حيث الامتداد]، فقد نصبت الخيام فى الجانب الشمالى، خلف الجبل الواقع فى الجنوب الغربى منها. وتمت السيطرة على التلال المحيطة بها. وبدأت الفرقة فى بناء قلعة هناك، واستقر لواء الفرسان وفرسان " الكرج "، والشركس، والأكراد أيضا، فى أحد الأماكن المستوية فى " چقورراوه " فى جنوب القرية.وتمت محاصرة " ابن على بكر " من كل ناحية، فقد كان الهدف من تحركاتنا.

وحسبما عرضنا من قبل، ففى أثناء تردد "حسين حسنى بك" كبير مرافقى عبدكم ـ وهو من مقدمى الأركان الحربية ـ على "قورت إسماعيل باشا"، استطاع أن يستميل الرأى العام بصورة متزايدة. وعن طريق إجراء لقاءات مع العلماء ورؤساء العشائر، فى الوقت الذى أعلنا فيه بيانات العفو العام، انقسم الرأى العام فى "قوزان" إلى قسمين: قسم تابع "لابن قوزان"، كما كان من قبل، والقسم الآخر يميل إلى الخضوع للفرقة الإصلاحية، وبناء على هذا بدأ بعض وجهاء "قوزان" فى التردد على الفرقة الإصلاحية.

حتى إن " حاجى بك" شقيق "يوسف أغا "، زعيم " قوزان الشرقية، " ومحمد أفندى" مفتى قضاء "خاچين" أكبر أقضية "قوزان"، وبعض وجهاء "قوزان الشرقية"، قد أبلغوا "يوسف أغا" أن السلامة والسعادة فى طاعة الفرقة الإصلاحية. ولما لم يستجب للنصحية، انضموا إلى "قورت إسماعيل باشا"، وجاءوا أثناء وجود الفرقة الإصلاحية فى قرية " كيشنز "، وعرضوا الأمر بعزل" يوسف أغا " وتنصيب "حاجى بك" مديرا "لقوزان الشرقية" على أن يُسجل مائة شخص فى الشرطة. وعندما وصل "حاجى بك" مع رفاقه إلى ناحية "مغارة"، أعطاه "إسماعيل بك" عددا من الفرسان لمرافقته، وأرسله إلى "خاچين"، وقرأ أمر "حاجى بك" أمام أهالى القرى والأقضية المجاورة،وبدأ فى القيام بمهام وظيفته. وبناء على هذا، توجه "إسماعيل باشا" بمفرزة إلى "قوزان الشرقية" ونصب الخيام فى وادى "عين الروم" على مسافة ساعة من "خاچين".

وكان "حاجى بك" ابن زعيم منطقة "قوزان"، يأتى إلى الفرقة الإصلاحية، ومعه "حاجى بك" ابن "جركس بك" المتوفى، وأمير عشيرة "أفشار"، أحد عشائر التركمان التابعة "لقوزان"، و يشكو من الحكومة المحلية.

وكما عرضنا من قبل، فإن العشائر المهاجمة كانت أثناء ترددها على الهضاب فى أيام الصيف، تقوم بتخريب الأماكن التى تمر بها، ويلحقون الضرر بالأهالى الآمنين، فيسرقون ثرواتهم.

وكانت الهضبة المستطيلة مصيفا للأغلبية. ولما قررت الدولة إسكان المهاجرين الشراكسة هناك، منعت الفرقة الإصلاحية العشائر من الخروج إلى الهضاب هذا العام. وكانت عشيرة "أفشار" تقضى فصل الشتاء فى "چقورواوه"، وتذهب فى الصيف إلى الهضبة المستطيلة. ولما شُرع فى إسكان مهاجرى الشركس فى الهضاب الموجودة هناك، تمسك "حاجى بك" بإسكان عشيرته فى أراضى "صاريز"[1] المجاورة لتلك المنطقة. ولأن هذا موافق للأصول التى اتخذتها الفرقة الإصلاحية،

---

(1) مركز قضاء يقع جنوب " عزيزيه "، فى سنجاق " سيواس ".

كان ينبغى أن تقدم له الحكومة المحلية التسهيلات اللازمة. لكن حدث العكس، وأظهرت له الصعوبات، فجاء إلى الفرقة الإصلاحية على النحو السالف، وعرض قضيته. فخيرتُه بين أن يقضى فصل الشتاء هناك، أو أن يقضيه فى "چقوراوه". ففضل أن يقضيه فى الهضبة. فكتبنا التعليمات اللازمة إلى القائمين على الأمر، لكى يقدموا له التسهيلات فيما يتعلق بالأماكن المخصصة لسكنى عشيرة "أفشار"، فى أراضى "صاريز". وأبلغت "قورت إسماعيل باشا" بالأمر لكى يبذل له العون فى هذا الشأن.

وأهل عشيرة "جريد" أقل ضررا مقارنة بعشيرة "تجرلى". وقد جاء إلى الفرقة الإصلاحية "قره فاطمة" الذى وصل إلى إستانبول أثناء حرب القرم، والتحق بالجيش، وكان رئيسا لبطن أحد العشائر، فأحسنت الفرقة الإصلاحية استقباله، وخصصت مكانا لإقامته.

كذلك كان "سليمان أغا" كبير أمراء "تجرلى"، رجلا مأمون الجانب، أما رئيس أحد القبائل ويدعى "قره كخيا"، فقد كان شريرا، والتف حوله أشقياء "تجرلى" من أصحاب النفوذ فى العشيرة، فانتشر ضره. وعندما مُنعت العشائر من الذهاب إلى الهضاب هذه السنة، على النحو المذكور، خرج "قره كخيا" بقبيلته من مشتاه داخل حدائق "هارونية" فى "چقوراوه" إلى قضاء "بولانيق"، وعندما أصر على التحرك من هناك إلى "الهضبة المستطيلة"، صدر أمر لكتيبة "بولانيق" بضربه، فانسحب إلى الداخل، وغنمت الكتيبة الكثير من حيواناته. وكما ذكرنا من قبل أيضا ـ فإن الباشا المرافق، و"حسين بك" رئيس الأركان، اللذين ذهبا من "بولانيق" إلى ناحية "قيى" لاستكشاف الطريق. قد اصطدما فى الطريق بعدد من فرسان "تجرلى"، فجرح ملازم من الفرسان وعريف وجنديان، كما قتل وجرح حوالى خمسة عشر رجلا من فرسان "تجرلى"، وألقى القبض على بعضهم أحياء، وأُخذ الكثير من حيواناتهم غنيمة.

وأثناء وجود الفرقة الإصلاحية فى قرية "حاجى عثمانلى"، كان كبار أمراء

ورؤساء "تجرلى"، "وجريد" يترددون عليها لمناقشة أمورهم وتسويتها، لكن "قره كتخدا" رئيس أكبر قبائل "تجرلى" وأشدها ضررا، جاء والخوف مسيطر عليه لكن لم نلتق به. وهاجمته الفرقة عدة مرات، وكانت تحافظ على ما يقع فى يدها من حيوانات كثيرة؛ كبيرة كانت أو صغيرة. ورغم أننا اتصلنا به وأعطيناه الضمانات لكى يأتى ويتسلم حيواناته، لكنه لم يستطع الحضور بسبب كثرة سوابقه، وظل هائما على وجهه هنا وهناك.

وكان "سليمان أغا" أمير أمراء "تجرلى" رجلا عجيبا لا يبالى، فاستدعيته ذات يوم، وسألته: "ماذا سنفعل بحيوانات قبيلة "قره كتخدا"! فإن لم يأت بنفسه، واستطعت أن تتعرف أنت على أصحابها، فسلمها لهم". ولأن "سليمان أغا" كان مهموما فى ذلك اليوم، فقد أجاب محتدا: "يا سيدى، لماذا تضخم مثل هذه الأمور إلى هذه الدرجة، أنتم تسألون عن أصحاب هذه الحيوانات، وأهل "تجرلى" لا يملكون حيوانات منذ زمن بعيد، فكلها حيوانات مسروقة ومأخوذة غصبا من هذا وذاك، ولا يعلم أصحابها الأصليين إلا الله. وقد وقعت الآن فى أيدى الجنود، وبالتالى فهى غنيمة لهم. لكن ما دمتم مهتمون بهذا الأمر إلى هذه الدرجة فيمكن أن تعتبروها من بقايا الضرائب وتعتبروا هذا جميلا منكم لعشيرة "تجرلى"، التى لا تستحق الإحسان". وقد أخذنا بقول "سليمان أغا"، فقمنا ببيع الحيوانات، واعتبرنا ثمنها من بقايا الضرائب [المفروضة على] "تجرلى".

أما سبب حدة "سليمان أغا " فى ذلك اليوم، فذلك أن الزوجات فى عشيرة "تجرلى" اعتدن أن يطلقن أزواجهن. فترسل الزوجة لزوجها تخبره بقولها: "إننى لست سعيدة معك ". وبذا تطلق منه، ويعلن زوجها الأمر للعشيرة، ويسأل هل هناك من ترضى به زوجا، فإذا قالت امرأة: "إننى معجبة به". تزوج منها. وكان "سليمان أغا" يبدو حزينا، لأن زوجته طلقته فى ذلك اليوم.

نواحى قيى

نواحى " قيى"، تدخل فى دائرة نفوذ أبناء "كجوك على"، لكن نفوذ "ابن على

بكر" كان يسرى عليها. إلا أن أهل "قيى" كانوا مضطرين إلى إظهار الطاعة [للفرقة] لوجودهم فى مقر جيشنا، على الرغم من أن بينهم من يميلون إلى " ده ده بك " الذى لجأ إلى" ابن على بكر " واحتمى به. وكان أهل " قيى " بدائيين، وليس لهم أى علاقة تجارية بأى ناحية من النواحى، لأن هذه المنطقة أقرب إلى البحر منها إلى قضاء " بولانيق "، وأهلها على بداوتهم. ولا يستخدمون النقود فى تعاملاتهم إذ ينحصر مصدر معيشتهم فى الزراعة والرعى، وكان أطفالهم حتى ذلك الوقت لا يعرفون ماهية النقود. إلا أن بينهم رؤساء على قدر من الوعى، مثل "صارى كاه أغا "، "وأرسلان قورت أغا ". وبدأ الكثير من تجار " أطنه " فى التردد على الفرقة الإصلاحية، ومعهم كل ما يمكن من السلع ويبيعونها هناك. وقد أدرك القرويون حتى الأطفال منهم قيمة النقود وهم الذين لم يروها من قبل. وكانت العطايا تبذل لأبناء المختارين، لينقلوا المكاتبات المهمة إلى مختلف النواحى، فكانوا يعملون سعاة بريد بالأجر. والحقيقة أنهم أفادونا كثيرا فى مهمتنا.

وقد اتخذنا من قضاء ناحية " قيى" مركزا لقرية "حاجى عثمانلى"، وأطلقنا عليه اسم "عثمانية". وألحقنا ناحية "ابن قره يكيت" من منطقة "أولاشلى" بقضاء "إصلاحية"، كما ألحقنا ناحية "ابن قيپاق" بقضاء "بولانيق"، وناحية "ابن چند"، بقضاء "عثمانية" لقربها منه. وعينا كلا من "أرسلان قورت أغا" ممثلا عن قرية "حاجى عثمانلى"، ورئيس مختارى قرية "أقيار"، "وأغا " ناحية "ابن چند" أعضاء بمجلس قضاء "عثمانية"، نيابة عن زعماء "أولاشلى". وتم تعيين "رستم أغا التجرلى" وهو الموظف المكلف بالحفاظ على "باج بورنى"، برتبة مدير "تيجرلى"، عضوا بمجلس"عثمانية"، على أن يكون ضمن أعضاء المجلس طالما كان موجودا فى " عثمانية "، وخصصنا مرتبات لكل أعضاء المجلس.

التحرك إلى قوزان الغربية

فى هذه الأثناء، بدأ البعض فى التردد على الفرقة الإصلاحية، مثل "أحمد بك ابن كوكولى" أمير ناحية "سونباس" الواقعة على حدود "قوزان" والتابعة لقضاء

"قارص ذو القدرية "، " وأحمد أغا ابن كَنج أوغلان " رئيس ناحية "ياغ باصان" التابعة لناحية "سونباس". كما أظهر أمراء وزعماء العشائر المقيمة فى الأطراف والأكناف الطاعة، وفى مقدمتهم "قورت إسماعيل" أمير "قوزان الشرقية" كما ذكرنا سلفا. ولأن مركز القوة هو "قوزان الغربية"، فكان ينبغى على "قورت إسماعيل" إذا حان وقت الذهاب إلى هناك، أن يقصف أولا ناحية "ابن على بكر" مركز تجمع اللصوص وقطاع الطرق، فالأمر الأهم والألزم هو تفريق شمل اللصوص وقطاع الطرق.

ومهارة "درويش باشا" فى حروب الجبال أمر مسلم به، وغنى عن البيان مدى صعوبة التحركات العسكرية فى جبل البركة، بسبب عدم معرفة دروبه ومسالكه. كما أن به وديان عميقة وضيقة جدا ومليئة بالغابات، وتعترضه عقبات كثيرة.

وانتقى"درويش باشا" سبع كتائب، فترك ضعاف البنية فى معسكر الجيش، واختار الأشداء، وارتدوا جميعا أحذية خفيفة، كما أعطى كل واحد منهم جرابا بدلا من الشنطة، ووضع فيه خبزا جافا يكفى لمدة ستة أيام وما يكفى من الذخيرة. وطلب من الأمراء والضباط أن يمتطوا البغال بدلا من الجياد لصعوبة تحرك الجياد فى مثل هذه الجبال. وترك فى المعسكر مدفعين من خمسة من مدافع الجبال (المششخنة) ذات الطلقات الست. ووضعت المدافع الثلاثة ومدفع هاون خفيف على ظهور البغال. وبينما هم على أهبة التحرك، أراد فرسان " أرسلان باشا " الخروج معه للقتال فقلت لهم: " إن الخيول لاتتحرك بسهولة فى هذه الجبال كما أنكم لن تجدوا علفا لها فى الجبل". فقالوا: "نحن لا نريد منكم علفا، فنحن نربى حيواناتنا على أوراق الشجر. وإذا لم نجد ما نأكله، ذبحنا خيولنا وأكلنا لحمها". فقلت لهم: "مادام الأمر كذلك، فلتصحبكم السلامة".

بناء على ذلك، انطلق "أرسلان باشا" إلى الجبل ليكون مقدمة للجيش، ومعه مائتان وأربعون من رماة البنادق من فرسان "الكرج" و"الشركس". وكان هذا فى

يوم الخميس غرة ربيع الأول، الموافق الثانى عشر من أغسطس. كما تحرك "درويش باشا " بالفرقة خفيفة الحركة سالفة الذكر، وذهب "إمام بك" خصم أبناء "كجوك على"، وهو من سادة سنجاق "پياس"، أى "عُزَيْر"، برفقة المشير المشار إليه، ومعه مائتان من أهل "پياس"، وعساكر المشاة العاملة بالأجر، وحوالى مائتين من أهالى ناحية " قيى"، الذين استدعيناهم بالنفير العام[1]. كما تحرك من أغوات " أولاشلى" أبناء "چند"، "وقيـپاق"، "وقره يكيت" ومعهم بضع مئات من أهل "أولاشلى" من حملة البنادق ذات الطلقات الست. ولأن كل هؤلاء كانوا من المؤلفة قلوبهم ولا يمكن الثقة فيهم، إلا أن عدم تعاملهم مع اللصوص قطاع الطرق كان مفيدا جدا بالنسبة لنا. فقد كان من الواضح أنهم لو اتحدوا مع المتمردين، فإن أشقياء "تيجرلى" وكثيرا من المجرمين الذين يجوبون الأطراف سيتمردون، وعندئذ سيزداد الأمر صعوبة.

ظل عبدكم فى معسكر الجيش نائبا عن قائد الجيش بصلاحياته، وخرجت ست فصائل من المشاة خلف الجند الذاهبين إلى القتال لتشييعهم. واصطحبت معى "أحمد أغا بن كَنج أوغلان"، وارتقينا قمة الجبل، ورأينا تجمع اللصوص على الهضبة المواجهة لنا،حيث يقيم " ابن على بكر "، لكن الوديان العميقة كانت تفصل بيننا.

وأرسل " درويش باشا " كتائبه تباعا عبر طريق ضيق، وهو فى مقدمتهم ووجه فوهة أحد المدافع ذات الطلقات الست إلى أعلى وأطلق قذيفة انطلقت، وانفجرت وسط تجمع اللصوص قطاع الطرق فأثارت أديم الأرض، وتفرق اللصوص على أثرها. وفى هذه الأثناء ظهر كثير من الفرسان مندفعين من أسفل هذا الوادى إلى أعلى مباشرة، وسمعت من يقول إن مجموعة من لصوص"تجرلى" يصعدون الجبل ليلحقوا برفاقهم. وظننت أن هؤلاء الفرسان من "تجرلى"، وكنا نستخدم النظارة المعظمة فى استطلاع الأمر، بينما "كَنج أوغلان" يرى بعينيه المجردتين أفضل من رؤيتنا نحن بالمنظار، فأخبرنا أن الصاعدين الجبل ليسوا إلا فرسان "أرسلان باشا".

---

(1) نفير عام، تعبير يعنى استدعاء كل الأفراد للتوجه إلى ميدان القتال فى أوقات الحرب.

وأكدت مناظيرنا المعظمة هذا. ووصلوا إلى هناك قبل أن يزول أثر التراب الذى أثارته قذيفة المدفع. وهجموا على اللصوص قطاع الطرق، الذين لاذوا بالفرار من الجبال الوعرة إلى أسفل مباشرة، لكن الجنود انقضوا عليهم كالنسور، وتعقبوهم وغابوا تماما عن أبصارنا، وعندما وصل الجند بخيولهم إلى أماكن وعرة، لا يمكن للخيل أن تسير فيها، ساروا على أقدامهم، وأشهروا سيوفهم ورماحهم، وفرقوا اللصوص.

فى هذه الأثناء، خرج من الوادى الواقع على يمين الجيش، "أحمد أغا" المعروف "بدلى فقيه "، وهو الأخ الأصغر "لعلى أغا ابن على بكر"، ومعه بضع مئات من قطاع الطرق، وأطلقوا النار على كتيبة المؤخرة، فسقط حوالى خمسة أو ستة من الجند، والمقدم الجرّاح الذى يتقدم الكتيبة. وأسقط فى يد "رديف أفندى" مقدم الكتيبة (هو رديف باشا وزير الحربية فيما بعد) فماذا عساه أن يفعل لمواجهة هذا الهجوم المفاجئ!

وكنا على مقربة من كتيبة المؤخرة، لكن حالت العقبات بيننا ومنعتنا من التحرك، لأن جبل البركة يحتوى على وديان كثيرة ضيقة عميقة، بحيث إن من يقفا على ذروتى جبلين، يمكن لكل منهما أن يرى الآخر ويسمعه ويفهم مقصده، ولكن أتى منهما لا يمكنه الوصول من جبل إلى الآخر إلا فى غضون ساعة، وعقبة كهذه فصلت بيننا وبين "دلى فقيه". وكان من الواضح أن "رديف أفندى" قد أسلم قيادة الكتيبة لقائد غير كفء، وأن هذا القائد أطلق النار ليفرق اللصوص، لكنه أوقع نفسه فى مأزق. أما الجنود، فكانوا ينتظرون صدور الأمر لهم بالتحرك، وكان "دلى فقيه" يصيب ما يشاء من أهداف. وعلى الفور، استدار أمير اللواء "إبراهيم بك" إلى الخلف، ومعه فصيلتان من حملة البنادق ذات الطلقات الست، وعندما بدأ فى إطلاق النيران على قطاع الطرق، انهزموا ولاذوا بالفرار إلى أسفل. لكن طلقات بنادق " إبراهيم بك " أصابت من موقعها كثيرا منهم.

فى هذه الأثناء، عاد "درويش باشا"، بالجرحى، وعدنا بدورنا إلى المعسكر،

واهتممنا بمعالجة الجرحى، وشفى بعضهم، إلا أن الطبيب الجراح وبعض الجنود قضوا نحبهم.

وفى تلك الليلة جاء بعض المختارين إلى الخيمة، والتقوا بعبدكم وقالوا: "إن مسألة هذا الجبل قد انتهت تماما الآن. وأكبر حيلة لأهل "أولاشلى" هى الفرار من أمام الجيش الذى يهاجمهم. وبعد أن يتوغل هذا الجيش قليلا فى الجبل، ينقضون عليه من يمينه مرة أخرى، غير أن تصرف أمير اللواء "إبراهيم باشا" أفسد خطتهم هذه المرة، فأصاب سكان الجبل بالفزع والخوف. وجعلهم لا يجرأون من الآن على الاقتراب من الجند". والواقع أن أهل الجبل لم يستطيعوا الاقتراب من العساكر السلطانية، بعد أن ذاقوا طعم الرصاص.

وعاد "حسين حسنى بك" مرافق عبدكم الموجود فى "قوزان"، فى نفس يوم خروجنا إلى الجبل لتشييع "درويش باشا" على النحو المذكور سلفا، وجاء معه إلى "عثمانية" كل من "عمر أغا" والد "أحمد أغا" زعيم "قوزان الغربية"، "ومحمد أفندى" مفتى "سيس"، وبعض وجهاء وكبار " قوزان الغربية "، وذوى المكان من زعماء العشيرة، " وخليل بك " شقيق مدير " قوزان الشرقية ". وعندما رجعت إلى المعسكر تقابلت معهم وأقمت لهم الخيام واستضفتهم لحين عودة " درويش باشا ".

وكنت ـ عبدكم ـ أمرّ كل يوم صباحا ومساء للتفتيش على المرضى ورجال الشرطة والمواقع العسكرية، وأختلس الوقت لمقابلة ضيوفنا ـ وأبذل قصارى جهدى فى طرح موضوعات تتعلق "بقوزان"، شفعها بالأدلة المقنعة ـ لاستمالتهم.

وكان " عمر أغا "يتعجب لتجولى وتحركى على هذا النحو، وعندما سأل بعض رفاقه عن سبب هذا، قالوا له: " إن الباشا القائد مشغول بالحرب فى الجبل ولهذا فإن السيد قاضى العسكر، يقوم بمهامه". فسأل: " وهل الباشا المشير يفتش على هذا النحو؟". فأجابوه: " إنه لا يكف عن العمل ". وعندما أبدى " عمر أغا " تعجبه من هذا، قالوا له: " إن أداء العمل يعنى الاهتمام بالجند على هذا النحو ".

وقال له "أحمد أغا بن كَنج أوغلان"، الموجود هناك: "يا سيدى، يجب أن يكون الجيش على هذا النحو. ولكن هذه الترتيبات وتلك الإجراءات لا تتحملها هذه الجبال، ولا تصمد أمامها جبالنا". فقال " عمر أغا ": "نعم إن الحق معكم، وسوف أنصح ابنى "أحمد أغا"بأن يسلم بهذا، وإذا لم يستجيب للنصح، فسوف أتركه وآتى إلى الجيش، وأعلن طاعتى، وهذا ما أملكه".

و"عمر أغا" رجل واع مطيع. أما "أحمد أغا" فكان فظا خشن الجانب ؛ ولذا كان يشك فى أنه سيتقبل النصيحة، لكن الأهالى كانوا سعداء وشاكرين لما لمسوه من آثار العدل والإنصاف فى كل مكان من"الإسكندرونة" إلى هذه المنطقة. وقد أشيع أن جلالة السلطان أرسلنا بكتاب وسيف، ولا مجال لاستخدام السيف مع من يستجيبون لما فى الكتاب، ومن لا يمتثلون للكتاب، فالسيف لهم. ولأن "حسين بك" أبلغ هذا إلى من فى الجانب الآخر من "قوزان"، فقد اتضح من سياق الأحوال أنه فى حال تصدى "أحمد أغا" للمقاومة، فسيكون معه أتباعه وعددهم حوالى مائتين أو ثلاثمائة شخص، وهم بمثابة حرسه الخاص.

ما أروع الأمة الإسلامية، إنها أمة مباركة، ولنعم الجند جنودها، سواء النظامية أوغير النظامية. فهم وإن اشتكوا فى أيام السلم من ضعف الراتب والمخصصات، فإنهم فى حال الحرب يقنعون بالخبز الجاف. وجنودنا غير النظامية، قليلا ما تصرف لهم مخصصات من حين لآخر، وأحيانا يحتجون إذا لم تصرف لهم هذه المخصصات. أما هذه المرة، فإن الفرسان الذين خرجوا إلى جبال "أولاشلى"، وظلوا فى "چقوراوه"، لا يريدون شيئًا سوى الخبز الجاف. لذا فقد ملأنى الحماس ولم أتهاون فى إرسال كل ما يصل من مأكولات ولوازم أخرى إليهم.

دخل "درويش باشا" ناحية "ابن على بكر"، وعندما توغل داخلها كنت أرسل له كل يوم فصيلة[1] أو اثنتين من الجنود الذين استدعيناهم من القرى والأقضية

(1) الفصيلة من الجيش تضم مائة جندى، ويقودها نقيب من الجيش، يطلق عليه "بلوك اغاسى".

المجاورة، وأرسلنا معهم قافلة من الذخيرة واللوازم الأخرى. ولذا كانت قوة فرقة "درويش باشا" تتجدد باستمرار. ولما كانت طاعة أهالى ناحية قيى أمر غير مضمون، لذا كنا نتراسل ونتخابر مع "درويش باشا" كل يوم مرة أو مرتين، بواسطة أهالى "عثمانية" المؤلفة قلوبهم ببذل النقود لهم. وقد أسدى لنا الشباب الذى أدرك الآن معنى الذهب خدمات جليلة. ولم تنقطع اتصالاتنا "بدرويش باشا" الذى يبعد عن موقع الجيش مسافة تسع ساعات، وقد طارد "درويش باشا" قطاع الطرق حتى قرية "كوللى"، وأقض مضاجعهم، وفقد "ده ده بك" "ودلى خليل" الإحساس بالأمان ولذا طلبا الأمان، فمنحهما "درويش باشا" الأمان، فجاءا إليه مستسلمين.

وأرسل "على أغا ابن على بكر" إلى "درويش باشا" بقوله: "إن مقاومتى لكم إلى الآن، إنما هى من أجل ضيفى هذين، وها أنا ذا بدورى أسألكم الحماية، فاذهبوا أنتم وسألحق بكم بعد أن أسوى أمورى المعلقة هنا". وقد وعد بهذا. وحيث إنه لا يمكن الثقة تماما فى وعده هذا، فقد أرسل "درويش باشا" إلى ـ عبدكم ـ يسألنى الرأى فى هذا الخصوص، مع الوضع فى الاعتبار برد الجبال القارس، وكون الجند فى العراء. ولأن الجنود شغلوا بالقتال فى الجبال المكشوفة المتفرقة سبعة أو ثمانية أيام بلياليها، فقد ذهبت إلى خيامهم، واطلعت على الأعمال المهمة الخاصة "بقوزان"، ورأيت أنه من المناسب أن يعود الجنود على الفور.

وبناء على ذلك عاد "درويش باشا"، وخرجنا لاستقباله، وعندما اقترب من مقر الجيش، كان برفقته "ده ده بك"، و"دلى خليل" متمنطقين بأسلحتهما، وتحت قيادتهما جندهما على غرار العساكر غير النظامية. وأحضر "درويش باشا" معه أيضا بعض الأسرى مكبلين. وهبطت العساكر السلطانية من أعلى الجبل كالصقور.ثم توجهنا إلى الخيام للاستراحة. وقد دهش أهل "قوزان" وأعجبوا لرؤية العساكر السلطانية وهى تهبط الجبل بهذه السرعة وهذا الانتظام. وبعد أن تقابل "عمر أغا" ورفاقه مع "درويش باشا" رجعوا إلى "قوزان" برفقة "حسين حسنى بك ".

وأصبح الأمر الآن مقصورا على "أحمد أغا" زعيم "قوزان الغربية". وكان "يوسف أغا" المقيم فى "كورلشين"، زعيما فيما مضى "لقوزان الشرقية"، وكان ينتظر تحرك "أحمد أغا". و لكن أخيه "حاجى بك" أصبح ممثلا للحكومة فى "خاچين"، لذا عُيِّن مديرا "لقوزان الشرقية" بدلا منه على النحو السالف.

لهذا رأينا أنه من الضرورى التوجه فورا صوب "قوزان"، وأرسلنا "أحمد مختار بك"، وهو من أركان الحرب. ومعه عددًا من الفرسان ليستكشف الطريق أمامنا. ونظرا لكثرة المراعى الجافة التى تعترض طريقنا، كان يجب حرق هذه المراعى فى بعض المواقع لشق الطريق أمامنا، وعندما أرسل (أحمد مختار بك) يطلب مزيدا من الجند، أرسلنا له تسع كتائب مشاة ولواء من الفرسان النظامية، وكثيرا من الفرسان غير النظاميين، وحوالى ألفين من الدواب. وبدا لنا أن المراعى ستعوق مرور الفرقة المرسلة، ورغم هذا أرسلنا الجند إلى " مختار بك"، بناء على طلبه.

وفى منتصف ربيع الآخر، تحركت الفرقة الإصلاحية من "عثمانية"، وعبرت نهر "جهان"، ومكثت ليلة بين أطلال قلعة "همیته"، وليلة أخرى على حافة نهر "جهان"، وصدقنا على إشعار " مختار بك". ولو أن العساكر الذين أرسلوا من قبل لم يحرقوا العشب ولم يفتحوا الطريق أمامنا، لعانينا مشكلات جمة أثناء المرور وسط هذه الأعشاب المدببة كأسنة الرماح.

وكان "چقوراوه" هو العالم المجهول لنا. وعند اختراق فرسان الأكراد لهذه الأعشاب، كانت أسنة رماحهم لا تكاد تظهر، فنمو الأعشاب فى هذه المنطقة خارق للعادة، والأنهار والجداول الكبيرة والصغيرة تتدفق فى كل مكان، والمطر يتساقط فى فصل الشتاء. وفى حالة عدم سقوطه، تنمو النباتات بفعل قطرات الندى التى تتكون على الأرض أثناء الليل. وكان الطريق الذى نسير فيه جافا تماما، ذلك أن النباتات فى المكان كله تجف فى شهرى يوليو وأغسطس. وكانت بعض الأعشاب تبدو متناثرة هنا وهناك، وإذا ما نزعت هذه الحشائش ظهرت تحتها أعشاب جديدة من خمائل وبراعم تشبه الزمرد. لكن ما جدوى كل ذلك، فالأرض كلها خالية من

الزراعة، لأنها مكان تجوال العشائر. وخالية من كل مظاهر الحياة باستثناء أحجار المواقد وآثار الخيام المثناثرة فى مشاتى العشائر، وطيور الدراج تملأ المكان، وتحلق هنا وهناك. ومع أن قطعان الغزلان الشاردة، تضفى جمالا على هذا المرعى، إلا أن الخنازير والأفاعى الكبيرة والصغيرة، التى تظهر فى كل مكان، تبعث فى الإنسان الشعور بالوحشة والاشمئزاز.

وكانت حوالى ثلاثمائة أسرة من مهاجرى "النوغاى" الذين هاجروا من روسيا بعد حرب القرم، قد سكنوا ضفتى الجزء الشمالى من نهر "جهان"، وأنشأوا قرى بجوار قلعة "شاهمران"، فصارت ناحية جميلة، ونشروا العمران فى جزء صغير من "چقوراوه". لكنهم كانوا يعجزون عن حصاد محاصيلهم، التى تبلغ سبعين أو ثمانين وزنة قمح، ومائة وخمسين إلى مائتين وزنة شعير. لذا كانوا يستخدمون السلاح فى حماية أنفسهم من اعتداءات لصوص العشائر.

ووصلت الفرقة مبكرا إلى قصبة "سيس" فى اليوم الثالث لتحركها من "عثمانية"، واستقر الجيش خارج القصبة. ونزل "خليل بك" أخو مدير "قوزان الشرقية" ضيفا على خيمة أركان الحرب.

وجاء أبناء "قره يكيت"، "وقيپاق"، "وچند" وهم من زعماء "أولاشلى"، ومع كل منهم عدد من المشاة ورماة البنادق، ولذا خُصص لهم أيضا مكان ظاهر لخيامهم فى مقر الجيش.

ولم يكن فى قصبة "سيس" أحد سوى بعض الحراس. فبدت لنا القصبة مظلمة لخلوها من الأهالى حيث إن أهالى "قوزان" يذهبون جميعا فى الصيف إلى الهضبة. كما أنه لم يأت أحد من طرف "أحمد أغا" زعيم "قوزان الغربية"، لاستقبالنا، وقد اعتبرنا هذا علامة خوف وعصيان. وعقب ذلك جاء "قاتوغيكوس" الرئيس الروحى لأرمن "سيس"، وبدت مظاهر الاحتفال فى " مناستر"، وبعد ذلك جاء "على بك" الابن الثانى "لعمر أغا"، وبصحبته بعض الأعيان، وأعلن أن والده متوعك منذ عودته من "عثمانية"، وأبلغ عن ذهاب أخيه الأكبر "أحمد أغا" برفقة المقدم "حسين حسنى بك"، إلى "اشه بوكار"، لإحصاء عدد السكان هناك.

وكان معروفا للدولة أن "عمر أغا" هو قائمقام "قوزان"، إلا أنه مُنع من السلطة فيها منذ ثمانية أعوام وأنشأ ابنه "أحمد أغا" إمارة مستقلة فى "قوزان الغربية". وقد اتضح أن " أحمد أغا " لم يستطع الحضور إلى الفرقة الإصلاحية لإحساسه بالخجل، ومع أنه قال "لحسين بك" إنه سيأتى إلى "سيس" بعد القيام بإحصاء السكان، إلا أنه تكشف من سياق الأحوال أنه بفكره السقيم هذا كان يرمى إلى خداعنا والتمويه علينا لكسب الوقت، ليقوم بعد عودة الفرقة الإصلاحية، بإقامة حكومة مسيطرة، كما كان الأمر من قبل.

وكان سلوك "أحمد أغا" هذا نوعا من المقاومة بدون سلاح، لكن كان علينا أن نغض الطرف عن تصرفاته هذه، لأننا مضطرون إلى البقاء فى "سيس" لفترة قصيرة، حيث إننا لم نتأهب بعد للسفر.

والمسافة بين قصبة "سيس"، "وأطنه" ثمان عشرة ساعة، وليس فيها أى قرى أو قصبات. كما أن عشيرة "صيرقنديللى"، التى تقضى فصل الشتاء هنا، لم تكن قد هبطت بعد من الهضبة، وطالما أن أهالى "سيس" لم يعودوا إلى منازلهم بعد، فإن رؤساء العشائر أيضا يكونون بعيدين عن مواطن الشبهات. وكان من المعروف أنهم سوف يبدأون فى التردد على الفرقة الإصلاحية. وتبعا لهذه الحال، فلم يكن من الحيطة والحذر، البدء فى التحركات العسكرية قبل توفير مؤنة للجند فى قصبة "سيس" تكفيهم شهرا أو اثنين. وبناء على ذلك بدأنا فى إحضار تموين من "أطنه" على وجه السرعة. وأرسلت مكاتبة إلى "أحمد أغا" بأن يرسل أهالى "سيس" إلى القصبة، وأعيد ابنه "على بك" كى يرسل الأهالى، وفى الوقت نفسه، ليُعلم أخيه "أحمد أغا"، بضرورة الحضور إلى مقر الجيش، كما أبلغلنا "قاتوغيكوس أفندى"، بأن يعود أرمن "سيس" إلى ديارهم، وكانت سيرة "قاتوغيكوس" الحسنة وسلوكه مدعاة للشكر والامتنان، كما أن تصرفاته تبعث على الاطمئنان. وبناء على هذا بدأ بعض الأهالى "سيس" فى العودة إليها فبعضهم عاد بمفرده، وبعضهم عاد مع أهل منزله، كما بدأ وصول التموين من "أطنه".

والواقع أن "يوسف أغا" المدير السابق "لقوزان الشرقية "، كان رجلا يسعى بالدسيسة، ولأن القبائل والعشائر المتحيزة له فى قرية "كورلشن" كانت فى حالة عصيان. وقد تحقق له ما كان ينتظره من وضع حد للأوضاع فى"قوزان الغربية". فلما عُزل من خاچين، وعُين أخوه "حاجى بك" بدلا منه. وكان أخوه الآخر "خليل بك" فى الفرقة الإصلاحية، ولما انقسم أهالى "قوزان الشرقية" إلى قسمين، أرسلت رسالة إلى "قورت إسماعيل باشا " كى يتقدم بمفرزة على أن يتقدم [خليل بك] بمفرزة أخرى، لمساعدة الفرقة الموالية، ودخل "خاچين"، فقوى بذلك جانب " حاجى بك ".

وكان "خليل بك" طيب المعشر، عميق الفكر مقارنة بإخوته. وعندما أثيرت مسألة استحالة إقامته فى "قوزان" فى الوقت الراهن، رغب أن يخصص له مرتب كاف على أن يقيم فى "سيواس". وبناء على هذا خصص له مرتب قدره ألفين وخمسمائة قرش شهريا مدى الحياة. وسُلم له فى يده أمر، ليكون بمثابة سند مؤقت، إلى حين وصول البراءة[1] العالية له بذلك. وعرضت عليه رتبة إدارة الاصطبل السلطانى.

وكان من غير المعتاد إقامة صلاة (الجمعة) فى "قوزان"، فكان "يوسف أغا" ـ وهو يعرف القراءة والكتابة ـ يعتلى المنبر أحيانا ويخطب الجمعة فقط، ويقيم آخر الصلاة. وقد أقيم منبر من "الحجر" "والكلس" فى الميدان الواقع خارج قصبة "سيس"، وتولى أحد أئمة اللواء إلقاء خطبة الجمعة، و إقامة الصلاة. وحضر هذه الصلاة كل أركان الجيش، وأمرائه وكل الموجودين من أهالى "سيس"، ومن العشائر والقبائل المقيمة بها.

وأهل "قوزان" متدينون صالحون، وكان الفقهاء والمدرسون الموجودون معهم يشرحون فضل صلاة الجمعة. وأصبح أهل "قوزان" سعداء فخورين بإقامة صلاة

---

(1) والبراءة هى المرسوم الذى يتضمن امتيازا خاصا، أو رتبة أو وسام. وهى أيضا المرسوم الذى يحمل طغراء السلطان، ويمنحه لبعض موظفى الدولة، الذين يتولون القيام بمهمة ذات شأن، ويكتسبون بموجبه صلاحيات واسعة، للقيام بمهمتهم.

الجمعة، لأنهم لم يقيموها من قبل، ومن لم يحضروا الصلاة هنئوا من حضرها، وقد هزت هذه الصلاة أرجاء جبال "قوزان"، فزلزلت أركان حكم أبناء" قوزان".وبناء على هذا أنهينا إلى الباب العالى، أن يرسل براءة الخطابة فورا إلى إمام الجامع الشريف فى "سيس". ولم تصل هذه البراءة فى حينها، ولم نستطع إرسالها له بعد عودتنا إلى إستانبول . ولم تتوقف الشكاوى الوقحة التى وردت تقول: "أليس إصلاح وزارة الأوقاف، أهم من إصلاح "قوزان"، ولم ترسل هذه البراءة العالية إلى " قوزان " إلا بعد مرور ثلاث أو أربع سنوات. مصراع:

"إن القصير لا يشم رائحة الياسمين المنبعثة من طرف طرة الحبيب".

والحاصل، أن أغلب أهل " قوزان" انضموا إلى الحكومة السنية. ولذا جاء "محمد توفيق أفندى" مفتى "خاچين" إلى "سيس"، بمعلومات دقيقة حول أحوال "قوزان الشرقية". وقد أبلغنا "حاجى بك" مدير "قوزان"، عن طريق مفتى "خاچين" أنه يأمل فى نقل منزله إلى مكان آخر، لأنه أدرك الحالة التى ستؤول إليها "قوزان"، بسبب الإصلاحات الجارى اتخاذها، وأنه سوف يبذل قصارى جهده ليستحق عطف الدولة ونعمتها، وإزالة المخاوف التى تسببت فيها أوهام "أخيه الأكبر "يوسف أغا" وشكوكه، لكنه يرجو أن يُخصص له من الآن راتب كاف مدى الحياة مثل أخيه "خليل بك"، على أن يتسلم هذا الراتب من أموال "قيصرية". ولما كان أخوه الأصغر "مصدق بك" معتكفا، قد ضاق من الخلافات الواقعة بين أخويه، فقد نقل مقر إقامته إلى "قيصرية" فورا، بمعرفة "قورت إسماعيل باشا" قائد المفرزة، وأبلغه أنه ينتظر تخصيص راتب له من أموال "قيصرية".

وبناء على ذلك، خصص "لحاجى بك" مبلغ ألفين وخمسمائة قرش شهريا مدى الحياة، يتسلمها من أموال "قيصرية"، ومبلغ ألف قرش راتبا خاصا لأخيه "مصدق بك"، ومبلغ ثلاثمائة قرش شهريا، راتب المفتى "لمحمد توفيق أفندى"، على أن يتسلمها من صندوق مال " خاچين ".

وفى هذه الأثناء، أخذ بعض أعيان "قوزان الشرقية"، يترددون على "سيس". لكن "يوسف أغا"، كان يجوب الطرقات برفقة مجموعة من قطاع الطرق، ويتعرض لهم. وأصبحت منطقة " طبان " فى حوزة " يوسف أغا "، لأن " يوسف كتخدا " رئيس "طبان" كان صهر "يوسف أغا". وبناء على ذلك، كُلف "أحمد أغا ابن كَنج أوغلان" رئيس ناحية "ياغبصان" بتأمين الطرق فى تلك المنطقة، لتأمين تنقلات مفتى "خاچين"، وكل من يذهب أو يغدو فيها. ومع أن عشيرة "الريحانية" كانت قد تحولت إلى مديرية من قبل، إلا أن أهلها كانوا ولا يزالون يعيشون فى الخيام. ولهذا السبب فقد أبلغنا والى حلب بضرورة تحويلها إلى قضاء بالمعنى الصحيح، على أن ينشئ مقر الحكومة وكافة المبانى الحكومية من فائض الضرائب، مع إسناد منصب أمير أمراء مديرية "ريحانية" فى ذلك الوقت إلى "مرسل زاده مصطفى بك" رئيس العشيرة.

وكما ذكرنا من قبل، فإن "على أغا ابن على بكر" وعد "درويش باشا" بالحضور إلى الفرقة الإصلاحية، ووثق البعض فى هذا الوعد لما عُرف عن أهل القبائل والعشائر من الوفاء بالوعد، لكن أكثر أركان الفرقة الإصلاحية كانوا يرون أن الثقة فى وعد رجل طاغ باغ مثله، حماقة. ولكن حدث أثناء وجود الفرقة الإصلاحية فى "سيس"، أن جاء "على أغا "فى غرة جمادى الأولى، الموافق العاشر من شهر أيلول من الشهور الروسية، فأدهش من لم يثقوا فى وعده. ونزل ضيفا على " ده ده بك" "ودلى خليل" اللذين كانا فى ضيافته أثناء وجوده فى جبل البركة، وقد عومل باحترام شديد، وكرم زائد.

وبمناسبة ذكر "أحمد أغا" زعيم "قوزان الغربية"، فإنه عندما استفتى فرسان "قوزان" العلماء بشأن الفرقة الإصلاحية، بينوا لهم أن مقاومة جنود الدولة غير جائزة شرعا، وعندما استشار "أحمد أغا" رؤساء [القبائل] فى مقاومة الدولة رفضوا وفضلوا أن يسلكوا طريق الطاعة، ولذا لم يجرؤ "أحمد أغا" على المقاومة ولم يستطع أن يحسم أمره. وعندما تشاور فى الأمر مع "شاهين كهيا" رئيس أرمن "سيس"، وهو صديقه الذى يثق فيه، قال له بدوره: "إنك لن يمكنك المقاومة، وليس أمامك

سوى الاستسلام، ولو استطعت مجازا أن تقطع الوقت فى الهروب من جبل إلى جبل، فإن أهلك وأبنائك وأقاربك، وكل ما تملك سيقع فى حوزة العثمانيين، وفى الحالتين، كيف لك أن تنعم بلذة العيش. أما إذا استسلمت، فسوف تكرم فى كافة الأحوال". وعلى الرغم من هذا لم يستطع أن يحضر إلينا، كما أنه لم يجرؤ على إعادة "حسين بك "، وكان يتجول برفقته بحجة إحصاء عدد السكان.

وعرف "حسين بك" هذا بطريقة غير مباشرة، لكنه لم يستطع أن يكتب شيئًا صريحا. لكنه أبلغ تلميحا أنه سوف يقنع "أحمد أغا" بالحضور إلى الفرقة الإصلاحية. وكنت ـ عبدكم ـ أثق فيه ثقة مطلقة، لكن "درويش باشا" ضاق من الإقامة فى "سيس"، وأصبح الآن يتعجل عودة "حسين بك". أما عبدكم، فقد أرسلت خطابا "لحسين بك" بأن يعود فورا. ولم ينقض وقت طويل، حتى جاء "حسين بك" إلى "سيس"، ومعه "أحمد أغا" ووالده وأخاه، وكل أتباعه. وصادف يوم وصولهم إلى "سيس " على النحو السابق، يوم وصول "على أغا ابن على بكر" أيضًا.

ووصل إلى "سيس" فى تلك الأثناء أيضًا "حاجى عمر أفندى"، وهو رجل مبارك، قارب عمره المائة عام، من مشاهير العلماء والمفتين فى قرية" كيسة نيت " فى "قوزان الغربية". درس فى قيصرية، وحصل على الإجازة، وذهب إلى "قوزان"، ثم إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، وأثناء عودته التقى فى الشام بحضرة "مولانا خالد"، وأخذ عنه الوكالة، ولدى عودته إلى "قوزان" كان قد بلغ الثانية والخمسين من عمره، فقصر جهوده على نشر العلوم فيها. وخلال هذه الفترة، كان يتعيش مما يحصل عليه من الزراعة بكد اليمين وعرق الجبين، دون أن يقبل أدنى شيء من أحد، فقد كان يزرع الحقل، ويحمل ما يخرج منه من غلال إلى المطحنة، ثم يسلمه إلى زوجته بعد أن يصير دقيقا، فتصنع منه خبزا ويأكلان سويا. ومع أن أبناء "قوزان" يكنون له احتراما بالغا، لكنه كان لا يأكل مما يأكلون. وإذا اضطر للذهاب إلى أبناء " قوزان"، كان يضع طعامه على خروف يأخذه معه ليأكل منه. وكان أبناء "قوزان" كذلك لا يأخذون منه العُشور. وكان هدفه أن يأكل حلالا طيبا. وقد تراكمت عليه أموال حكومية كثيرة، لأنه لم يدفع العشور طوال اثنتين وخمسين سنة، وأصبحت

هذه الأموال تشكل عبئا عليه. وعندما جاء "سيس" هذه المرة، ذهب إلى خيمة "على رضا باشا" والى "اطنه"، وفاتحه فى الأمر، فقال له "على باشا": "إننى لست خبيرا بهذه الأمور، لكن هنا قاضى العسكر، فارجع إليه"، ثم أحضره إلى خيمة عبدكم. وقد سعدت بمعرفة مثل هذا الرجل التقى الصالح، وأبديت له الاحترام، وسألته عن حاله، وما يجول بخاطره، وعن السبب الذى كبده مشقة الحضور إلى هنا، فقال: "إننى منذ اثنتين وخمسين سنة أزرع بيدى حتى أكسب عيشى حلالا، وأعيش بما أحصده. لكن أبناء "قوزان" لم يأخذوا منى العشور. ولم أعمد أنا إلى دفعها، لأنه كان من البين أننى لو دفعت أموال العشور لغير المستحقين، فإنها لن تصل إلى محلها. وكان فى حكم المستحيل أن أجد صاحب المال الأصلى لأعطيها له. وقد أقمت فى "قوزان" لأنها موطنى، ومع أننى استطعت لسنوات طويلة أن أطهر كسبى وعملى من أى شبهة، لكننى لم أستطع أن أطهر أموالى، وبعد ذلك إن شاء الله الكريم، سأدفع العُشر الشرعى المقرر على إلى بيت المال، لكن ماذا أفعل فيما تراكم علىّ منه". فجاوبته: "إن للعلماء حق فى بيت المال، وحقك فيه محسوب مما عليك له". فقال: "نعم؛ لقد جال هذا بخاطرى. لكن فتح هذا الحق أمر متوقف على كلمة إمام المسلمين[1] ولأن جلالة السلطان لم يخصص لى شيئًا من هذا، فإننى لا أستطيع أن أبرئ نفسى من أداء هذه العشور".

قلت له: "إن الصلاحية التى منحنى إياها جلالة السلطان كافية لإصلاح الأمر، وتسامحنا معه باسم جلالة السلطان، وأمرنا على الفور بكتابة أمر بتخصيص راتب له قدره مائة قرش شهريا على أن يتسلمها من صندوق المال المحلى وسلمته [وثيقة] الأمر. فلما رفض، قلت له: "إن بقاء حق لرجل مثلك فى بيت المال، أمر لا يريح جلالة السلطان فخذ حقك". وأقنعته بقبول وثيقة الأمر، ثم سأل بعد ذلك: " ولمن يجب أن أعطى العشور؟". قلت: "من الأولى أن تعتبر" بلانكوى " مركز قضاء، وبالطبع فإن قرية " كيسه نيت " تدخل ضمن هذا القضاء، فلتدفعها إذن للموظف هناك، وبذا يصل العشر إلى بيت المال مباشرة".

---

(1) يقصد هنا السلطان "عبد العزيز" باعتباره خليفة المسلمين. وذلك لأن تعبير "إمام المسلمين" يعنى الخليفة.

فقال: "كان الغرض الأصيل من مجيئى إلى هنا تسوية بقايا العشور، لكن بقى لى أن أقول كلمة أخرى، وهى إن حال أبناء "قوزان" أمر معلوم لكم، لكننى رأيت كثيرا من مظاهر عطفهم، كما أن بيننا حقوقا كثيرة، ولذا فإننى أرجو أن تحسنوا معاملتهم قدر الإمكان". وقد طمأنته من هذه الناحية، وحسبما سيتضح فيما بعد، فقد أبدى "حاجى عمر أفندى" هذا تعاونا طيبا فى القضاء على التمرد، الذى ظهر فى "قوزان" بعد ذلك بعام واحد.

وبعد وصول "أحمد أغا" على النحو السالف، عين مديرا "لقوزان الشرقية" كسابق عهده، كما وصل إلى "سيس" بعد ذلك مباشرة "يوسف أغا "، الذى كان يهيم على وجهه، وأعلن طاعته.

وهكذا انتهى خطر "قوزان" تماما. لكن لم يبق أمامنا سوى تطهير المنطقة من المسيطرين المنتشرين هنا وهناك، بدون أن نثير مخاوف أبناء "قوزان". وكان من الضرورى إبعاد "أحمد أغا" إلى ناحية ما كلما جاء. وحقيقة الأمر أن "حسين بك" كان قد وعد "أحمد أغا"، عندما جاء إلى "سيس" فقال: " لو لم تستمر فى " قوزان"، فسوف تُعَيّن أمير أمراء سنجق كبير من سناجق "قوزان". أما "أحمد أغا"، فكان يريد ـ فى حالة بقائه ـ إما سنجاق "قيصرية" أو "نيكده"، لكن تعيينه فى أحد هذين السنجقين، سيجعله وكأنه لم يخرج من "قوزان". وهذا أمر لا يتواءم مع ما قمنا به، أما إذا أرسلناه إلى "الروم ايلي"، فسيهرب من هناك، لإحساسه بالغربة. وبذا يثير مخاوف بقية الأمراء، ويصبح الأمر كمن سكب ماءً باردًا على طعام ساخن.

وعند مناقشة هذه الأمور مع "درويش باشا" وبعض الأمراء، ظهر أن إقليم "كوتاهيه" الواقع داخل ولاية البوسنة يبدو مناسبا له. ورأيت أنه من المناسب أن يعين "أحمد أغا" فورا بمتصرفية سنجق "كوتاهيه" برتبة أمير أمراء، ولو أن تلك المنطقة تعتبر خارج دائرة الإصلاحات. إلا أن "فؤاد باشا" كان يقدر مثل هذه الأحوال الخاصة. ويعرف أنه لو لم تكن هناك ضرورة قصوى، لما تصرفنا بهذا الشكل. وعلى الفور، أبرقنا إلى "فؤاد باشا فى اليوم الخامس من جمادى الأولى، بأنه: "جاء "أحمد أغا" ابن "قوزان" واستسلم إلى الجيش، وعين بمتصرفية "كوتاهيه"

برتبة أمير أمراء. وهو على وشك الإبحار إليها، وكان من الضرورة والمصلحة أن يطلق عليه لقب "الباشا "، أثناء وجوده هنا. ولأن هذا أمر مرهون بالإرادة السنية، لذا يرجى سرعة إشعارنا برقيا باستصدار الإرادة السنية. وفى صباح اليوم التالى، وصلت البرقية السامية المرسلة بالرد من "فؤاد باشا". وجاء فيها: "لقد حصلت على إرادة سنية شفوية، وجارى اتخاذ الإجراءات الرسمية بشأنها. فامنحوه لقب "باشا"، وقد كتبنا إلى "بروسة" مركز الولاية، للاعتراف بمهمته لدى وصوله. ولو كان هناك صدر أعظم سوى "فؤاد باشا" لتأخر الرد مدة أسبوع. ولو حدث هذا، لتبددت جهود الفرقة الإصلاحية، ولظلت " قوزان " على نفس حالها من الفوضى. وهذا ما اتضح لنا فيما بعد.

وبناء على البرقية السامية المذكورة، أخذنا زى السيد محاسب الجيش، وزينا أحد الجياد، واستعد المرافقون والجاوشية، ثم استدعى "أحمد أغا"، وارتدى الزى الرسمى، وبعد ذلك حضر إلى خيمتى ـ عبدكم ـ وتم تكليفه بقائمقامية إقليم "كوتاهيه" بلقب "أحمد باشا". وكان ذلك فى حضور كل الأمراء العسكريين، ثم أرسل فى موكب إلى القصر الكائن داخل القصبة، وانشغل هو أيضا بالاستعداد للسفر. وخصص له مبلغ ألفين وخمسمائة قرش شهريا، بالإضافة إلى راتب الوظيفة.

كما خصص مبلغ ألف قرش شهريا مدى الحياة لأخيه "على بك". وأيضًا راتب شهرى مدى الحياة لوالدهما "عمر أغا " قدره أربعة آلاف قرش. وكان " عمر أغا" يأمل أن تعطى له مزرعة فى "قونية" ليقضى بقية عمره هناك. وقد أعطيت له كلمة قاطعة بهذا. وتم تجهيز الأوراق اللازمة، وصدرت الأوامر بإرسال الأمراء الآخرين إلى الأماكن التى حددت لإقامتهم، فمنهم من ذهب مع "عمر أغا" إلى "قونية"، ومنهم من ذهب إلى قيصرية أو إلى "سيواس"، وأرسلت أوامر بتخصيص راتب مناسب لكل واحد منهم.

وفى يوم الأربعاء الثالث عشر من جمادى الأولى، تحركوا جميعا بمن فى معيتهم من "سيس" برفقة والى "أطنه"، على أن يستقل "أحمد أغا" الباخرة من "مرسين" إلى

"أزمير"، ويتوجه من هناك إلى مقر عمله، ويتوجه والده "عمر أغا" أيضا إلى "قونية". وعندما تقرر أن يقيم فى سنجق "قيصرية" كل من "محمد أغا" ابن حسين أغا، وأحمد أغا ابن درويش أغا، ومصطفى وحمزة بك أبناء محمد أغا، وهم من الأمراء ابنا "قوزان"، الذين كان يطلق عليهم "الأسباط" ، وأصبحوا على وشك الذهاب إلى محل إقامتهم، خصص لكل منهم راتب شخصى يتناسب مع حالته، مع جعل قرى " قوزان " بمثابة ملك خالص لهم.

ولما توفى "عمر أغا" فى "أطنه"، خُصص لأبنائه راتب مناسب من مبلغ الأربعة آلاف، التى كانت مخصصة له، وأرسلوا إلى "قونية" ليقيموا فيها.

وكان قد خُصص "ليوسف أغا" من قبل راتب خاص قدره ألفان وخمسمائة قرش شهريا، على أن يقيم فى "مرعش" بناء على طلبه، وعندما صرف النظر عن الإقامة بها، حولت إقامته إلى "سيواس" حسب رغبته أيضا. وكان يرغب بقاء ابنه "على بك" البالغ ثلاثة عشر عاما فى إستانبول ليلتحق بالمدرسة الحربية، ثم صرف النظر عن هذه الفكرة أيضًا. وبعد فترة، صرف النظر عن الإقامة فى "سيواس"، ورغب فى الذهاب إلى إستانبول ، ثم تغاضى عن هذا أيضا. والحاصل، ذلك أنه رجل متقلب، كل يوم برأى. ولأنه رجل متلون المزاج، فقد تمسك بالخروج إلى الجبل بصحبة الفرقة الإصلاحية، والنزول ضيفا على خيام أركان الحرب ليتوجه من هناك إلى "سيواس". وأرسل أخوه "خليل بك" إلى "قوزان الشرقية"، على أن يصطحب أتباعه وأتباع أخيه، وينتقل بهم إلى "سيواس"، وقد اصطحبهم جميعا إلى "سيواس".

ظهور الكوليرا فى سيس

فى هذه الأثناء انتشر وباء الكوليرا فى "سيس"، فأنسانا لذة الانتصار والنجاح، الذى بدا لنا أمرا فى منتهى السهولة واليسر مقارنة "بقوزان". والواقع أننا صعدنا الجبل ونحن مصممون على إقامة السلطة بتعيين موظفين، لكننا صعدنا الجبال هذه المرة بسبب الكوليرا. حيث كان من اللازم إرسال الجنود لتغيير الهواء كلما لزم الأمر

مراعاة للأصول الصحية. وقد خيّرْنا "ده ده بك"، "ودلى خليل"، "وعلى أغا بن على بكر" بين صعود الجبل معنا، أو الذهاب إلى "أطنه"، والبقاء هناك إلى حين عودتنا. ففضل "ده ده بك" "وعلى بكر" الإقامة فى "أطنه"، فأرسلناهما إلى هناك. أما "دلى خليل"، فقد فضل التحرك مع الفرقة الإصلاحية، ومرافقة "يوسف أغا"، "وأحمد أغا ابن كوكولى " أمير ناحية " سونباس " وتحركا مع الفرقة الإصلاحية من "سيس". وفى اليوم الثالث، وصلت الفرقة إلى قرية "فكه". أما الكوليرا، فقد زادت وطأتها، واستشرت. وأثناء صعودنا الجبل، كنا ندفن الموتى، و نحمل من أصابتهم الكواليرا على ظهور الخيل، ونرسلهم إلى المعسكر. ولم يخلُ يوم واحد من مريض محمول على ظهر الخيل الاحتياطى التى ساقها أمامنا المشير "درويش باشا".

ولدى وصولنا إلى " فكه" بهذه الحالة المؤلمة، تحرك "قورت إسماعيل باشا" من "خاچين" بمفرزة من الجيش وجاء إلى "فكه" وهى على مسيرة ثمانى ساعات، وسعدنا بمجيئه. وبسبب انتشار المرض فى الفرقة، أقمنا حجرا صحيا لأنفسنا حتى لا ينتشر المرض بين جنود المفرزة.

وجاء "إسماعيل باشا"، و فى معيته بعض الضباط، وأثناء مخاطبتهم من على بعد، قال "إسماعيل باشا": "إنكم تعاونون وتعزلون أنفسكم للمحافظة علينا". ثم انخرط فى البكاء، وانضم إلينا، وأفسد الحجر الصحى. ولذا لم يمكن السيطرة على الجند واختلطوا ببعضهم، ولحكمة يعلمها الله تعالى، سرعان ما ظهرت الكواليرا فى المفرزة أيضًا.

وبناء على ما أبلغه مفتى "خاچين" بشأن رغبة "حاجى بك" مدير "قوزان الشرقية" فى رفع راتبه، وتعيينه عضوا فى مجلس "قيصرية"، أرسلت مكاتبة إلى قائمقامية "قيصرية"، لتعيين "حاجى بك" عضوا بالمجلس، وإضافة مبلغ خمسمائة قرش إلى راتبه، ليبلغ ثلاث آلاف قرش، وأن يعين أحد أشراف "أطنه" مديرا "لقوزان الشرقية" بدلا منه. وتوفى "حاجى بك" فى "عزيزية" وهو فى طريقه إلى "قيصرية". وقسمت "قوزان" إلى ثلاثة أقضية هى "سيس"، "وبيلانكوى"،

"وخاچين"، وألحقت ناحية "فكه" بقضاء "بيلانكوى". ونظرا لتمرد ناحية "تاتارلى " فى قضاء " قارص ذو القدرية "، ووقوع ناحية "سونباس" فى دائرة نفوذ أبناء " قوزان "، فقد تم توحيد هاتين الناحيتين مع بقية النواحى الأخرى. وألحق هذا القضاء بإقليم " قوزان " تمهيدا لإحياء قصبة " قارص ذو القدرية "، وإرجاع قضاء " قارص ذو القدرية " إلى سابق عهده. وهكذا تم تشكيل سنجق كبير، مكون من أربعة أقضية كبيرة، وعين أمير اللواء " حسنى باشا " قائمقاما له. كما خصص لمفتى "سيس" راتب قدره مائتين وخمسين قرشا. وانتخب " كچوك محمد أفندى"، وهو من علماء " طبان " مفتيا " لبيلان كوى "، براتب قدره خمسون قرشا. كما تم تعيين مدير ونائب لكل قضاء. و تشكيل كتيبة شرطة لإقليم " قوزان "، وعين "أحمد أغا بن كَنج أوغلان" مقدما للكتيبة، كما عين " وزير أغا " رئيس جماعة " القره جه " رئيسا لفصيلة مركز " سيس ".

وتتمتع " فكه " بموقع منيع. وكل الطرق المؤدية إليها شديدة الانحدار، كما أن لها قلعة مهجورة. وأثناء اجتماع عبدكم مع الباشا المشير وبعض الأمراء العسكريين فى الخيمة، قلت: "لو استدعى الأمر نشوب حرب فى هذه المنطقة، فما عدد الجنود الذين نحتاج إليهم؟". فقال الباشا المشير: "نحتاج إلى أربعين كتيبة". فقال رئيس الأركان الحربية " لن يكون الأمر سهلا بأربعين كتيبة".

والحقيقة أن "فكه" بمثابة المفتاح لكلا القوزانين، كما أنها تقع فى قلب السنجق. ومع أن التفكير يتجه إلى إقامة مراكز هنا، لكننا اتخذناها مركز لواء لخلوها من المبانى التى تتخذ مقرا للحكومة ومجلس السنجق. وإذا اعتبرنا أن إسكان عشائر "چقوراوه " أمر مهم، فمن الضرورى أن يكون المركز فى جهة "چقوراوه"، كما أن قصبة "سيس" كانت مقرا للزعيم الروحى للأرمن.

وأرسلنا كتيبة إلى "بيلانكوى" وكتيبة أخرى إلى قرية" "كورلشين" لتقيم هناك، واستقر عدد من الجند العاملين، ومعهم عدد من رماة البنادق النظاميين فى قلعة "فكه"، وتحركنا من الطريق المؤدى إلى "مرعش"، مرورا " بكوكسون"، ووصلنا إلى "زيتون". وكنا ننوى تأديب وإصلاح تلك المنطقة على وجه السرعة، لكن

اشتدت وطأة الكوليرا على الفرقة الإصلاحية، ووقعنا فى حيرة من أمرنا، فماذا عسانا أن نفعل، وحالات الوفاة تقع بلا انقطاع.

وذات ليلة أصابت الكوليرا "دلى خليل" فتوفى عند حلول الصباح. وكان جنديا شابا، شجاعا، طويل القامة، جميل الهيئة، قوى البنية، متناسق الأعضاء. وكانت وفاته فجأة على هذا النحو السريع سببا فى زيادة الخوف بين الفرقة.

وبناء على هذا أصبح كل فرد الآن يتمنى العودة إلى "چقوراوه"، ورأيت أنهم لن يستطيعوا أن يؤدوا مهمتهم الأساسية، وهم على مثل هذه الحال من اليأس والفتور. ورغبت ونحن فى طريق عودتنا أن نتجه إلى "بيلانكوى"، التى تبعد مسيرة ثلاث ساعات من "فكه".

وفى هذه الأثناء، توفى "عاشر باشا" متصرف "مرعش". وهو رجل نشأ فى خدمة الدولة، وقد أسهم بخدمات طيبة فى تأسيس الإصلاحات، التى تمت فى جبل البركة. ولما كانت تصرفات "يوسف أغا" تثير الشك، فقد أخرج من "قوزان" بحجة إرساله مباشرة إلى "سيواس"، وتقرر أن يصطحب بعد ذلك أبناءه وذويه الموجودين فى "سيواس" ثم يركبون الباخرة المتجهة إلى "صامسون"، ليتم إبعاده إلى إستانبول . وتم تسليمه وابنه "على بك" البالغ من العمر ثلاثة عشرة سنة إلى "قورت إسماعيل باشا".

ثم تحركت الفرقة من " فكه" حتى وصلت إلى "بيلانكوى"، ثم رجعت إلى "سيس " بعد تأسيس الحكومة المحلية.

وفى هذه الأثناء، توفى "كراغوس أفندى" الرئيس الروحى للأرمن نتيجة إصابته بالكوليرا، وشيعت جنازته بموسيقى الفرقة الإصلاحية فى موكب مشهود. وكانت وفاته مدعاة للحزن، وذلك لما أبداه من تعاون فى إصلاح "قوزان"، وأصبح ابن أخيه رئيسا لقساوسة "عينتاب"، فقد كان "يغوغوس أفندى" يرافق كبير القساوسة فى أغلب الأوقات، ويتوسط بيننا وبينه، فانتخب لرئاسة الكنيسة، ورفع الأمر للباب العالى للموافقة والتصديق عليه.

وأسندت الشئون المدنية فى " قوزان " إلى " حسنى باشا "، والشئون العسكرية إلى " إسماعيل باشا "، وعينا أمير اللواء كبير المرافقين قائدا "لأطنه ". وبسبب حلول شهر تشرين الأول (أكتوبر)، واقتراب فصل الشتاء، أرسلنا اللواء والكتائب إلى المعسكرات الشتوية المخصصة لها، وبقى برفقتنا خمس كتائب فقط.

أما بالنسبة لنا، فقد قررنا مع الباشا المشير فيما بيننا أن نمضى الشتاء فى إستانبول ، على أن نستأنف الإصلاحات فى الربيع المقبل. وتحركنا من "سيس" على أن نصل إلى "مرسين"، عن طريق "أطنه" "وطرسوس" ثم نستقل مركب الطائف السلطانية من "مرسين" إلى إستانبول ، وبعد أن تحركنا من "سيس" بساعة أو اثنتين أقمنا الخيام لنستريح.

وكانت اتصالات سرية تدور بين "يوسف أغا"، والعاطلين فى "قوزان". فانتهز فرصة الشتات الذى ألم بالفرقة الإصلاحية بسبب الكوليرا، وأعلن العصيان، وخرج أمراء "قوزان الغربية" للسيطرة على "قوزان" كلها. وتشكيل حكومة عاصية هناك، وأثناء إرسال "يوسف أغا"إلى "سيواس [فى حراسة] مجموعة من الجنود هجم الأشقياء عليهم، وأخذوه من أيدى الجنود، والتف كل أشقياء " قوزان الشرقية" حول "يوسف أغا"، وقطعوا طريق "كورلشن"، "وخاچين"، "وفكه".

وعلم "إسماعيل باشا" بهذه الواقعة بعد يومين، فاتخذ التدابير اللازمة، وأبلغ الفرقة الإصلاحية، بما حدث. فكان هذا مدعاة للحزن والحيرة، وذلك لأننا وزعنا الكتائب على المناطق لقضاء فصل الشتاء على النحو المذكور، وكانت الكتائب الخمس الموجودة معنا فى حالة شتات. فبحثنا عن الفرسان النظاميين التابعين للواء، ووجدنا أن الأصحاء منهم على قدر العدد اللازم للعناية بالدواب الموجودة، وكان تجهيز وإرسال فصيلة قوية من بين لواء أو اثنين، أمرا صعبا. ففرسان "أرسلان باشا" منهم من توفى، ومنهم من أنهكت قواه فأقام هنا أو هناك، كما أن "محمد بك الشكردلى" وأتباعه الموجودين معنا لتوصيلهم إلى إستانبول . توفى أغلبهم وتفرق بقيتهم، وبقى معه حوالى خمسة عشر رجلا فقط.

أما "يوسف أغا"، فبعد أن أثار منطقة "قوزان الشرقية"، أرسل إخطارات إلى كل الجهات، بما فيها "سيس" لاستدعاء رؤساء "قوزان الغربية".

ولا أعرف، هل أصابت عين الحسد الفرقة الإصلاحية ؟ فقد بذلت الدولة جهودا كبيرة خلال سنوات طويلة، حتى تتمكن من إجراء الإصلاحات، فلما وفقنا الله إلى تحقيقها خلال ستة أشهر، بشكل أثار دهشة وإعجاب الصديق والعدو، إذ بالكوليرا تنزل هذه الكارثة بالفرقة، فى وقت قصير، ووقعنا فى حيرة. فقد رأينا أن حلول الشتاء "وقوزان" على هذه الحال، سيجعل إخضاعها فى الربيع المقبل أمرا متعذرا، وعلى الفور قررنا التحرك بالجند التى معنا، لمعاونة "إسماعيل باشا"، وليكن ما يكون.

ولكن كان ينبغى إرسال أحد على وجه السرعة إلى تلك الناحية لمعرفة أبعاد الخطر قبل وصولنا إليها، وليكون سندا "إسماعيل باشا". فتم استدعاء حوالى الألف من "سيس" والعشائر المجاورة لها، وتقدموا إلى هناك بقيادة "محمد بك الشكردلى"، ولأنهم جميعا كانوا من أهل " قوزان"، ولم يألفونا بعد، لذا كان المتوقع أن يتمردوا، وينقلبوا علينا لأهون سبب. وكان "محمد بك" يعلم هذا جيدا، ويدرك أيضا ضيق الوقت أمامنا، لذا قبِل هذه المهمة كنوع من التضحية، وأخذ على الفور الجند الغرباء عنه، الذين تم استدعاؤهم، ثم مضى فى طريقه.

ومن الأمور، التى شغلت تفكيرنا، هجوم اللصوص المباغت على الكتيبة، التى فى " بيلانكوى". وهم لا يعرفون شيئًا عن حالتها، فليس من المستبعد أن تقع هناك حادثة مأساوية، أما "إسماعيل باشا" فقد كان قريبا من "بيلانكوى"، ولو علم الجنود بهذه الواقعة، لتمكنوا من اختراق صفوف الأشقياء بقوة سلاحهم. والانضمام إلى "إسماعيل باشا". وبناء عليه ذهب "درويش باشا" إلى "بيلان"، ليأخذ كتيبة من هناك، ويلحق "بإسماعيل باشا". وأرسل "أحمد مختار بك" (مختار باشا)، وهو من الضباط أركان الحرب إلى هناك بتعليمات شفوية، ومعه مجموعة من رماة البنادق ذات الطلقات الست. وكتبت لرؤساء القبائل والعشائر بين "سيس" "وبيلانكوى" بأنه مطلوب القبض على "يوسف أغا" بأى وسيلة. أما الكتيبتان

المتوجهتان إلى "مرعش"، فقد أقامتا فى "قارص ذو القدرية". كما أرسلنا مرافق عبدكم " حسين حسنى باشا "، وهو من أركان الحرب، ومعه من جمعهم من أهالى ناحية " سونباس "، إلى " قارص ذو القدرية "، لمحاصرة الأشقياء من ذلك الجانب أيضًا.

وتحركنا نحن ببضع كتائب من جنود السلطنة، وعبرنا "سيس"، وأثناء تسلقنا الجبل. جاء ضابط من عند " إسماعيل باشا "، يخبرنا بأنه تم القبض على "يوسف أغا ".

ذلك أن " وزير أغا " رئيس عشيرة " قره جه " الذى استدعاه "يوسف أغا "، وصل إلى " بيلانكوى " وجمع بدوره عددا لا بأس به من سائر العشائر. كما جمع "مرعشلى بكر بك " قائمقام " بيلانكوى " أكثر من ألفى جندى. وتحركوا من "بيلانكوى"، فسيطروا على " فكه "، وما حولها، ولذا لم يستطع " يوسف أغا " البقاء هناك، واستقر فى المنطقة الواقعة بين " كورلشن "، " وجبل كراز ". ومن هناك أرسل مجموعة من الأشقياء للهجوم على الكتيبة الموجودة فى " كورلشن "، وعندما التحما، قُتل وجُرح كثير من الأشقياء، وقُبض على بعضهم، ودُحر الباقون. واستشهد جندى واحد فقط من الجنود السلطانية، وجُرح جنديان آخران.

وأرسل " يوسف أغا " ابنه " على بك " وفرقة من الأشقياء إلى جهة "سيس" للسيطرة على الطريق المؤدى إليها، فالتقت بمجموعة " محمد بك الشكردلى ". والغريب أن أغلب الجنود الذين تجمعوا وخرجوا من " سيس " برفقة " محمد بك " قد تفرقوا أثناء الطريق، أما من ظلوا برفقته، فما أن وقع بصرهم على جنود "على بك" من بعيد، حتى قالوا: " نحن لا نستطيع أن نطلق النيران على أبناء "قوزان ". ".فماذا كان بوسع " محمد بك " أن يفعل! لقد قال لهم: " إن الحق معكم، فالحقوق القديمة تستوجب هذا، لكن لا تطلقوا أنتم النيران، عليكم فقط أن تصطفوا على جانبى هذا الجبل، وأن تكونوا مجرد متفرجين". فتصرفوا حسب قوله، وسيطر "محمد بك " على أحد الممرات، ومعه حوالى خمسة عشر أو عشرون رجلا من الرماة، وبدأ فى إطلاق النيران، ولأن العدو لا يعرف شيئا عن أمر عدوه، فقد ظن

"على بك" أن الجموع المصطفة على جانبى " محمد بك "، ضمن أعدائه، فاستدار عائدا، وعندما تقابل مع جنود " إسماعيل باشا "، قتل الجنود الذين معه، وأصبحوا وقودا للنيران، ولما وجد نفسه بمفرده، فر هاربا إلى " تيك ".

وبقى " يوسف أغا " ومعه القلة الباقية من الأشقياء، فهبط إلى " كوبرى كوك صو "، ودعا أهالى قرية " كورلشن " للقتال، ولأن أهالى " كورلشن " ضاقوا وملوا من تصرفاته، فقد ذهب " شيلى حسن كخيا "، وهو من رؤساء " كورلشن " ومعه مجموعة من الأهالى إلى " يوسف أغا "، على أنهم سينضمون إلى جانبه، ثم هجموا عليه وقيدوه وسلموه إلى الضباط.

وعندما تحركنا من "سيس" على النحو السالف، وأثناء خروجنا لتسلق الجبل، علمنا بأمر القبض على "يوسف أغا"، وكان هذا بمثابة البشرى للجنود، فقد خرجنا من معسكرنا صباح ذلك اليوم، ونحن فى غاية الاضطراب، لكنا عدنا إليه، ونحن فى قمة الفرح والانبساط. ثم نصبنا الخيام واسترحنا.

وبحكمة الله تعالى، ما أن بدأت المفرزة التى برفقة " إسماعيل باشا " فى إطلاق النيران، إلا وكأن الكوليرا كانت قد زالت منهم. وكذلك كان الأمر بالنسبة لنا، فبمجرد خروجنا إلى الجبل وعودتنا إليه، لم يبق للكوليرا أثر بين أفراد الفرقة.

وعقب ذلك مباشرة، علمنا أن " يوسف أغا " قُتل بيد أحد الحراس أثناء محاولته الهرب ليلا. ولم يسأل أحد عن كيفية موته، فقد نال العقاب الذى يستحقه.

وفى تلك الأثناء، ألقى القبض أيضا على " مصدق بك " أخو " يوسف أغا "، فى قضاء " دره لى "، وهو فى طريقه إلى جبل " قوزان " بعد أن تمكن من الهرب من محل إقامته فى " قيصرية "، وتمت إعادته إليها. والآن لم تعد لدينا ثقة فى أبناء "قوزان"، فقد اتضح لنا من هروب "يوسف بك " وأخيه " مصدق بك " أنهم لن يركنوا للهدوء طالما أنهم فى أماكن قريبة من "قوزان "، وكنا أخيرا قد استدعينا مركبا حربيا إلى " صامسون "، فأمرناهم بأن ينزلوا جميعا إلى الساحل، ووضعناهم على ظهر ذلك المركب، وأرسلناهم إلى إستانبول. ونظرا لعدم الانتهاء من إحصاء

عدد سكان " قوزان " حتى ذلك الحين، فقد عينت مجموعات من الموظفين لإتمام ما لم يتم فى هذا الأمر، وأجريت القرعة العسكرية بقصبة " سيس "، لتكون نموذجا لسائر المناطق، ووسيلة لتوزيع المعونة العسكرية. كما بدأ إجراء القرعة العسكرية فى " قوزان الشرقية " بواسطة " إسماعيل باشا "، ووزعت المعونة العسكرية الخاصة بقصبة " خاچين ".

ثم بدأنا فى اتخاذ الخطوات اللازمة لتنفيذ ما تقرر بشأن تعمير المنطقة الواقعة بين "أطنه"، "وسيس" بإنشاء قرى فيها، وهى المنطقة التى تقضى فيها عشيرة "سرقندى " فصل الشتاء.

وقررنا فيما بيننا أن نستقل الباخرة من " مرسين " مع " درويش باشا"، وأن نترك فى تلك المنطقة بعضا من الموظفين، وذلك قبل تسريح الفرقة الإصلاحية. وعندما غادرنا " سيس "، إلى الجبال الواقعة فى الجانب الأعلى من " أطنه "، كانت الفرقة الإصلاحية قد برأت تماما من مرض الكوليرا، وكنا ننوى ركوب الباخرة من "پياس"، لأننا سنستأنف العمل مرة أخرى فى "أطنه"، "وطرسوس". وأقمنا هنا بضعة أيام، ونحن ممنوعون من الاتصال " بأطنه "، وكنا مضطرين إلى تسوية أمورنا بالمراسلة.

وكان " مصدق باشا " والد " ده ده بك " مصمما أثناء وجوده فى إستانبول على إرساله إلى " الروم ايلي ". وكان المقرر تخصيص راتب "لعلى أغا ابن على بكر" مع إقامته فى " أطنه "، لكن لم نجرؤ على ترك " على أغا " فى " أطنه " لأن أخاه " دلى فقيه " مقيم فى جبل البركة، ولم يعلن استسلامه بعد، ومن المتوقع أن تظهر أزمة فى تلك المنطقة فى أى وقت، فتم إرساله هو و"ده ده بك " إلى " نيش ".

ولم يحضر " أحمد بك منمجى زاده "، " وابن قارصانتى " إلى الفرقة الإصلاحية، وكنا ننوى تعيين " أحمد بك " عضوا بالمجلس الكبير فى "أطنه "، مع نقل مقر إقامته إلى هناك. وأن يخصص راتب " لابن قارصانتى "، ويرسل للإقامة فى مكان ما. لكنهما لم يعترفا بالفرقة الإصلاحية، لذا صدر أمر إلى الباشا أمير اللواء المرافق

لنا بالقبض عليهما وإرسالهما إلى إستانبول . فقبض عليهما بعد فترة، وأرسلا إلى إستانبول وخصص مبلغ خمسة آلاف راتبا شهريا " لأحمد بك "، الذى أقام فى إستانبول حتى وفاته. أما " ابن قارصانتى "، فقد أُرسل إلى " الروم ايلي ".

وبعد أن سوينا أعمالنا المتعلقة " بأطنه " وصلنا "پياس" عن طريق "سيس"، " وقورت قولاغى ". وكان " إمام بك " المعروف، من سادة "عِزِّية " قد أخذ مبالغ كبيرة من الحكومة كنفقات سفر، ولم يتردد على مقر الحكومة لأنه لا يثق فى الإدارة المحلية، كما كانت الحكومة أيضًا لا تثق به. ولم يأت إلى الفرقة وهى فى طريقها إلى " سيس ". وبناء على ذلك، تم التنبيه على "ويسى أفندى" قائمقام إقليم "پياس" بالقبض عليه، وإرساله إلى إستانبول. ولم ينقض وقت طويل حتى قبض عليه "ويسى أفندى" وأرسله إلى إستانبول حيث حددت إقامته، وخصص له هو الآخر راتب شهرى قدره ألفى قرش.

العودة مؤقتا إلى باب السعادة " إستانبول"

غادرنا "پياس" بالباخرة بعد أن أصدرت التعليمات اللازمة للموظفين بخصوص الإصلاحات فيها، ووصلنا إستانبول فى أواخر جمادى الآخر سنة ١٢٨٢هـ [١٨٦٥م]. وفى تلك الأثناء، تم تشكيل المجلس العالى للخزائن[1]، لإصلاح الأوضاع المالية، وهو بنفس درجة مجلس التنظيمات الملغى ويفوق المجلس الأعلى. وصدر أمر بتحويل وظيفة ـ عبدكم ـ من عضوية المجلس الأعلى، إلى عضوية المجلس العالى للخزائن. ولذا بدأت حضور اجتماعات هذا المجلس عقب عودتى إلى إستانبول على النحو السالف، ولأننى لم أنفصل بعد عن الفرقة الإصلاحية، فقد كنت أجتمع "بدرويش باشا" بين الحين والآخر لمناقشة المسائل الخاصة بالفرقة الإصلاحية وتسويتها.

وحاول "حسين حسنى باشا"، وهو من أركان الحرب فى قضاء "قارص ذو

(1) هو الهيئة المختصة بوضع ميزانية الدولة العثمانية، تم تكوينه سنة ١٢٨١هـ/ ١٨٦٤م، برئاسة الأمير " مصطفى فاضل ".

القدرية، إحياء هذه القصبة فى المكان المعروف باسم "پازار يرى". وكذا إنشاء قصبة فى الجانب المواجه لها فى مكان يعرف بذات الاسم جنوب قرية "حاجى عثمانلى"، لتكون مركزا لقضاء "عثمانية". لكنه بدأ بتعمير"قارص ذو القدرية" وإحيائها أولا نظرا لوجوده هناك.

وأثناء وجودنا فى "سيس" "وأطنه"، نظرنا فى حسابات الفرقة الإصلاحية وتنظيم الدفاتر، وعندما ركبنا الباخرة من "پياس" كتبنا تقارير ملخصة مدروسة وموقع عليها ومختومة. ولم يعد لدينا أى ارتباطات، سواء بولاية حلب، أو بولاية "أطنه". وسوينا ديون الأهالى نقدا، وبحوالات. وسددنا أغلب هذه المبالغ من بقايا الضرائب، التى تعذر تحصيلها. وكان قد خصص مبلغ أربعين ألف كيس من ميزانية هذا العام، للمصروفات الخاصة بالفرقة الإصلاحية. لكن "كامل باشا" رئيس المجلس الأعلى قال: "إن "جودت أفندى" رجل يحسن التصرف، ويستطيع أن ينجز المهمة بخمسة وعشرين ألف كيس فقط". وما حدث أن مصروفاتنا الخاصة فى مدة ستة شهور بلغت كلها حوالى أربعة آلاف وأربعمائة كيس " آقچه ". ومع أن السيطرة على منطقة جبل البركة تعذرت طوال عام، فإن الفرقة تمكنت من استعادة منطقة "قوزان" بسهولة، والسيطرة على العشائر بين جبل الأكراد وجبل البركة بصورة غير مسبوقة، بالتوفيق والعناية الإلهية فقط.

وكان من المتوقع أن تكون سرعة تحقيق هذا الأمر، موضع استحسان وتقدير، ذلك لأنه أمكن إنجاز أعمال تستغرق سنوات من العمل المتواصل فى فترة وجيزة بمصاريف قليلة، لكن حدث العكس.

ذلك أنه عند وصولنا إلى إستانبول ، قدم عبدكم "ودرويش باشا" إلى " فؤاد باشا" كشفا بالحسابات الدقيقة الخاصة بالمصروفات الاستثنائية. وأثنى "فؤاد باشا" على الأمر ثناءً جميلا، وقال ما ينم عن إعجابه ودهشته. فقدمنا له كل البراهين اللازمة، ثم حور كلامه وأخذ الكلام منحى آخر، ذلك لأن قلة مصاريف الفرقة إلى هذا الحد، فى الوقت الذى لم تكن مصاريف الجيوش التى أرسلت إلى سوريا قد

سويت حساباتها بعد، كانت سببا فى عدم ارتياح "فؤاد باشا" لتقديم الحسابات النهائية للمصاريف الاستثنائية للفرقة الإصلاحية. فالنفقات الاستثنائية للفرقة كانت أحد الأسباب التى أدت إلى القرض الذى عقد من قبل، وقلة النفقات إلى هذا الحد كان أمرا مغايرا للسياسة التى ينتهجها الوزراء. والحال أن "حسين بك" رئيس الأركان فى الفرقة الإصلاحية، وصهر "رشدى باشا" رئيس المجلس العالى للخزائن، وهو رجل من دأبه الاعتراض على أى شيء، جاء برفقتنا إلى إستانبول هذه المرة، وأبلغ صهره بمقدار النفقات الاستثنائية للفرقة ؛ فجعل منها "رشدى باشا" سببا للاعتراض وأخذ يردد: "يا عزيزى، لماذا هذه القروض، إن فرقة "قوزان" التى هزت الأرجاء، لم تبلغ مصاريفها الاستثنائية خمسة آلاف كيس". وكان فى هذا الاعتراض مساس "بفؤاد باشا". وعلى الفور أدركت خفايا الأمر، وامتنعت عن مناقشة أمر المصاريف الاستثنائية، فى حين أن "درويش باشا" لم يكن يكف عن المباهاة هنا وهناك، بحسن انتظام وإدارة الفرقة الإصلاحية. وكان أعداؤه فى الدائرة العسكرية كُثُر، خاصة "حسين عونى باشا" قائمقام وزير الحربية، الذى لم يكن يسعده مطلقا الشهرة والمجد اللذين حققهما "درويش باشا".

وبناء على ذلك، فإن وعودا كثيرة بُذلت لنا عند خروجنا من إستانبول على رأس الفرقة الإصلاحية، وعند عودتنا إلى إستانبول هذه المرة، حيث كان من المقرر أن يرفع الوسامان العثمانيان اللذان يحملهما عبدكم و"درويش باشا" من الدرجة الثانية إلى الدرجة الأولى، لكن " عونى باشا " قال: " إن عملهما هذا كان من قبيل القيام بمهام الوظيفة العسكرية". ولذا غض الطرف أيضا عن الإحسان علينا بالوسام، حتى لا تعتبر خدمتنا ضمن الخدمات الخاصة، لكن جلالة السلطان " عبد العزيز خان " استدعى عبدكم "ودرويش باشا"، وتفضل علينا بالإحسان، وأعطى كل منا حافظة مرصعة.

وكانت مسألة توليتى ـ عبدكم ـ منصب شيخ الإسلام، قد أثيرت أثناء وجودى فى "قوزان"، لكن اتُّخذ من حساسية وأهمية المهمة التى أقوم بها، وأنه ليس من

المناسب استدعائى فجأة إلى إستانبول، حجة تحول دون تحقيق هذا، حيث كان تولى عبدكم منصب شيخ الإسلام مخالفا لرغبة بعض كبار الوزراء. " ولأن فؤاد باشا " رجل واسع الصدر، فقد كان يبدى لعبدكم محبة وعناية، لكنه لم يستطيع أن يخالف رفاقه من أجل أى من كان. إن عالم السياسة عالم مختلف، يضحى فيه الإنسان حتى بأخيه، ويتبين من المقدمات المذكورة استحالة أن نقضى فصل الشتاء هذا فى " أطنه" أو "مرعش "، لذا فقد عدنا مؤقتا إلى إستانبول.

التوجه إلى حلب

اقترب فصل الربيع، وكنت ـ عبدكم ـ أتهيأ للسفر على ظهر بارجة حربية. وفى اليوم السادس عشر من شهر شوال سنة ١٢٨٢هـ تحركنا [١٨٦٥م] عبدكم "وواصو أفندى" موظف الشئون الساسية، وكل الموظفين الذين فى معيتنا بالبارجة السلطانية، وجاء "فؤاد باشا " إلى الباخرة، وودعنا وداعا طيبا.

ثم أبحرنا إلى "الإسكندرونة" بعد أن تركنا فى "مرسين" الموظفين، المتوجهين إلى "قوزان". وأرسلت لنا قيادة الفرقة العسكرية فى حلب، فصيلة من الفرسان النظامية، رافقتنا إلى حلب، فدخلناها فى أواخر عام ألف ومائتين واثنين وثمانين.

ولأن الولايات الكبيرة، تنقسم إلى سناجق وأقضية كبيرة بدورها، شرعنا فى إعادة تشكيل ولاية حلب، وتقسيمها إلى سناجق وأقضية.

ولما تشكل الجيش الاحتياطى بولاية "الطونة" على النحو السالف، أعيدت كتائب الجيش السلطانى الخاص المرافقة للفرقة الإصلاحية وأرسلنا معها حوالى ثلاثمائة من دواب النقل.

وكان كل أهالى "قوزان" سعداء بالإصلاحات، لكن بضع مئات من أتباع زعماء "قوزان" كانوا بمثابة الميليشيات الخاصة بهم، لم يرحبوا بهذه الإصلاحات مع أنهم كانوا يتكسبون من الدولة. ورغم أن بعضهم عمل فى الشرطة، فإن البعض الآخر كان عاطلا. وكانت بعض عشائر "چقورواوه" تمر "بقوزان"، والبعض الآخر

يتجاوز جبل البركة، ويتردد على " الهضبة المستطيلة " للاصطياف، وقد أغلق هذان الطريقان أيضًا. وتم إسكان المهاجرين الشراكسة[1] فى "الهضبة المستطيلة"، ولهذا السبب اضطرت مجموعة من هذه العشائر المهاجرة، إلى التوطن فى سنجق "عزيزية"، أما بقيتهم، فقد سكنوا فى "چقوراوه" فى المنطقة الواقعة بين "مرعش"، "وإصلاحية". وكان الاستقرار أمرا صعبا جدا على العشائر التى اعتادت الهجرة، ولهذا ضاقت هذه العشائر أيضا من الإصلاحات الجارية.

وانصاع غوغاء "قوزان الشرقية" للأوامر وسكنوا بعد أن ذاقوا طعم رصاص البنادق سداسية الطلقات أثناء حادث فرار "يوسف أغا" المشروحة سابقا. لكن أتباع زعيم "قوزان الغربية" كانوا لم يذوقوا طعم الرصاص بعد، لذلك كانوا يتمردون ويشجعون الأهالى على العصيان، وانضم إليهم جماعة من لصوص العشائر، وحاصروا الكتيبة فى "بيلانكوى". فتوجه"قورت إسماعيل باشا " قائد الفرقة الإصلاحية فى " مرعش" إلى هناك فورا، أما " أحمد أغا ابن كَنج أوغلان" مقدم شرطة " قوزان "، فما أن علم بالواقعة، حتى جمع حوالى خمسمائة أو ستمائة من رماة البنادق من أهالى "قوزان الشرقية "، وذهب إلى "بيلانكوى". كذلك فأن "وزير أغا " رئيس عشيرة "قره جه"، وقائد فصيلة مركز "سيس"، قام بجمع حوالى خمسمائة من أهالى عشيرته، مزودين بالبنادق، وتوجه أيضا إلى هناك. وفى تلك الأثناء، أمسك " حاجى عمر أفندى "، وهو من مشاهير العلماء والصالحين فى " قوزان "، وكان يقيم فى قرية "كيسه نيت"، والذى سبق أن جاء إلى الفرقة الإصلاحية أثناء وجودها فى "سيس"، وخصصت له مبلغ مائة قرش شهريا؛ أمسك عصاه وطرق بها أبواب رؤساء [العشيرة]، وقال لهم: " لقد حاصر سفهاؤنا جنود جلالة السلطان، فهيا نسرع لنجدتهم، وإلا فعليكم وزر هذا فى الدنيا

(1) فى عام ١٨٦٤ تمكن الروس من السيطرة بصورة نهائية على القفقاس بعد تنفيذ سياسة النزوح القسرى بقوة وقسوة، وكانت أراضى الشركس الخصبة تغرى الروس فصمموا على تحويل غربى القفقاس وشماليها إلى أراض مسيحية موالية للإمبراطورية الروسية بالقمع والقهر، وإسكان الأرمن فيها، مما جعل بقاء الشركس فى بلادهم أمرًا مستحيلا فهاجروا إلى الأراضى العثمانية، انظر، جستن مكارثى، مرجع سابق، ص ٥٩-٦٠.

والآخرة". فجمع الرؤساء على الفور حوالى خمسمائة رجل مزودين بالبنادق، وتوجهوا إلى "بيلانكوى" من الناحية الأخرى منها، وعندما ضاق الخناق على مجموعة اللصوص المحاصرة فى "بيلانكوى"، وصل "قورت إسماعيل باشا" بالعساكر السلطانية، وأخمد الاضطراب والعصيان، وقبض على بضع مئات من الأشقياء، ووضعوا رهن التحقيق.

وفى تلك الأثناء، بدأ الاضطراب فى منطقة جبل البركة أيضا، فتوجهت عبدكم إلى " مرعش "، حيث أسرعت فى العمل على إعادة الأمن والهدوء بإرسال الموظفين حتى جبال "أولاشلى"، "وإصلاحية ". وفى تلك الأثناء، اتضح أن سوء الإدارة هو السبب فى وقوع هذه الأحداث غير المألوفة فى متصرفية " مرعش ". وعلى هذا وجدت نفسى مضطرا إلى عرض الأمر على إستانبول لعزل متصرف " مرعش ". وبعد تسوية الأعمال المهمة "بمرعش "، تجاوزنا جبال " قارص ذو القدرية "، عن طريق قضاء "اندرين"[1]. وعندما وصلنا إلى "چقوراوه " كان فى استقبالنا "حسين حسنى بك"، الذى تركناه فى "قارص"، وهو من الضباط أركان الحرب، فاصطحبنا إلى قصبة " قارص ذو القدرية ".

وكانت هذه المنطقة المسماة "پازاريرى" فى العام الماضى عبارة عن صحراء خاوية. أما هذه المرة، فقد تكونت بها قصبة جديدة تضم عددا من المنازل وكثيرا من الدكاكين، مما كان له وقع طيب. وأثناء الحفر لوضع أساسات المنازل، ظهرت آثار قصبة " قارص ذو القدرية " القديمة، فبعد حفر حوالى عمق ذراع، ظهرت ثمار حدائق مصنوعة من الأحجار الملونة، وقد أعيد إنشاء منازل ودكاكين جديدة من أحجار المبانى الكثيرة التى عثر عليها، كما أن عشيرة "بوزطغان" المقيمة بجوار قلعة "هميته" وجدوا أثناء قيامهم بالحفر فى بعض المواضع لوضع الأساسات، الكثير من أحجار المبانى القديمة فأقاموا منازل من الحجارة المنحوتة، وجعلوا منها قرية جميلة.

وفى العام الماضى، لم تكن هذه المنطقة خالية من المنازل فحسب، بل ومن أى

(1) قضاء تابع لمرعش، يقع بين مرعش وزيتون.

كوخ أو كومة قش. لذا تم إنشاء قرى جديدة فى كل أنحاء "چقوراوه"، بالإضافة إلى إنشاء مثل هذه القرى الجميلة فى " پازاريرى "، وهدم " قورت إسماعيل باشا " خيام العشائر بالقوة، وصنع من حطامها أثاثا لبيوتهم، وبدا هذا أمرا مثيرا للعجب والحيرة. وكانت المبادرة الشجاعة التى أظهرها "حسين بك" فى ولاية البوسنة أيضا إضافة عظيمة لخدماته الجليلة، يستحق عليها الشكر الجزيل.

كما بدأنا فى إنشاء قصبة " قارص ذو القدرية "،وبناء مقر جميل للحكومة، وكافة المبانى الحكومية الأخرى. وكنا نعيش فى الخيام فى الوقت الذى أنشأنا دكاكين كثيرة جدا، وحوالى ستمائة منزل ملكناها للأهالى. كما واصلنا إنشاء منازل أخرى. وقامت الحكومة بتجهيز بضع خيام كبيرة، واتخذت من إحداها مقرا لها، وخصصت اثنتين منها لعقد مجلسى الإدارة والدعاوى. وكان المحبوسون يوضعون بأغلالهم فى خيمة أخرى، أما رجال الشرطة، فكانوا يقيمون فى العراء.

والسبب أنه فى تلك الأثناء عزل فؤاد باشا" من [منصب الصدارة]، وأصبح "رشدى باشا" الكبير صدرا أعظم بدلا منه. وكان هذا الأخير ضد تشكيلات الولاية، ويفكر فى إلغاء ما تم تشكيله بالفعل، ولأنه أسس رأيه هذا على تخفيض النفقات فحسب، فقد وردت أوامر حاسمة من الباب العالى بتعطيل كل المبانى الحكومية هذا العام، وفى كل مكان، وتخفيض وتضييق الصلاحية، التى مُنحت إلى "فؤاد باشا " من قبل، وذلك لمنع البدء فى إنشاء مبان [حكومية] جديدة، فوقعنا فى حيرة، فماذا كان لنا أن نفعل إذن ؟!.

ذلك لأن الباب العالى له أن يفعل ما يشاء بالنسبة للمناطق، التى تدخل ضمن نطاق إيرادات ومصروفات ميزانية الدولة. لكن الإصلاحات لا يمكن أن تقاس على هذا، فقد تم بناء معسكرات [منطقتى] "خاصة"، "وإصلاحية"، وقد أوشكت على الانتهاء. وكان من الضرورى أن تقام دوائر الحكومة فى سنجق "پياس ". أما منطقة " قوزان "، فقد كانت مستثناة من هذا تماما، وكان الحذر من أن الحكومة التى تأمر الأهالى أن يتركوا الخيام، ويقوموا ببناء القصبات والقرى، إذا لم تقم ببناء مقر لها، فسيتفرق شمل هؤلاء الأهالى فى السنة التالية، ويكون هذا سببا فى إلحاق

خسارة كبيرة بالدولة، وليس من السهل أن نشرح هذا للباب العالى، والحقيقة أننا كنا فى وضع معقد للغاية.

وهكذا تحركنا من "قارص ذو القدرية"، بهذا التأثر والانفعال، ونحن فى الطريق إلى "سيس"، اخترقنا مزارع للقطن فى مسيرة ثلاث ساعات. وكانت كل المناطق التى يقع عليها بصرنا عن يميننا، وحتى جبال "قوزان"، وعن شمالنا حتى نهر "جهان" كلها مزروعة وهوائها برائحة المسك. وفى إحدى المناطق، هبت رائحة كريهة، فاستفسرت عن هذا من "حسين بك"، فقلت: "يا ترى، أهناك جيفة فى ناحية ما؟". فأجاب بقوله: "لا شيء قط، لكننا تجاوزنا المناطق المزروعة، ووصلنا الآن إلى المناطق الجرداء وهذه الرائحة الكريهة تنبعث منها. وكنا فى العام الماضى أثناء تجولنا فى "چقوراوه" نسير فى [مناطق] لها هذه الرائحة الكريهة، لكننا لم نكن نشعر بها، لأن كل المناطق كانت سواء. لكن الآن، بعد أن تم إصلاح وزراعة منطقة منها، شعرنا برائحة المناطق الخربة. واتضح من هذا أن ما كانت عليه " چقوراوه " من خراب هو السبب فى فساد هوائه، فإذا ما تم تعميره، طاب هواؤه". والواقع أن دراسات "ابن خلدون " تؤيد هذا، لكن إحياء وتعمير منطقة " چقوراوه " بأكملها يحتاج إلى عدد كبير من السكان. ومهاجرو " النوغاى "، الذين تم إرسالهم من قبل، وهم حوالى ألفين أو ثلاثة آلاف أسرة، لأنهم من سكان وادى نهر " قويان "[1]، فقد أعجبوا بوادى نهر " جهان "، وكونوا قرى جميلة على طول ضفتى النهر، ونشروا العمران فى منطقة صغيرة جدا من " چقوراوه ". أما هذه المرة، فقد أخذنا خيام العشائر وبنينا منازل بدلا منها لتشكيل قرى جديدة، إلا أن أماكن كثيرة ظلت خالية بسبب رحابة منطقة " چقوراوه ". وكان بها آنذاك الكثير من المهاجرين الشركس، لكن إذا جرى تسكينهم فينبغى أن يسكنوا الهضاب والجبال، لأن سكان الجبال لا يمكنهم العيش فى السهول.

مع هذا كان الباب العالى يمنع إنشاء المبانى الضرورية للحكومة فى حالة إسكان

(1) نهر كبير يتبع روسيا، ويمر من القوقاز، وينبع من سلسلة جبالها ثم يتفرع إلى فرعين أحدهما يصب فى البحر الأسود، والآخر يصب فى بحر آزاف.

عشائرنا وتكوين القرى والقصبات الجديدة». والآن لم يعد هناك وقت للتفكير فى مثل هذه الأمور. ولو قمنا بصرف أكياس العشور المقررة على محصول القطن هذه السنة فى " چقوراوه "، أو أى جزء بسيط من الإيرادات الجديدة التى حققناها، والتى لم تكن ضمن ميزانية الدولة، يمكن أن نقيم منها المبانى الضرورية للحكومة. لكننا لو شرحنا هذه الأمور للباب العالى، فسيحتاج الأمر لوقت طويل. كما أن الباب العالى كان يرمى إلى إرجاء الأمر إلى السنة التالية، ليقولوا عند عرض الأمر على جلالة السلطان بأننا صرفنا هذا القدر من مصاريف هذه السنة، كنوع من الإخلاص الذى لا أصل له.

وقد وصلنا إلى قصبة "سيس" مركز متصرفية "قوزان"، وهذه الأفكار تملؤنا، وتقابلنا مع "إسماعيل باشا"، وعندما انتهينا من التحقيق مع بضع مئات من المتهمين المقبوض عليهم فى واقعة "بيلان كوى"، أرسلنا بضع مئات منهم ممن صدرت ضدهم أحكام إلى " أطنه "، لأنه لم يكن قد تم بعد بناء سجن [فى سيس].

وفى الحروب التى دارت [فى بيلان كوى] قتل كثير ممن تسببوا فى الاضطراب، وألقى القبض على بقيتهم، وبهذه الطريقة أرسى أساس الإصلاحات فى منطقة " قوزان "، لكن عدم وجود سجن فى مركز سنجق "قوزان " الكبير، الذى شرعنا فى إنشائه كان يبدوا أمرا غريبا وقبيحا. والحال أن مقر الحكومة فى "أطنه " كان مكانا خربا، كذلك كان سجنها آيلا للسقوط، ولما رأى المحبوسون أنهم معرضون للخطر بدأوا فى الاستغاثة، ولم نجد مكانا لحبس المتهمين المرسلين من " قوزان ".

وظهر أن القرى الجديدة الكثيرة، التى أنشأتها مؤخرا عشيرة " صيرقندى " على طول الطريق الموصل من " سيس " إلى " أطنه "، وطوله يطوى فى ثمان عشرة ساعة، من المقرر تقسيمها إلى مديريتين، فيضم بعضها إلى "سيس"، والبعض الآخر إلى "أطنه"، وأن يعين لهما مديران. بالإضافة إلى بناء مقر صغير للحكومة فى كلا المكانين. كما أن هناك كثير جدا من التجار، سوف يترددون من "أطنه" على "قوزان"، التى تمت السيطرة عليها وأعيد تكوينها. وهؤلاء التجار لن يمكنهم مطلقا قطع هذه المسافة البالغ طولها ثمان عشرة ساعة، فى يوم واحد. وهذا يستلزم

بناء خان فى إحدى القرى الجديدة الواقعة فى منتصف هذا الطريق، ليقضوا فيه ليلتهم. ومثل هذه الأشياء لا تثير الآن اهتمام وتقدير أهل العشائر، لذا فهى مرهونة باهتمام الحكومة. وبناء خان كهذا يستلزم وجود عدد من رجال الشرطة، وأيضًا قسم شرطة محكم. لكن أسس العمل التى وضعها الباب العالى [للتصرف فى حدودها] حالت دون هذا كله.

فالاقتصاد وحسن الإدارة يقضى بألا ننفق نقودا فى غير ضرورة، وإلا فإن عدم دفع ثمن البذور، وترك الحقول خالية، أمْرٌ يخالف تماما مبادئ الاقتصاد والإدارة، فالدولة تحتاج إلى زيادة إيراداتها لتسوية ميزانيتها، وهذا يتحقق بتعمير الدولة. وفى الوقت الذى كانت الخزانة الجليلة لا تحقق أدنى إيرادات، ولو حتى "پاره" واحدة من جبل البركة، ومن جبال "قوزان"، فإنه سوف يتحقق لها إيرادات جديدة كثيرة من خارج الميزانية. والخوف من النفقات اللازمة لنمو هذه الإيرادات، يعادل البخل على الحقول بثمن البذور. وعندما كان "رشدى باشا "[1] خارج الحكومة، اتخذ من مثل هذه الموضوعات مجالا للحديث، وكان يقول كلاما طيبا، لكن عندما تولى منصب الصدارة صرف ذهنه عما يجرى خارج إستانبول لكى يقول على الورق: "إننى اقتصدت هذا القدر هذه السنة، وقمت بتسوية الميزانية". وعندما عزل "رشدى باشا" بعد فترة، وأصبح "عالى باشا" صدرا أعظم، "وفؤاد باشا" وزيرا للخارجية، لم تطبق أصول تشكيل الولايات فى كل الأماكن.

كان "سالم باشا" (سالم أفندى) متصرف "قوزان" رجلا شجاعا غيورا، فقام بتنفيذ الأصول الجديدة للولاية فى سنجاق "قوزان" أولا قبل غيره وعلى أهله الذين لم تطبق عليهم من قبل قواعد تشكيل الولايات القديمة.

وبعد أن طبقت التشكيلات الجديدة فى "أطنه" أيضا، اتجهنا إلى "پياس". وبعد أن وضعت الأعمال المتعلقة بالتشكيلات موضع التنفيذ، عدنا إلى حلب عن طريق " عثمانية "، " وإصلاحية "، " وعزية ".

---

(1) رشدى پاشا: يقصد " مترجم رشدى محمد باشا ".

تشكيل قضاء زيتون

كما عرضنا من قبل، فإنه فى عام ١٢٨٣هـ [١٨٦٦م] توجه " حسين حسنى بك " ـ أحد مقدمى أركان الحرب ومرافق عبدكم العاجز ـ إلى منطقة " زيتون " بناء على الصلاحية المطلقة الممنوحة له من الباب العالى، باعتباره واليا على "زيتون"، وبرفقته فصيلتان من رماة البنادق.

وكان " قورت إسماعيل باشا " قائد الفرقة الإصلاحية فى حلب، قد أرسل كتيبة من " قوزان " إلى " كوكسون " الواقعة إلى جوار "زيتون". كما أرسل أيضا عددا من الجند إلى " ألبستان " الواقعة فى الشمال منها. أما الكتائب الأخرى، فما أن وصلت إشارة من " حسين بك"، حتى تمت تعبئتها على النحو الذى يمكنها من الوصول إلى " زيتون " فى يوم واحد.

وعندما رأى أهل "زيتون" أنهم محاصرون من كل جانب، اضطروا إلى الخضوع "لحسين بك"، وعلى الفور ترك فصيلة من الفرسان، ورتب عساكر شرطة (الدرك) من المشاة على أن يكون نصفهم ـ سواء من الضباط أو الجنود ـ من المسلمين والنصف الآخر من الأرمن. وكانوا كلهم من الأكفاء.

وبهاتين الفصيلتين من الشرطة، بدأ " حسين بك " فى تطبيق أصول الولاية وإصلاح أحوال منطقة " زيتون "، ولم نكن نعلم عن الأمر شيئا. وكان فى قصبة "زيتون" نفسها حوالى أربعين أسرة من المسلمين كانوا مستثنين من القرعة العسكرية لوجودهم تحت حماية زعيم " زيتون ". كذلك قرى المسلمين المجاورة لها لا تقدم جنودا استقواء به.

واحتفظ " حسين بك " بالجنود النظامية التى معه على سبيل الاحتياط، وبعد أن أجرى القرعة بين المسلمين أولا بواسطة كتيبتى الشرطة اللتين معه، تمت تسوية وتنظيم المعونة العسكرية للأرمن.

وبناء على هذا تم تشكيل قضاء جديد ليكون مركزا لقصبة " زيتون " وتم حل وتسوية مسألة " زيتون "، وتعيين قائمقام ونائب، وتشكيل المجالس على أن يكون

نصف الأعضاء من المسلمين والنصف الآخر من الأرمن. وذلك حسب ما تقتضيه أصول الولاية. ولم يمض وقت طويل بين هذا وذاك حتى ظهر اضطراب فى قصبة " زيتون "، واستطاع " حسين بك " بواسطة الشرطة التى كانت فى حالة انتظام وانضباط، أن يقبض على رؤساء التمرد، وعلى الفور تم تأديبهم، وبذلك أخمد التمرد ثم أرسل زعماء " زيتون " الأربعة إلى حلب، على أن يرسلوا من هناك إلى إستانبول ، وتم تكملة وتعزيز الإصلاحات فى "زيتون". وعندما روعيت الأصول التى وضعت فى ذلك الحين، استتب الأمن والهدوء فى قضاء " زيتون ".

إكمال إصلاحات جبل البركة

رغم استسلام " على أغا بن على بكر " على النحو المذكور، فإن أخاه " دلى فقيه " اعتصم بجبل البركة، وبصحبته بضع مئات من قطاع الطرق، وكان استئصالهم من [جبل بركة] أمرا فى غاية الصعوبة، بسبب خطورة المكان الذى يتحصنون به والذى كان فى منطقة هاوية. والحال أن جماعة من هؤلاء اللصوص كانوا يهبطون من الجبل إلى "پياس" من وقت لآخر ويقطعون الطريق على المارة. وتبين أن استمرارهم [فوق الجبل] على هذا الحال، وتزايد أعدادهم بمرور الوقت، سيعيد جبل البركة إلى حالة التمرد التى كان عليها.وبسبب أهمية منطقة " الروم ايلي " وحساسيتها فى تلك الأثناء، فلن يأذن لنا الباب العالى بمهاجمتهم إذا استأذناه فى هذا بدعوى أن " الوقت غير مناسب لإثارة المشكلة من جديد". وبناء عليه، خرجت الفرقة الإصلاحية إلى الجبل فى الحال بالقوة الموجودة لديها برئاسة " قورت إسماعيل باشا " بدون إبلاغ الباب العالى بالأمر. وأصدرنا له أمرا حاسما بضرورة استئصال هؤلاء الأشقياء. وكتبنا له أن متصرفى "پياس"، "ومرعش"، "وقوزان"، "وأطنه" سيكونون ضمن معيته إلى أن ينتهى من هذا الأمر، وأنه إذا مست حاجة الفرقة إلى شيء ما، فعليه أن يأمرهم به. كما أرسلنا أيضا مكاتبات إلى هؤلاء المتصرفين بهذا المعنى، وأعلنا إلى القبائل والعشائر المجاورة عن مكافأة ضخمة قدرها مائة ذهب، لمن يأتى برأس " دلى فقيه "، وسوف تدفع المكافأة نقدا فورا. وكانت المائة ذهب مبلغا ضخما بالنسبة لذلك الوقت ولأحوال جبل البركة، وهكذا زاد عدد المتربصين "بدلى فقيه "، والمتعقبين له.

واعترى القلق " قورت إسماعيل باشا " بسبب شدة انحدار الأرض وصعوبة الأمر الذى كان بصدده. ومع أن أغلب الأمراء والضباط الذين فى معيته لم يرُق لهم هذا، لكنه كان مضطرا إلى تنفيذ مهام وظيفته العسكرية طوعا أو كرها. وصعد إلى ذروة الجبل ومعه ست كتائب من المشاة النظاميين وثلاث فصائل من الفرسان النظاميين، وضباط الشرطة وكل من معه، وتم توزيع الكتائب إلى مجموعات كل منها يتكون من فصيلة أو اثنتين، وعندما تم محاصرة هؤلاء اللصوص فى مكان ضيق، اسمه "قورت قولاغى" كان بمثابة الملاذ الأخير لهم، وفى النهاية اضطر "دلى فقيه" إلى الاستسلام للجنود رغم عدم ثقته فيهم.

فبسبب كثرة المتربصين به طمعا فى المائة ذهب المكافأة، لم يجد" دلى فقيه " أمامه سبيلا للفرار إلى حلب، فاستسلم إلى "إسماعيل باشا" بشرط أن يرسله إلى حلب سالماً. فأرسله إلى هناك متحفظا عليه، وصدر أمر لبعض أهالى قرى " كوللى " والقرى المجاورة لها بالنزول إلى "پياس "، والبعض الآخر بالنزول إلى قضاء "خاصة ". وبعد ذلك مُنعت السكنى فى هذه القرى، وفى معقل " على بكر " منعا باتا. كما أنشئت مخافر شرطة فى "خاصة" "وپياس" لمنع أى أحد من الصعود إلى الجبل والسكنى فيه.

وبعد ذلك قام " إسماعيل باشا " ببناء معسكر يتسع لأربعمائة جندى فى المكان الذى عسكر فيه "إبراهيم باشا المصرى" فى "يارپوز"، حتى يضمن دوام استتباب الأمن والانضباط فى الجبل، ثم اتخذ الإجراءات اللازمة لإقامة نصف كتيبة من العساكر السلطانية الموجودة فى معسكر "إصلاحية"، فى تلك المنطقة. ورغم ضيق (إسماعيل باشا) من عبدكم فى أول الأمر، بسبب تكليفه بهذا الأمر الخطير، إلا أنه بعد ذلك زال ما كان فى نفسه من ضيق ـ وذلك لأن "إبراهيم باشا" اضطر إلى التراجع بجيشه الجرار من جبال "أولا شلى" مهزوما خاسرا. كذلك استخدم "درويش باشا " المدافع والبنادق فى هذه الجبال لمدة تسعة أيام، وأجبر زعماء قطاع الطرق على التسليم، وشتتهم، أما " قورت إسماعيل باشا " فقد أحرز نصرا مظفرا،

بإكمال الإصلاحات واستئصال شوكة الأشقياء مما أكسبه صيتا وشهرة واسعين، سواء فى تلك المناطق أو بين الهيئة العسكرية.

وقد أقامت كتيبة استطلاع فى تلك المنطقة،إذ أقام "قورت إسماعيل باشا" معسكرا يتسع لثمانمائة جندى فى "فكه"، وهى بمثابة المفتاح لجبال "قوزان". وعندما كنت ـ عبدكم ـ واليا على سوريا، رفع " أحمد باشا ابن قوزان " راية العصيان، فتحركتُ من سوريا على وجه السرعة بموجب الإرادة السنية لحضرة السلطان ظل الله، للسيطرة على " قوزان ". وعند وصولنا إلى هناك، أجبر " أحمد باشا " إلى الاستسلام، وأعدنا النظام إلى " قوزان " أيضا، وأعيد تعمير معسكر "فكه " المذكور، وتركنا هناك كتيبة من الجند.

فذلكة

بالقضاء على لصوص جبل البركة تمت الإصلاحات التى بدأتها الفرقة الإصلاحية، وتمت السيطرة على المناطق التى كانت لا تعترف بأوامر الدولة أصلا مثل منطقة " قوزان "، وعلى من يتخذون من السرقة وسيلة لكسب العيش مثل أهل جبل البركة والعشائر المهاجرة، وأصبحوا جميعا خاضعين للتجنيد، ويدفعون العشور والضرائب للدولة.

تنظيم شرطة حلب

كانت قوة شرطة حلب مرتبة منظمة من قبل وفق نظام "الجاندارمة " [الشرطة العسكرية]، ومقسمة إلى ثلاث كتائب، كتيبة للمشاة، وكتيبة للفرسان الجاندارمة، وهى موزعة على عاصمة الولاية والمناطق التابعة لها، كما هو متبع فى باقى الولايات، وأعدت الكتيبة الثالثة لمقاومة بدو الصحراء. وتتكون كتيبة الفرسان المتنقلة من خمسمائة جندى مقسمين إلى خمس فصائل. وكان ضباط الكتيبة وجنودها من ذوى الكفاءة العالية، إذا ما قورنوا بنظرائهم فى الأماكن الأخرى. وكانت فصائل الفرسان المتنقلة تضم رماة مهرة يمكنهم إصابة الهدف وهم على صهوة جيادهم، وهى منطلقة بأقصى سرعتها.

وكنت قد أحضرت لهؤلاء الفرسان من أوربا خمسمائة بندقية بارود سداسية الطلقات. واستدعيت لكل فصيلة من الفصائل الخمس عريفا معلما من لواء الفرسان النظامية، تولى تعليمهم فى بعض المراحل. وأعطيت لكل فصيلة نفيرا، وأعددت من سيقومون باستخدامه. ونظمتهم مثل لواء الفرسان النظامية. وهكذا انتهت سيطرة العربان القديمة. حيث كان فرسان " عنزة"[1] قد اعتادوا الهجوم على الفصائل المتنقلة، أما الآن فقد أصبحوا يخشون هذه الفصائل بعد أن أصابتهم نيرانها من بُعد. لكن هؤلاء العربان كانوا يلجأون إلى القرى البعيدة عن الفصائل المتنقلة، ولم تكن هذه القرى تسلم من اعتداءاتهم.

وسبق أن صدر أمر من الباب العالى بانضمام واليى سوريا وحلب إلى مشير الجيش، لوضع خطة أساسية بخصوص الصحارى. فاجتمع الثلاثة، لكن لم يوفقوا فى الدخول فى المناقشة.

وبناء على ذلك قرر "درويش باشا" مشير الجيش السلطانى الخامس، "وراشد باشا" والى سوريا إبلاغ عبدكم بالاجتماع فى حماة. فاتجهت فورا إلى هناك، ومعى فصيلة متنقلة. وعدد من جنود كتائب الفرسان المحلية.

وعقب ذلك جاء "درويش باشا" وبدأنا فى مناقشة الأمر فى أوائل المحرم من عام ١٢٨٤هـ[١٨٨١م].

وكانت كل ملابس فرسان شرطة حلب وأسلحتهم بحالة جيدة وجديدة. وعندما ذهبوا إلى " حماة "، تصور [الناس] أنهم من الفرسان النظامية لأن توجيههم كان يتم بالنفير، واتضح لهم بعد بضعة أيام أنهم جنود الشرطة. أما شرطة سوريا، فكانت حتى ذلك الحين غير نظامية.

وتبين من مناقشاتنا فى "حماة" أن فرسان البدو إذا ارتادوا العمار ودخلوا قرية أفسدوها وسرقوا المواشى والخيول، وتعذرت مطاردتهم أو إدراكهم لأن خيام

(1) عشائر من البدو كانت تسكن صحراء حلب، وهم قبيلة عربية موطنها شمال نجد، وكان عربان هذه القبيلة يتجولون فى بقية المناطق الحجازية.

وكنت قد أحضرت لهؤلاء الفرسان من أوربا خمسمائة بندقية بارود سداسية الطلقات. واستدعيت لكل فصيلة من الفصائل الخمس عريفا معلما من لواء الفرسان النظامية، تولى تعليمهم فى بعض المراحل. وأعطيت لكل فصيلة نفيرا، وأعددت من سيقومون باستخدامه. ونظمتهم مثل لواء الفرسان النظامية. وهكذا انتهت سيطرة العربان القديمة. حيث كان فرسان " عنزة"[1] قد اعتادوا الهجوم على الفصائل المتنقلة، أما الآن فقد أصبحوا يخشون هذه الفصائل بعد أن أصابتهم نيرانها من بُعد. لكن هؤلاء العربان كانوا يلجأون إلى القرى البعيدة عن الفصائل المتنقلة، ولم تكن هذه القرى تسلم من اعتداءاتهم.

وسبق أن صدر أمر من الباب العالى بانضمام واليى سوريا وحلب إلى مشير الجيش، لوضع خطة أساسية بخصوص الصحارى. فاجتمع الثلاثة، لكن لم يوفقوا فى الدخول فى المناقشة.

وبناء على ذلك قرر "درويش باشا" مشير الجيش السلطانى الخامس، "وراشد باشا" والى سوريا إبلاغ عبدكم بالاجتماع فى حماة. فاتجهت فورا إلى هناك، ومعى فصيلة متنقلة. وعدد من جنود كتائب الفرسان المحلية.

وعقب ذلك جاء "درويش باشا" وبدأنا فى مناقشة الأمر فى أوائل المحرم من عام ١٢٨٤هـ[١٨٨١م].

وكانت كل ملابس فرسان شرطة حلب وأسلحتهم بحالة جيدة وجديدة. وعندما ذهبوا إلى " حماة "، تصور [الناس] أنهم من الفرسان النظامية لأن توجيههم كان يتم بالنفير، واتضح لهم بعد بضعة أيام أنهم جنود الشرطة. أما شرطة سوريا، فكانت حتى ذلك الحين غير نظامية.

وتبين من مناقشاتنا فى "حماة" أن فرسان البدو إذا ارتادوا العمار ودخلوا قرية أفسدوها وسرقوا المواشى والخيول، وتعذرت مطاردتهم أو إدراكهم لأن خيام

(1) عشائر من البدو كانت تسكن صحراء حلب، وهم قبيلة عربية موطنها شمال نجد، وكان عربان هذه القبيلة يتجولون فى بقية المناطق الحجازية.

ليكون نقطة إمداد للمفرزة. وقد أرسلت السروج الأسبانية التى تبقت من حرب القرم إلى ألوية وعساكر الفرسان النظامية فى سوريا، وكانت هذه السروج كبيرة بالنسبة للخيول العربية، وتناسب الخيول الكبيرة الحجم، ولهذا كانت ظهور الخيل تتقرح إذا ما أسرعت بها فرق الفرسان النظامية مدة ساعة أو اثنتين. وقد وضعنا خريطة توضح أماكن وجود الماء فى أى مكان بالصحراء الواقعة بين نهر "الفرات"، "وسخنى"، "وتدمر"، "وحماة"، "وحمص" وأعطيناها لقائد المفرزة. وكانت مفرزتنا تستطيع التحرك بحرية فى كل مكان بالصحراء. وترسل مجموعة منها إلى أى مكان بالصحراء. وما أن شاهد البدو هذه القوة المتنقلة، حتى كفوا عن مهاجمة المناطق الآهلة بالسكان، بل إنهم بدأوا فى دفع ضريبة الإبل، التى تتراوح بين المائتين أو الثلاثمائة للرأس، ليتمكنوا من رعى إبلهم فى الصحراء وهم آمنون.

وكانت شرطة "پياس"، "وقوزان" قد أعيد ترتيبها بمعرفة الفرقة الإصلاحية، وفق أصول "الجاندارمة" (الدرك). ورتبت شرطة "أطنه" على نفس هذه الأصول، وأصبحت شرطة كل الألوية التى تضمها ولاية حلب مرتبة على أصول الجاندارمة. لكن سنجق "زور" فقط لم يخضع لهذه التشكيلات و لذا فمن المناسب أن أوضح وأعرض بشكل مجمل، أحوال منطقة الصحراء.

سنجق زور

يمتد سنجق "زور" فى وادى نهر الفرات حوالى مائة ساعة طولا، وتقع قصبة "دير" مركز سنجق "زور" على مسافة ثمانين ساعة من حلب، ويمتد السنجق من قصبة "دير" حتى بغداد مسافة خمس وأربعين ساعة على شاطئ نهر الفرات. ووادى الفرات أخصب مناطق الدنيا وأهله يشتغلون بالزراعة، لكنهم فى حالة ترحال، إذ يزرعون لفترة قصيرة عقب انقضاء فصل الشتاء. وعندما يحل موسم الحصاد يجمعون محاصيلهم فى أجولة، ويتجهون مباشرة إلى المناطق الآهلة بالسكان. وكان بدو "عنزة" يقيمون شتاء فى صحارى "حمامات"، على مسافة مائة وخمسين ساعة من حلب. كذلك عشائر "الحديدى" تقيم فى الشتاء بالقرب منهم، وعندما تبدأ عيون الماء التى فى الصحراء فى الجفاف مع حلول الربيع، الذى يصادف موعد تحرك

بدو "عنزة" من المشتى، تبدأ العشائر الصغيرة فى التوجه بأغنامها التى لا حصر لها نحو المناطق الآهلة بالسكان، فى حراسة بنادقهم. وعندما يدنو بدو "عنزة" من الأماكن الآهلة بالسكان، ترتحل عشائر "الحديدى" إلى الأماكن المعمورة، ولأن هذا الوقت يصادف موعد الحصاد فى تلك الأماكن، فإن قبائل "الحديدى" ينتشرون بين القرى يرعون حيواناتهم، ولهذا فهم مضطرون إلى دفع رسم عدد الأغنام. أما عربان "عنزة" فكانوا يرعون إبلهم فى الصحارى القريبة من العمران، ويأخذون من القرى الواقعة على مشارف الصحراء إتاوة باسم "خوه". لكن الحكومة المحلية القوية، منعت البدو من أخذ هذه الإتاوة. كما كان البدو يسرقون الحيوانات من بعض القرى، فتطاردهم الحكومة. وكانت عشائر "الموالى"، "ومهيب" تبلى بلاء حسنا فى هذا القتال الناشب، لأن عشيرة "الموالى" تقوم بالحراسة فى هذه الصحارى منذ أمد بعيد، ثم بدأت عشائر "عنزة" فى التردد على تلك المناطق لبسط نفوذها، فكان "الموالى" يقاتلونهم ويكبدونهم خسائر فادحة، فتناقص عددهم. والواقع أن الفارس من "الموالى" يقابله عشر فرسان من " عنزة ". وكانت" عنزة " فى تزايد مستمر، وتسيطر فى الصيف على صحارى حلب وسوريا. أما " الموالى" فاحتموا بأطراف المناطق الآهلة بالسكان. وعندما أرسلت الحكومة المحلية جنودا للهجوم على " عنزة "، قدمت عشيرة " الموالى " العون لهم، وكانت عشيرة "عنزة" برماحها لا تقوى على الصمود أمام الأسلحة النارية، فتجر أذيال الفرار، ولا تستطيع [الحكومة المحلية] أن تتعقبهم. لكن فى تلك الأثناء، تعقبتهم عشيرة " الموالى " وغنموا حيواناتهم. ولما كان الجانبان متضررين من هذا القتال، فإن شيخ "عنزة " طلب حق السماح له بالمرور من الصحراء فى فصل الصيف. كما كان يقابل الوالى كلما أرسل فى طلبه. وعندئذ يخلع عليه الوالى، فيخرج الشيخ فورا بهذه الخلعة إلى السوق ويجلس فى مكان ويأتى التجار والباعة للتفرج عليه، وبعد ذلك يعود إلى عشيرته التى تكون على مشارف العمران. وبناء على هذا شعر الطرفان بالاطمئنان، وبدأ البدو خاصة التجار منهم فى التردد على المدينة بقصد التجارة، فكانوا يقصدون الأناضول لشراء الإبل، ويتردد التجار المنتظرون على خيام " عنزة " للتجارة. ويُحصِّل شيخ " عنزة " عن كل رأس تباع من الإبل مبلغ

عشرين قرشا، كما يدفع عشرون قرشا ذهبا أخرى إلى الحكومة، وهو رسم الإبل المقرر فى دفاتر الخزانة.

وبتشكيل المفرزة على النحو المذكور، بدأ (البدو) فى دفع ضريبة الإبل المعروفة باسم ضريبة "ويدى" إلى الحكومة. هذا بالإضافة إلى امتناعهم عن أخذ إتاوة "خوه" من القرى.

وكانت الإبل أثناء سيرها فى الصحراء تنتزع أشجار السمر التى على الجانبين، وتتغذى بها. وكان هذا النوع من الإبل يستطيع أن يتحمل العطش لفترة تتراوح بين ستة واثنى عشر يوما، أما الإبل "النعمانية"، فتحتمل العطش مدة تصل إلى اثنى عشر يوما، وهى مرتفعة الثمن، والحصول على بضع مئات منها يعد من الأمور الصعبة. ومع أن الإبل التى معنا من النوع الذى يتحمل العطش من ستة إلى ثمانية أيام، إلا أننا رتبا أمورنا على أقل من ستة أيام، مع أنه لا يوجد فى صحراء حلب أماكن بلا ماء لمدة تزيد على (مسيرة) ثلاثة أيام. وبناء عليه كانت الإبل تربى فى فصل الصيف بغير نفقات، وهى حيوانات مباركة. أما فى الشتاء فتكون تربيتها صعبة، لأنها توضع فى أماكن مغلقة، فتصاب بالجرب لو أطعمت بالخبز الخمير. لذا كان يجب معالجتها بدهن جسمها دائما بأشياء مثل القطران.أما رجالنا، فلا يمكنهم القيام بهذا، وبناء على ذلك كنا نسلم هذه الإبل إلى شيخ مشايخ "الحديدى" فى فصل الشتاء، فيأخذونها معهم إلى الصحراء ويحضرونها فى الصيف. وبهذه الطريقة كانت تربى الإبل فى الشتاء دون نفقات. وبعد عودة عبدكم إلى إستانبول، كان لا يمكن تربية الإبل بهذه الطريقة، فبيعت واشترى بدلا منها بغال خصصت لكتيبتى المفرزة. والواقع أن تربية البغال بالنسبة لنا كان أمرًا سهلاً، لكن كانت تحتاج علفا فى الصيف والشتاء، كما لم يكن يمكنها السير فى عمق الصحراء.

أما " أرسلان باشا "، قائد فرسان "الكرج" والشركس فى الفرقة الإصلاحية، فقد تبعه راكبو البغال فى حلب عندما عين متصرفا على "زور". ولأن " أرسلان

باشا" رجل شجاع هُمام، فقد حفظ وادى الفرات من شر قبائل "عنزة". وأعيد بناء جانبى الفرات بإنشاء قرى جديدة. وبعد ذلك عين أحد الباشوات من طاغستان برتبة الفريق، متصرفا "لزور". ولأن هذا الرجل كان من الضباط الروس الذين انضموا إلينا أثناء حرب القرم، فقد كان يجاهر بشرب الخمر مع زوجته كما هو معتاد فى روسيا، ولذا كانت عشائر العرب تنظر اليه على أنه جاسوس، وكانوا ينفضون من حوله. ولذا تخربت القرى التى أنشأها "أرسلان باشا" على ضفة نهر الفرات، وعاد أهلها إلى حالة الترحال.

تمرد الهرسك

اقترح " درويش باشا" والى البوسنة بعض الإجراءات لإخماد شرارة التمرد التى أطلت برأسها فى قضاء "نوه سين" بالهرسك، وهى فى مهدها، لكن بعض الأمراء العسكريين قالوا إن "درويش باشا" هو من أشعل هذا التمرد بهدف إجراء بعض المناورات العسكرية" وبالتالى لم يهتموا بما يرسله من أخبار.

وفى تلك الأثناء، فسدت العلاقة بين "عثمان باشا" (غازى عثمان باشا) قائد الفرقة العسكرية فى البوسنة، و"درويش باشا". وكان "عثمان باشا" قد جاء إلى إستانبول وهو فى طريقه لمهمة فى الأناضول. وعقب ذلك أصبح "أسعد باشا" صدرا أعظم، وأخذ يتقصى حقيقة الأمر، فلما جاء رد الجهة العسكرية بأن " درويش باشا" هو سبب هذه التمرد، وبقاؤه هناك يزيد من هذا التمرد و يجب عزله فورا، لم يول الأمر الاهتمام اللازم بينما كان ينبغى عزل درويش باشا فى حال عدم الاطمئنان إلى بياناته.

وفى تلك الأثناء وبينما عبدكم فى الطريق عائدا من "يانيه" إلى إستانبول ، وصلت برقية من " درويش باشا " بضرورة إرسال عدة طوابير من العساكر النظامية إلى "نوه سين ". وأشيع أيضًا احتمال انتقال " بوب ژارقو " وعصابته من الصرب إلى الهرسك،. وبناء على ما عرض إجمالا من قبل وما وضحه عبدكم من أن الأمر سيكون فى غاية الحساسية، إلا أنهم لم يعطوا الأمر أهمية. بل لم تجر حتى

مناقشات جادة له فى مجلس الوزراء الخاص. وأظن أنه بمجرد أن تبوأ "أسعد باشا" منصب الصدارة، كان يتصور أنه يمكن التغطية على هذا الأمر حتى لا يقال إنه يبالغ فى تقدير الخطر.

وعندما أصبح " محمود باشا " صدرا أعظم بعد ذلك مباشرة، انشغل بالمشاكل المالية، واجتاحت نار التمرد كل مناطق الهرسك، وبدأ فى جمع الجند الاحتياطى من البوسنة، وإرسال الطوابير من إستانبول ، لكن ما العمل والخطر كان يعظم، ولا يمكن السيطرة عليه. كذلك بدأت بوادر التمرد تظهر بالتدريج فى بلغاريا أيضًا.

obeikandl.com